

سورة التين

أَلَمْ نَجْعَلِ الْإِنسَانَ  
مِمَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُهُ  
فَقَلْبًا



سورة التين



.. لا أعرف من الذي قال العبارة الجميلة التي كنت أراها مبرر وجودي في الدنيا. والتي لخصت لي كل ما مررت به في حياتي. أحفظها منذ أن التقطتها أدناي مصادفة. ولا أدري متى وأين كان ذلك؟ ولكن العبارة دخلت ذهني لكي تبقى فيه. ويظل طنينها يصلني.

تقول الكلمات "إن الله سبحانه وتعالى. كان يريد أن تصل رحمته إلى كل مخلوق على الأرض؛ لذلك رحمةً منه بعباده، خلق الأمهات".

لا أجدني في حاجة إلى القول إنني أم. وإن أبنائي كثيرون، وكل الذي سأرويه لكم الآن يدور حول أبنائي وما فعلوه بي وبأنفسهم.

لأقدم لكم المشهد الذي سأبدأ منه أولاً.

لم يكن يؤنس وحشتي.. ويبيد وحدتي سواء. إنه التليفزيون، آخر المخلصين لي. والوحيد الذي لم يفارقني أو يتركني. يخيل إلي □ في بعض الأحيان أنه رفض البعاد عني.

رغم كل الإغراءات التي عرضت عليه. ظل معي، رهن إشارتي. أول من يطيعني، وآخر من يفكر في معصيتي.

أطلب منه الكلام فيتكلم. وأصد عنه فيلود بالصمت. علاوة على أنه من روائح المرحوم. هو الذي اشتراه لي في سنوات ظهوره الأولى. ومازلت أبادله وفاء □ بوفاء. وودا بود. ورفضت كل المحاولات التي جرت معي من أجل تغييره. رغم الشيخوخة التي بدأت تظهر على ملامحه. والتعب الذي دب في أوصاله، والوهن والخرفشة والتقطع الذي أصاب صوته.

كنت أشاهده مستقلة على ظهري. أنظر إليه. وعندما أتعب من الخيالات ويتوه عقلي، أرفع عين لي إلى السقف. كانت مارلين مونرو مع بعض الرجال الذين يفضلونها ساخنة، والعصابة التي تطارد الموسيقيين. والبعض يحاول الاختباء "يا روحي ما بعدك روح".

كان كل تفكيري يربط بين الفيلم والتلفزيون الذي يعرضه، كلاهما من زمن الأبيض والأسود. ولن أغير تلفيزيون المرحوم حتى يطلب هو - التلفيزيون - الإحالة إلى المعاش عندها قد يكون لدي □ كلام ثان.

اهتزاز خفيف يصيب الشقة. أقصد البيت الذي أعيش فيه وأسميه الشقة. النجفة المعلقة في السقف اهتزت. أو شكت أن تكمل نصف الدائرة. وكوب الشاي الفارغ الذي كان أمامي وقع في الصينية. والغسيل القليل المكوم على حافة الكنبة التي بجواري، وقع على الأرض.

كنت بين اليقظة والنوم، قلت لنفسي: ربما كانت أحلاما. من الجائز أن تكون هواجس الوحدة، وكوابيس العصابة التي كانت في التلفزيون.

كل شيء جائز. لم أتوقف أمام الأشياء التي وقعت. قلت لنفسي "بعدين" وهل لدي □ ما يتطلب مني عمله بسرعة. الزمن براح ولا نهاية له. وعندما يكون أمامي أي عمل أفرح؛ لأنني ضمننت قضاء وقتي فيه، أكثر ما أخاف منه الوقت، ذلك أنني لا أعرف ماذا أفعل به. خاصة بعد أن جرى لي ما جرى.

أنا متأكدة أنني سمعت صياح ديك في عشة الفراخ التي في الجنيبة الخلفية، ولكنني تذكرت أن الوقت ليس الفجر. وتناهدت إلى سمعي نونوة قطة. مع أن رائحة اللحم أو السمك أو الدجاج لم تعد تخرج من تحت عتبات أبواب

البيوت ولا من شبابيك المطابخ منذ زمان مضى. ومن هذه البيوت بيتنا. وهذه الروائح راحت وراح معها زمانها.

رن في أذني نباح كلب من الجنيئة الأمامية للبيت، رغم إن الدنيا لم تليل بعد. وضوء النهار يرش البلد. والكلاب تنبح على الغريب في الليل أكثر من النهار.

عندما تكررت هذه الأصوات تشاءمت. فهذه المخاليق البكماء ترى ما لا نستطيع رؤيته. وتحاول أن تنبهنا نحن الذين لنا السنة. ولكن بلا بصيرة. تقول لنا – كل بطريقته الخاصة التي خلق قادرا على القيام به – إن هناك خطرا في الطريق إلينا، قلت لنفسي: اللهم اجعله خيرا.

أصخت السمع أكثر. لماذا لا أحاول سماع البني آدمين؟ في هذا الوقت من النهار. تخف الرجل في الشارع. كان هناك ثمة صياح. ومتى كانت الشوارع تخلو من الزعيق؟ حاولت تمييز ما يقال. الأولاد لم يعودوا من المدارس. ولا يوجد من يلعب الكرة الشراب تحت شبابيك البيت. وهذا الوقت يلتم فيه الناس. يعتصمون ببيوتهم حتى تداريهم الحيطان. ومن يريد الخناق – ولكن داخل بيته –

لديه ألف سبب وسبب ليوصله إلى هذا الخلق روحها في  
مناخيرها.

بيتي مثلي. فرداني ووحداني. شقة أرضي توحد  
ربها، ليس لها فوق. وليس لها تحت. قلت لأحاول سماع  
أصوات البيت الذي على يميني. والبيت الذي على شمالي.  
بيوت مبنية في هذه الأيام. والبيت عالي. مكون من كم كات.  
مثل بيوت البنادر. هرج ومرج وهرجلة على السلام.  
وصلتني من ناحية اليمين ومن ناحية الشمال.

قلت لنفسي، ربما كان هذا وقت عودة العفاريت من  
المدارس، لا يراعون الوقت. ولا بدائية بناء البيوت التي  
بنيت بالقسط غير المريح. والفوائد تصبح أكبر من الدين.  
اختفى أعيان زمان. وها هم المقاولون يمصون دماء الغلابة.  
الأولاد لا يصعدون على السلام، ولكنهم يحاولون هدمها. لو  
كانت هذه البيوت قديمة. لتهدمت منهم. مفاعيص يقولون إنهم  
زهقوا من البيوت. ماذا أقول أنا عن نفسي؟ البيت هو كل  
عالمي. وعندما أخرج منه أصبح مثل السمك عندما يخرج  
من الماء. أخاف الموت. الشوارع أمكنة للوفاة. ولا تعود لي  
الروح إلا عندما أجد نفسي بين جدرانها مرة أخرى.

حاول عقلي المتعب أن يربط بين ما جرى في بيتي، وبين الأصوات التي مازالت تصلني من الشارع. طشاش كلام. ولكني كنت متعبة، لم أفعل أي شيء ومتعبة. متعبة من الراحة، متعبة من التعب نفسه. بعيد عنكم الشر.

كانت الدوشة في حالة تزايد مستمر. وتحولت إلى صراخ وزعيق وبكاء. خيل إلى وأنا أحاول تمييز الأصوات التي في الشارع. أن جدار الصالة. قد امتد فيه شق أسود. بدا واضحا رغم أن البياض قديم وباهت. ويبدو أنه لا لون له. كان الشق نازلا من أعلى لأسفل ولكن بصورة متعرجة وليست مستقيمة. كأنه دمة تنزل على خد مليء بالتجاعيد. فتلف وتدور وتتعرج في طريقها حسب هذه التجاعيد.

عدت أستمع إلى الأصوات القادمة من الخارج في هذه الحصة. حيث يصل الهدوء إلى منتهاه. فما الذي جرى في هذا اليوم؟! إنه ليس الجمعة ولا الأحد. حيث يؤجز الموظفون وتلاميذ المدارس في الأول. والعمال في الثاني. ويبقون في بيوتهم ولا يسافرون إلى البنادر التي يعملون فيها. والكتمة في البيت. تلك البيوت المزدهمة. تولد الشر.

وبقاء الناس في مواجهة الناس يصبح مثل الشرر الذي تتطاير منه النيران.

يوم عادي من أيام الأسبوع. وإن كان يوما غير عادي بالنسبة لي. فيه ما يميزه عن الأيام الأخرى. على مدار السنة، في الزمان القديم. كان المرحوم يغضب عندما أغلق الباب في عز النهار. كان يطلب مني تركه مفتوحا. أو على الأقل مواربا، وعندما كنت أقول له إن الباب المغلق يمنع القدم المستعجل، كان يقول لي: يا أم الدنيا الباب المفتوح يسعف الجار المحتاج، وكان يحلم ببيوت تركب لها الأبواب في الليل فقط. إن كان لا بد من وجود باب.

كانت الدوشة مستمرة. وعمرها ما استمرت كل هذا الوقت. حتى الخناقات التي نؤرخ بها لحياتنا تنتهي سريعا، وينطفئ الغضب في الصدر قبل أن يشتعل. فكرت في القيام من رقتي والنظر من الشباك إلى ما يجري. فالناس لبعضهم مهما كانت الظروف. ولكني تذكرت تورم قدمي وراحة الاستلقاء، وجمال السلطنة، وصعوبة القيام والنهجان والفرهة، فبقيت كما أنا.

كانت قدرتي على التركيز فيما كنت أشاهده قد تلاشت. كان آخر ما بقي في الذهن مما كنت أراه. كان جمال البطلة. الذي جعلني أتحسر على أيام الشباب التي ولت وأخذت معها كل ما هو جميل وعذب في العمر. سألت نفسي: لماذا لم يتوقف بي العمر في مرحلة الشباب!؟

سأحاول التقاط أنفاسي وأقوم. سرح خاطري في الدريكة القادمة من الخارج. هل هي خناقة بين الجيران؟ وأي الأيام تخلو من الخناقات؟ حريق شب في بيت قريب من تلك البيوت القديمة المحملة بالحطب بدلاً من السقوف في البيوت الجديدة التي يسمونها عمارات تشبها بعمارات الينادر!؟

لماذا ينزعج الناس من الحرائق والنييران. الحياة كلها حريق مستمر. لا يريد أن يطفئه أحد. الأسعار مشتعلة. والشوارع ملتهبة. ونظرات الناس قطعة من النييران. والكل يتعايش مع هذه الأمور الغريبة. فينظرون لها كما لو كانت من الأمور الطبيعية. ولكنهم يفرعون من حرائق البيوت. التي ربما كانت أقل خطراً من أي حريق آخر.

قلت لنفسي " يا خبر بفلوس بكرة يبقى ببلاش " لأبقَ  
كما أنا، وكل الأمور ستصل إلي. □. عدت أحاول متابعة ما  
يجري على الشاشة. أخشى أن يكون قد فاتني الكثير منه.  
يبدو أنني نسيت التلفزيون، اكتشفت أن الذي يصل إلى أذني  
سرسعة المرأة الجميلة. وجري الرجال الذين لا عقل لهم  
وراءها. والصورة عبارة عن نغمشة وخربشة على الشاشة  
البيضاء. التي كانت مخروشة أصلاً.

كأنهما كانا على موعد. التلفزيون الذي باظت  
صورته. وأخشى أن يكون إصلاحه حكاية. كل أمر سهل  
وبسيط يصبح حدوتة، والرزع والخبط على الباب. مع إن  
الجرس موجود ويعمل. وقد تأكدت من أنه سليم؛ لأنه منذ  
يومين لم يبق علي □ أحد، وكذلك التلفزيون. الذي لم يرن منذ  
مدة. فتصورت أن عطلاً قد أصابه. كنت أرفع السماعة حتى  
أستمع إلى الحرارة وأعيدها إلى مكانها.

الباب عليه خبط. وجرس التلفزيون يرن في وقت  
واحد قلت لنفسي: " الفقي لما يسعد " تضحكت في خاطري؛  
لأن المثل حبك. احترت. أرد على من أولاً. الذي على  
الباب؟ أم الذي على التلفزيون؟! تليفون مستعجل. رنة والثانية

ويعود إلى الصمت من جديد. كل الذين يستخدمونه ملهوفون مهولون كأن وراءهم المحابيس سيطلقون سراهم. ولكن الخبط الذي على الباب من النوع الذي يوغوش، ليس من الخبط العادي. الذي يخبطه إنسان باله رايق.

حسنت حيرتي. ورفعت سماعة التليفون. قبل أن يسكت عن الرنين الذي طال أكثر من أي مرة سابقة. وقبل أن أضع السماعة على أذني التي تسمع بصعوبة زعقت بعلو الصوت:

– مين؟.

والكلمة التي قالتها للسماعة جعلت الذي يخبط على الباب يتصور أنها له. رغم أنني لم أقل: مين اللي على الباب؟ أو مين اللي بيخبط؟.

من وراء الباب جاءني صوت صبي:

– زلزال يا خالتي.

باب لم يقل غيرهما وجرى مبتعدا عن باب البيت الذي هو باب الشقة، الناس تقول عنه باب البيت وأنا أقول

الشقة. وقد ظلت كلمة الشقة غريبة على الناس. رغم السنوات التي مضت على إقامتي بينهم.

زلزلة؟! سألت نفسي. هل وصلت التخاريف بالناس إلى هذا الحد؟ مساكين مخاليق هذه الأيام. نصفهم مجانيين والنصف الآخر يشاور عقله أن ينضم إلى جنة العبط.

أوشكت أن أنسى سماعه التليفون. من رجفة الكلام الذي سمعته. وجود السماعه في يدي هو الذي ذكرني بها، قربت السماعه من أذني:

- ألو.

جاءني صوت من الناحية الأخرى مثل زقزقة العصافير قبل الشروق. عندما كنت أصحو وقت الفجرية؛ لكي أعد الإفطار للعائلة التي كانت:

- بونسوار يا ستو.

كان الصوت غريباً. لم يحفر لنفسه مجرى في وجداني؛ لأنني لم أسمعته من قبل. في الصوت جرأة غريبة بالنسبة لبنت في سن صغيرة. لأن صوتها بدا لي كأنه قد

ودع الطفولة بالأمس. قدمت نفسها لي لأن صوتي بدا عليه  
الاستغراب:

أنا خطيبة نجيب. عاملة إيه في الزلزال يا طنط؟

يبدو أن المسألة جد. رغم أنها تتكلم عن الزلزال كما  
لو كان قطعة من الجبن اشترتها من عند البقال. هذا هو يوم  
الحيرة الكبرى بالنسبة لي. أخرج من حيرة، لكي أدخل في  
حيرة أخرى. احترت من جديد. هل أسألها عن الزلزال؟ أم  
عن حكاية أنها خطيبة نجيب ابني؟.

نجيب ابني القاضي الذي طلعت به من الدنيا. وهو  
ليس موجودا في مصر، متزوج وزوجته حامل في مولودهما  
الأول. الذي أنتظره بفارغ الصبر. صدق من قال. أعز من  
الولد ولد الولد. ابني نجيب أحب إلى من نفسي. والزلزال  
الذي تتكلم عنه هذه البنات المقصعة كما اللبانة مهم أيضا.

عدت للحيرة من جديد. واحتل المساحة بيني وبينها  
في سماعة التليفون صمت طارئ. حاولت الهروب بما أقوله  
عادة. في مثل هذه المواقف الصعبة:

– النمرة غلط يا ابنتي.

قبل أن أضع السماعة. كانت قد حلفت برحمة أبيها أن النمرة صحيحة. وإن نجيب - هكذا نطقت الكلمة - هو في الذي أعطها لها قبل أن يسافر إلى الخليج " وكان ذلك صحيحاً" وإنه اتفق معها على إعلان الخطوبة بعد العودة الصيف القادم. وإنه أوصاها قبل سفره في الشهر الماضي، وكان هذا أيضا صحيحا، أن تأخذ بالها مني. ولكن من بعيد لبعيد؛ حيث إنني لا أعرف موضوعها. والمعرفة المفاجئة قد تسبب لي صدمة لا يتحملها قلبي. وهذا صحيح لثالث مرة.

أكدت أن نجيبها قال لها إنه هو الذي سيعرفني بها عندما يعود. وإنها ترعاني دون أن تظهر في حياتي. تنفيذًا لنصيحة الحبيب الغالي المتغرب. ولكن الزلزال حكم، إنه حالة استثنائية. فكان لا بد من هذه الخطوة التي قد يغضب منها نجيبها. لم تكن تحب الإقدام عليها لولا الظروف؛ ولذلك فهي تعتذر لي ألف مرة. فهي متريبة وتعرف الأصول والواجب.

أي الزلازلين يهزني من أعماقي؟ الزلزال الذي يقولون إنه هز البلد ولم أشعر به؟ أم زلزال عمري الذي أسمعه عن نجيبها؟ عشنا وشفنا. كنت مؤمنة أنه نجيبني

ونجيب زوجته. ونجيب ابنه الذي لم يولد، ولكن ها هي الغريبة تستولي عليه لدرجة أنها تتصوره نجيبها.

الزلال الكبير مقدر عليه. ما سيجري على الدنيا سيجري على. حياالله أنا واحدة من عباد الله الغلابة. ولكن ماذا أفعل في زلال عمري منذ رحيل رفيق حياتي. ونجيبى – لم يعد من حقي استخدامها – حصلت عليها واحدة أخرى لا أعرف من أين خرجت لنا لتقش تحويشة العمر بضربة واحدة.

كل ما تجمعته النملة في عمرها يأخذه الفيل في خفه، وأنا النملة. والبنت المقصعة الفيل الكبير. ليس من حقي سوى أن أقول نجيب ابني. أو نجيب ابن بطني، أما نجيبى التي كنت أقولها له. سرقتها امرأة أخرى. غريبة عنا. وهكذا ضاقت الدنيا في وجهي، أصبحت أضيق من خرم إبرة.

كدت أن أصرفها بالتى هي أحسن، لو كان في البلد زلال فلا بد من التصرف، طلبت منى بإلحاح لا أعرف كيف استجبت له. رجنتى أن أحضر ورقة وقلما. وبعد أن أحضرتها. قالت إنها تعرف من نجيبها. يا بنتى لماذا كل هذا الوجد المتلاحق؟ أعطني فرصة لأخذ نفسي.

ارحميني يرحمك الله. نجيبها قال لها إنني أعرف  
القراءة والكتابة. وهذا صحيح. كم من الضربات الموجعة  
توجهها لي اليوم؟.

أملتني عنوانها في مصر. ورقم تليفونها. قالت إنها  
تقدر ظروفني وتعرف أن علاقتي بزوجة نجيب ليست على  
ما يرام؛ ولهذا فهي تعرض عليّ أن تنزل وتركب سيارتها  
وتحضر إليّ. فهي تعرف البيت. وكثيراً ما أوصلت نجيب  
إليّ وانتظرته حتى تعود به بعد زيارته لي، اكتشفت أنه في  
الإجازة الأخيرة كان يأتي إليّ مستعجلاً ويمشي ملهوفاً.  
وقلت ربما كانت زوجته هي السبب.

آخر مرة خيل لي. بعد أن أضاء قلب الأم الموقف، أن  
شخصاً ينتظره وكدت أن أسأله، ولكنني كتمت السؤال  
في حبة الفؤاد. عرضت عليّ الحضور لكي تأخذني عندها  
حتى ينتهي موضوع الزلزال. الذي جرى لن يكون الأخير.  
وقد تأتي هزات أخرى. وربما كانت أعنف من الزلزال  
الأول أو ربما أهدأ. علم هذا عند الله. حتى أنت يا فاجرة  
تتحدثين عن الله. وكأنك تعرفينه.

قالت إنها تعرف من نجيبها أن بناء البيت لم يكن جيداً، لم تكمل الجملة، لا بد أن الخط انقطع عند هذا الحد. وضعت السماعة. لا بد أنها ستطلب، جلست أنتظري. المكالمة التالية لن تحمل لي أية راحة. بل سأخرج من زلزال إلى زلزال آخر، أكثر منه عنفاً.

كل ما تقوله صحيح. ولكن هل أصدقها بهذه

السهولة؟

نجيب ليس من هذا النوع من الرجال. أعرف أن زوجته تترك لها بلاد، إن المسكين طفش وساب لها بر مصر، ولكن ابنه القادم في الطريق ما ذنبه؟ إن ابتسامته منه لحظة الصباح تساوي تحمل مليون امرأة نكدية مثل أمه.

عاود التليفون الرنين. ولكن الصوت كان متقطعاً. كانت هي نفسها، عرفتها من تغريد صوتها. لا أعرف إن كان صوتي سيصلها أم لا. شكرتها ووعدتها بالاتصال بها إن احتجت إليها. من يعرف ماذا سيجري في الأيام القادمة؟

المصائب تأتي وراء بعضها مثل سحب الشتاء.

في المكالمة الأولى والأخيرة كانت هي المتكلمة على طول الخط وهذه المرة، كنت أتكلم؛ لأنني فشلت في الاستماع إلى كلمة واحدة منها. ولأنني كنت أريد اتقاء سماع المصائب التي تنزل من فمها مثل الأحجار.

كانت قد قالت لي في المكالمة الأولى، إن نصف ساعة قد مرت على الهزة الأولى، وما دام البيت بقي سليماً. فلن يكون هناك شر بعد ذلك. ثم انقطعت الحرارة وأصبح التليفون قطعة من البلاستيك التي لا تنطق، ولا تقدم ولا تؤخر.

مكالمة مبتورة. لم يصلني منها شيء. ومن المؤكد أنها لم تسمع كلمة واحدة مني. حتى كلمة مع السلامة. لم يقلها أحدنا للآخر، كنوع من النهاية التقليدية لأي مكالمة. وهي كلمة تبدو أكثر أهمية في مثل هذه الظروف. وضعت سماعة التليفون وأنا أتصور أن الحرارة لا بد أن تعود من جديد، أصبح وسيلتي الوحيدة في الاتصال بالدنيا، الذين حولي لن يفعلوا أكثر مما قاله الصبي الذي جرى. لا بد وأن هناك من يريدون الاتصال بي. ولكن التليفون لم ينطق.

أمسكت بالسماعة، ورفعتها، قربتها، من أذني، لم تعد الحرارة موجودة، سمعت وشأ غريبا، أسمع لأول مرة.

تذكرت أبنائي. زلزال والكل بعيد عني. هل لم يفكر أحد منهم في الاتصال بي؟ هل فعلت هذه الفاجرة ما لم يفعله أبناء بطني الذين أفنيت عمري في تربيتهم؟ جلست أحصي في ذهني الذين يعرفون رقم تليفوني، سواء داخل مصر أو خارجها. الذين في مصر استبعدت الذين لا توجد في تليفوناتهم خاصية النداء الآلي. والاتصال بي يتطلب الذهاب إلى السنترال. ولكني بعد أن استبعدتهم عدت أتساءل، وهل الذهاب إلى السنترال كثير علي؟!!

كنت أتصور بعد أن عرفت ما جرى. أن زحام الاتصال بي سيصبح مثل يوم الحشر. ولكنهم خيبوا ظني. لم يفكر أحد في الاتصال بي، حتى كنوع من تأدية الواجب. ومن أجل أن يقول كلاما لا معنى له.

راحت السكره وجاءت الفكرة. ماذا سأفعل؟ هل أجلس في انتظار اتصال قد لا يجي؟ صمت التليفون أصبح مثل صمت القبور التي زرتها هذا الصباح. واستبدال الحرارة بهذا الوش يعني أن عطبا ما أصاب التليفون.

وتليفونات الأرياف تركب لكي تعطل وليس من أجل أن تعمل. أي شيء وكل شيء يعطلها. فما بالكم بالزلازل الذي يحدث؟ هل أبقى في البيت. أضع يدي على خدي أم أتحرك؟ وإن تحركت فألى أين أذهب؟! هل أسافر إلى البندر من أجل الاطمئنان على أولادي؟.

كلهم هناك. لم يبق منهم واحد معي.. هل أسافر إليهم. ومن يضمن لي أن أجدهم؟ قد أسافر ويحضرون إليّ في الوقت نفسه. ولن يروني ولن أراهم في الطريق. أم أنتظر لحين حضورهم؟ وماذا سأفعل إن انتظرت ولم يحضروا؟ وإلى متى يطول بي الانتظار؟ كان الانتظار ممكناً والتليفون يعمل المحادثة نصف المشاهدة، لكن بدون تليفون لا بد من عمل شيء ما. الحركة أفضل من البقاء. والتفكير والخوف يأخذاني إلى آخر الدنيا ويعيداني إلى حيث أجلس.

منذ أن أحضرني المرحوم إلى البلد. كان نجيب يقول لي إن الناس تذهب إلى الهرم، ولكن الهرم لا يذهب إلى أحد. وأنا هرم عمرهم. كانوا هم الذين يحضرون إليّ. نجيب كان أكثرهم حضوراً. كان يجئ بهم معه. وقبل سفره

كان يأتي بمفرده، ولم أفهم أنها هي السبب الذي دفعه لأن يحضر إلى كثير.

ابنتي المسافرة إلى الخارج من طينة نجيب.. ولكن أين هما الآن؟ أي حظ؟ لم يبق على المداود غير شر البقر. الجميل يذهب.. الذي نحبه لا يبقى. ومن نحتاجه لا نجده. ولا يبقى لنا سوى الذين لا نشعر بوجودهم، أين هما في هذا الوقت العصيب؟ ربما لم يعرفا بعد أخبار الزلزال الذي وقع في مصر. مع أن الأخبار تصل بسرعة البرق، وربما أسرع.

نجيب زوجته في شقته. أما ابنتي فمعي مفتاح شقتها. لزوم أي طارئ يمكن أن يحدث للشقة. قلت لها عندما سافرت من يدري؟ ربما ساعدتني صحتي، ومكنتني من أن أطل على الشقة بين الحين والآخر؟.

لا بد من السفر. البيت الذي أعيش فيه. لم يحدث له شيء، عمر الشقي بقي.. هل سأتمكن من السفر والعودة آخر الليل؟ سفري متأخر. كان من المفروض أن أبدأ الرحلة من طلعة الشمس. ولكن الزلزال ضبط ميعاده على بعد الظهر.

مفتاح شقة ابنتي معي. لا يفارقني، عند النوم أضعه تحت المخدة، من يحصل عليه يكون قد أصبحت الشقة ملكه، وهي مغلقة على ما جمعته ابنتي خلال سنوات الغربة. لفة الأدوية لا تفارقني، لا أشعر بالأطمئنان إلا عندما تكون تحت عيني. تركني الجميع وجاءت الأمراض. ضغط، وقلب، وسكر، ومفاصل، وسمنة. أمراض تهدد الجبل، فما بالكم بابنة آدم في سنوات عمرها الأخيرة. وحيدة ومسكينة وكل فرخ ربه طار من عشها، وولف على وليف آخر في عش آخر.

اتجهت إلى دولابي. لأغير ملابسني قبل الخروج إلى الشارع. حتى هذه اللحظة، كان بداخلي أمل أن يكون ما سمعته ورأيته غير حقيقي. نكتة أم ملعوب أو مقلب؟ سأعرف ما حصل في الشارع، ثم أقرر ماذا سأفعل. أليس من الجائز أن يكون الولد الذي رزع الباب حرامي ابن حرامية؟ وأن ما فعله حيلة جديدة حتى أطلع لهوفة وأترك البيت مفتوحا. ويدخلون يأخذون ما خف حملة وغلا ثمنه. وأنه لا زلزال ولا يحزنون.

وأيضاً ما المانع أن تكون المفوضة قد ألفت الحكاية حتى تفتح كلاماً معي؟ كلام يهدم بيت ابني البكري نجيب. ولكن هل هي مصادفة. أن يدق على الباب شخص. في الوقت نفسه الذي يرن فيه التليفون ويتكلم الاثنان عن زلزال وقع.؟

فتحت دولا بي، جمعت أشياءي، سركي المعاش. رويشة الدواء الذي أشتريه كل شهر. لبست بسرعة. رجلي والقبر. لبس من أجل الستر. ودعت الزواق والتوالييت. وتسريح الشعر والوقوف أمام المرأة كلما خرجت، أمور ولأى زمانها. وذهبت ناسها.. ولم يعد حولي رجالها.

خرجت. رددت الباب ورائي. أدت فيه المفتاح، خرجت من الحارة الأولى إلى الثانية. الثالثة ثابتة، تذكرت أنني تركت التليفزيون يعمل، لم أكن متأكدة أنني أطفأته، لا يعرف إلا الله متى أعود إلى هذا البيت. إن كانت في العمر بقية. كنت قد سمعت أن التليفزيون إن ترك يعمل – عمال على بطال – قد ينفجر ويحرق البيت.

كانت العودة صعبة. أقول يا رب خطوة للأمام، فأعود إلى الورا خطوات. كان لا بد من العودة، إن اشتعلت

النيران في البيت في غيابي. لن يتمكنوا من إطفائها ولا بكل مطافي مصر؛ لأن مفتاح البيت لن يكون معهم.

عندما امتدت يدي لإطفاء التلفزيون، الذي كنت قد نسيتَه يعمل، وأنا أقول لنفسي العجلة من الشيطان. كان المذيع قد ظهر على الشاشة، لا أعرف إن كان الفيلم قد انتهى. أم أنهم قطعوه؟ كان المذيع يطلب من الناس عدم النزول إلى الشارع والبقاء في البيوت.

قلت لنفسي: إذن ما سمعته مرتين صحيحا، يبدو أن الذي خبط الباب واحد من أبناء الجيران.. وأن التي تكلمت تعرف نجيب، مهما كانت حكايتها معه فقد فعلت ما لم يقم به أبنائي.

لا بد وأن المذيع يقصد بعدم النزول من البيوت سكان مصر، فكل ما يقوله في النهار والليل موجه لهم. لم يفكروا في قرية صغيرة منسية. لا يعينهم من أمرها شيء. لا يمكن أن يكون المذيع قد تعب نفسه من أجلنا.

أغلقت الباب من جديد ونزلت. همة مفاجئة وطارئة دبَّت في أوصالي. والخطوة التي كنت أخطوها، ويخيل إليّ

أنني استغرقت فيها نصف ساعة، كنت أطويها في غمضة عين.

سأمشي حتى موقف التاكسي. كان الحال على ما هو عليه. في مثل هذا الوقت، يكون الرجال في الغيطان، والموظفون والتلاميذ الذين يسافرون إلى البندر للتعليم أو العمل أو قضاء بعض الحاجات – لا يكون موعد عودتهم قد حلَّ بعد، يهلون على البلد ابتداء من الرابعة بعد الظهر.

أول من قابلني لم أكن أعرفه. راحت الأيام التي لم يكن الإنسان يقابل فيها إنسانًا لا يعرفه. هب الغرباء على البلد، ورغم أنه لا يعرفني. إلا أنه سألني:

– بيتكو سليم يا حاجة؟.

– جت سليمة.

تكرر السؤال من الذين قابلوني، وتكرر ردي عليهم. في مشيتي، كان الحال مثل كل يوم. ما عدا بعض البيوت العالية التي بناها أصحابها بغرض تأجيرها.

كان القلق يساورهم على مصير هذه العمارات. وكان قد تجمَّع بعض الناس حولها. كانوا إما من سكانها أو من

أهل البلد الذين يبعون الاطمئنان على البيوت التي لا يملكونها ولا يسكنون فيها.

بدا لي الطريق من البيت حتى موقف التاكسي بالنفر طويلا، أطول من أي يوم آخر، ربما لأن هذا المشوار لم يكن في البال ولا في خاطر. ولم أعمل حسابه.

مشيت في دابر الناحية الذي يلف حول البلد. وهو الشارع الرئيسي فيها. كانت كبشة من الناس تقف أمام دكان البقال وكبشة أخرى على المقهى الصغير. الذي كان آخر محل استحدث في البلد. ومجموعة ثالثة عند الجزار. وقد وصلت إلى أذني طرايطش كلام مما كانوا يقولونه. وبسبب بطني في السير، كان الكلام يؤنس وحشتي، قبل الوصول إلى الواقفين، ويستمر معي بعد أن أعدي عليهم.

كان الموضوع الرئيسي في كلامهم هو الزلزلة. كان هناك من يقول إنه رآها وأحس بها.. وعرفها قبل الآخرين، سمعت من يقول إن السمك في التربة كان أول من شعر بها، وإنه شاهده بنفسه يتقلب في الماء كما لو كان يتنطط في صينية زيت يقلى فيها. فقال لا بد وأن هناك أمر غير طبيعي يحدث.

والآخر أكد أن جاموسته زقرت في وقفته، وكادت أن تقلع الوتد من الأرض. وتجري في البراح. وثالث أقسم إنه شاهد القبور. ذلك أن حقله مجاور للمدافن. كانت القبور تتحرك – لأول مرة – لدرجة أنه شك أن الموتى الذين يرقدون فيه قاموا من موتهم.

ومثلما حدث في البلد – دائما وأبدا – كاد الأمر أن يصل لمعركة. لا يعرف أحد متى تنتهي. حول من شاف الزلزال أولاً. ومن أبلغ عنه قبل الآخر وبيوت البلد قديمة ومعظمها مبني من الطوب الني والطين والتبن. إلا أن البيوت التي شكا أصحابها أنها تأثرت كانت أقل من القليلة.

كانت هناك نوادر وحكايات، عن الحمار الذي أوقع غبيط السباح، وهات يا جري في الغيطان. والساقية التي توقفت عن الدوران رغم الثورين اللذين يدوران على المدار، والبلح الرطب الذي أصبح يغطي الأرض تحت نخل العمدة.

فلاح أقسم إن جاموسته ولدت ساعة الزلزال، ونزل العجل من بطنها يصيح: زلزال.. وآخر قال إن ورقة نبتت في شجرة التوت، على رأس حقله لحظة الزلزال، مكتوب عليها زلزلة.

في هذا الوقت تكون التاكسيات شحيحة في موقف  
البلد، وتتجمع في موقف مصر؛ لأنه وقت العودة إلى البلد  
على عكس الصباح.. فالزحام يكون في موقف البلد، وتشح  
العربيات في البندر. كان عليّ أن أنتظر أكثر من الوقت  
العادي، وكل من يشاهدني نازلة البندر كان يندهش. وبعد أن  
تشرخ التساؤلات ملامح وجهه، يقول: خير يا حاجة، فأقول  
إن الأمر خير فيعود ويتساءل عن جماعة مصر، هل جرى  
لهم شيء؟ فأقول إنني لا أعرف.

ويعاد السؤال نفسه والجواب عن التليفونات، بيتي  
من البيوت القليلة التي يوجد فيها تليفون. فأشرح حال  
التليفونات وما جرى لها، البعض يعرض عليّ الحضور معي  
إلى مصر، وعدم تركي أسافر بمفردي، يوصلني إلى أول  
أبنائي، ويعود، والبعض الآخر يتمنى ألا يكون قد حدث  
مكروه لهم. الذين في الموقف، قالوا إن هناك عمارات وقعت  
في مصر وأناسا لقوا ربهم.

بالقرب من موقف التاكسي غرزة صغيرة، هُضّي من  
البوص، أمامه مصطبة مبنية من الطوب. جلست عليها، ولم

أطلب أي مشاريع من صاحب الغرزة؛ لأنه لم يكن لي نفس.

كنت أريد الوصول إلى مصر بأسرع ما يمكن..  
ذاهبة لكي أطمئن على الذين كان من المفروض عليهم ألا يكون لهم هم سوى الاطمئنان علي، بمجرد أن يقال إن البلد فيها زلزال.

أخيرا حضرت سيارة ميكروباص، كان محملة على الآخر، والحاضرون لم يكن لهم كلام سوى عن الزلزال الذي في مصر. وكان هذه القرية ليست من مصر، قال شاب متعلم، إن آخر ما سمعه في موقف أحمد حلمي، كان جرس سيارة الإسعاف، وسرينة سيارة المطافي، ترمح في شوارع مصر.

ربما كنت الوحيدة المسافرة إلى مصر. حاول السائق أن يساومني. طلب مني دفع أجرة الكراسي الخالية في السيارة ويتحرك بي. لأنه يعرف أنني مستعجلة ولا يريد أن يعطلني.

- مخصوص يعني؟! -

هرش في عرق الهيافة في قفاه:

– مش كده بالضبط.

سألته، هل يطلب مني أجرة الكراسي الخالية؟ أم الأماكن التي يوقف فيها ركابا زيادة عن العدد المسموح له به؟ وإن كان عنده كرسي براكب واحد. ويستخدمه لأكثر من راكب. هل أدفع أجرة راكب أو اثنين؟ لخبطه كلامي. وقال إنه من الصعب عليه التحرك براكب واحد.

تصنعت عدم الاهتمام. سأجلس معه، وإن كان لا يريد الذهاب لمصر سأنزل وأعود إلى البيت. كل تأخيرة وفيها خيرة. قال لي إنه مسافر مسافر. كل ما فعلته أن تركت المصطبة القاسية والناشفة، والتي تعبت مقعدي وجعلت رجلي تنملان. على الأقل الثلاثة التي على كرسي العربية الميكروباص أكثر ليونة من المصطبة.

كان المنادي ينادي " مصر.. راكب واحد ". وكان يتحرك بعيدا عن الموقف. ويوشك أن يدخل الحارات ويمر على البيوت ويخرج الركاب من غرف نومهم. حتى تتحرك السيارة. كان الاستعجال واضحا في تصرفات السائق. كان

يتحدث عن الدور في مصر. والنقلة القادمة. فالكل يسافر من مصر إلى خارجها. ومع قدوم الليل لن يبقى هناك جنس سريخ ابن يومين. ولذلك فالوقت الباقي من النهار فرصة ذهبية لن تعوض، قلت لنفسى: لأجلس هكذا. ومن يتعب حماره نسلخ وجهه. ستدفعه أول سيارة تصل من مصر إلى الجري. حتى يحصل على دور قبلها. كتر النواح يعلم البكا. حفظت ألعيبهم من كثرة الحكايات التي تقال عنهم في البلد. ومن سفرياتى القليلة.

صدقت توقعاتي، ما إن شاهد عاصفة من الغبار تقترب من البلد عن طريق الزراعية. وأيقن أن سيارة في الطريق إلى البلد. حتى قفز السائق في غمضة عين إلى مكانه، والولد الذي يحصل الأجرة من الركاب جلس في الصالون واضعا ساقا على ساق. والسيارة تجري بأقصى سرعة؛ حتى يكسب الدور قبل الآخرين. حسب العرف والأصول. كان المرحوم يقول لي: إن البني آدم لو جري جري الوحوش لن يحوش أكثر من رزقه. وأنا أنفذ كلامه، ليس عن اقتناع، ولكن لانعدام القدرة على الجري. في مدخل البلد. وطوال الوصلة التي تصل البلد بالزراعية. كل من

يراني من الناس. لا بد وأن يتصور أنني أخذت السيارة  
مخصوص. ودفعت فيها الشيء الفلاني. وذلك بسبب ظروف  
هذا اليوم. سيروح باله إلى الزلزال وأولادي المتغربين.  
سواء في البندر القريب. أو البلاد البعيدة، ولا يعرفون أنني  
أركب على كرسي. وأمد قدمي على مقعد ثانٍ، وأضع  
أشياءي على مقعد ثالث. وكل هذا بأجرة نفر واحد.

والسبب ظروف هذا اليوم الصعبة.

.. وكان يومها قد بدأ بداية غريبة. هالها الاكتشاف الذي جاءها مع لحظات الصباح الأولى. كيف نسي الأولاد أو تناسوا هذا اليوم؟ كيف طأعتهم قلوبهم؟ كيف محيت أهم مناسبة من ذاكرة كل منهم؟ ولم أجمعوا على النسيان الذي كانت تتصوره مستحيلاً؟ ربما كان هذا هو الأمر الوحيد الذي اتفقوا عليه. مع أنهم اختلفوا حول كل الأشياء الأخرى.

في مثل هذا التاريخ – لا اليوم – رحل زوجها وتركها مع سبعة من الأبناء. أربعة من الصبيان – هم الآن ملو هدومهم – وثلاث من البنات – هن الآن زوجات بيوت يفخر بهن أي إنسان – طبعاً لن تتوقف أمام ابنة وحيدة مازالت وحيدة. لم تدخل بيت العدل. لم تتزوج. وأصبح زواجها عقدة من الحرير.

كلما اقتربت ذكرى رحيل زوجها. تاركاً لها كوما من اللحم. لا تعرف ماذا ستفعل؟ كانت تفكر كيف تحتفل بها؟ لم يكن لديها ثقة أن الأولاد سيحضرون. ففي السنوات

الأخيرة. بدأت ذكرى المرحوم تذبل في نفوسهم. مثل الورود التي تذبل بمرور الوقت.

لا تحب أن تتذكر هذه الحكاية مع طلعة الصباح؛ حتى لا يتعكر لون النهار. ويصبح في لون التراب. مع كل سنة كان هناك ابناً أو بنتاً ينسى ذكرى والده. الذي أفنى عمره. ومات قبل مواعده، من تعبته في تربيتهم. صحيح أن الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى، ولكنها تعتقد أن الناس المستريحة تعمر أطول من الذين يطاردهم التعب والضنى طوال عمرهم.

كل سنة كانت تخطف واحدا من الأبناء. لا تحب أن تحدد من الذي انسل بعيدا. كان يرضيها أن الآخرين مازالوا يتذكرون والدهم. هذا العام نسي الكل. لم يتذكر أحد. صدق الذي قال إن الحزن يبدأ مثل جبل يصل السماء بالأرض. ومع مرور الأيام وكر الليالي. يصبح أصغر من جزء من هذا الجبل. لن يحضر أحد لها. سمعت بالأمس من يقول إن كلمة الإنسان جاءت من النسيان، وإنه لولا رحمة النسيان بالبشر لا نفجروا أو ماتوا.

مثلما فعلت في السنوات السابقة. ستذهب إلى المقابر قبلي البلد صباحا. ومعها الرحمة التي صنعتها بيديها. وستكون الكمية أكبر من كل سنة. من السنوات التسع التي مرت.

فيا عالم من سيكون من أبناء الدنيا. عندما تكتمل السنوات العشر التالية. بالتحديد. من سيبقى على ظهر الأرض؟ ومن سيدفن في بطنها؟ السنوات العشرة الأولى غيرت كل ما تركه. فما بالك بالسنوات العشر الثانية؟ لا بد وأن تغييراتها ستكون أعمق وأقوى وأبعد تأثيرا.

الثاني عشر من أكتوبر ٢٩٩١. مرت عشر سنوات على رحيل زوجها. كانت تحسب الأيام التي تفصلها عن هذا اليوم. وكانت في حالة الانتظار تتساءل: ماذا سيفعل أبناؤها الخمسة الذين يعيشون في مصر أم الدنيا؟ في السنوات السابقة كان البعض ينسى. ومن ينسون كانوا يسألونها عن تاريخ ميلاده. ويتساءلون: لماذا الاحتفال بتاريخ الوفاة؟ لم لا يكون الاحتفال بعيد ميلاده؟ إنه احتفال بالحياة. فلم الاحتفال بالموت؟ وكانت تبدو الفكرة وجيهة إلى حد ما. وإن كانت

تدرك أن الهدف من طرحها هو التغطية على نسيان مناسبة رحيله.

في المقابر ستكري من يقرأ على روجه آيات من القرآن الكريم. وستدفع له أكثر من أي سنة مضت. فالذكرى غير الذكرى. والمناسبة مختلفة عن أية مناسبة أخرى مضت.

وهي تتخيل تفاصيل ذلك اليوم. نشأت في ذهنها فكرة الاتصال بهم. وتذكيرهم؛ حتى تحميهم من النسيان والانشغال، ولكنها ترددت. لو فعلت هذا لن تشعر أن هناك من جاء من تلقاء نفسه. لولا تليفونها ما جاء أحد منهم. الأحلى أن يحضروا بدون اتصال أو تذكير. وإن كانت قد لاحظت أن أحدا لم يتصل بها قبل أن يحل اليوم؛ ليكلمها عن الترتيبات.

في الصباح، أخذت كل ما تستلزمه رحلتها. وارتدت ملابسها السوداء. ثياب الحداد التي لم تخلعها، أصبحت جزءا من شخصيتها يعرفها الناس على البعد بها.

كانت قد فكرت. قبل أن يأتي هذا اليوم. أن تنصب شادرا أمام البيت. أو أن تفتح المضيئة. وتؤجر أكثر من مقررئ. يتبادلون تلاوة القرآن. والولد الذي يقدم القهوة للمعزين. وتنصب ليلة عزاء، ولكنها واجهت أكثر من مشكلة. فالناس لم تألف هذا التصرف من قبل. ثم من سيقف في استقبال المعزين الذين سيحضرون؟ ستكون هي في استقبال النساء اللاتي سيحضرن من أجل العزاء. أما في الصوان، أو المضيئة، لا بد من رجل يقف. وأين أولاده الرجال؟! فكرت أن تطلب من بعض أقربائها من الرجال أن يقفوا بدلاً من أبنائها. إن لم يحضروا. ولكنها تراجعت عن الفكرة. هالها أن تتصور إقامة الماتم في غياب أبنائها.

قد يغضب الأبناء منها. تساءلت: وهل يدركون أن لهم أبا مدفونا في مقابر البلد؟ وأنهم خلفوا وراءهم أمسا وحيدة؟ بكل ما تعنيه كلمة الوحدة. لدرجة أنها تضبط نفسها في بعض الليالي الطويلة تكلم نفسها. من شدة إحساسها بالوحدة ما أفرعها. إنها إن فعلت هذا ستكون كأنما قد دفنتهم بيدها، وأصبحت بدون ولد أو بنت. كانت تقول

لنفسها، مسيرهم يعودون لها. مهما شتوا وطاروا وابتعدوا.  
فلا بد لهم من العودة إلى أحضانها في النهاية.

في الصباح الباكر، خرجت من بيتها. بدت وبادرت  
؛حتى تتجنب أسئلة الناس الذين سيصادفونها في الطريق. قد  
يسألها أحدهم عن وجهتها. وعندما يعرف أنها ذاهبة إلى  
المقابر وحيدة سيسألها عن أبنائها. الذين ذاع صيت بعضهم  
واستقروا في المدينة الكبيرة.

في يدها اليمنى لفة في كيس بلاستيك. يقول شكلها  
إنها أشياء ملفوفة في ورقة جريدة قديمة. لونها أصفر. ربما  
كانت من آخر الجرائد التي قرأها المرحوم قبل أن يودع  
الدنيا. من يوم رحيله لم تدخل البيت ورقة واحدة. وكانت  
تتعامل مع هذه الجرائد. مثلما يفعل البخيل مع آخر ماله في  
الدنيا.

كانت تحتاج بعض ورق الجرائد، من أجل أن تفرشه  
في النملية، أو تضعه على الحائط أو على أرضية دولابها،  
عندما يحضر أولادها، ستطلب منهم أن يحضروا لها بعض  
الجرائد المستعملة. ولكن عدم حضورهم أصبح مؤكدا.

كانت قد خرجت من بيتها، وطل الليل ما يزال على الأرض. ويبدو لعينيها شديد الوضوح على شواشي الأشجار القليلة المزروعة في دابر الناحية. الذي مرت به في هدوء هذا الوقت المسروق من الليل الذي بدأ يستعد للرحيل. والنهار الذي لم يعلن عن وجوده بعد. كلاب الليل الضالة. التي تقول عنها كلاب السكك، كانت ما تزال نائمة. وإن كان البعض منها قد بدأ يستعد للاستيقاظ. والقطط تموء وتمسح بالأركان. وتحاول أن تنفض ظل الليل وندى ساعة الفجرية عن نفسها.

الخفراء الذين لم يذهبوا إلى السلاحليك لتسليم بنادقهم الصدئة مازالوا نياما. فوق مصاطب أمام أبواب الأعيان، وهي نفسها المصاطب التي يستخدمونها وقت الأصيل من أجل الجلوس عليها واستقبال الضيوف من أبناء البلد؛ للثرثرة وتفويت الوقت حتى مجيء الليل.

التراب على الأرض كان مبللاً بالندى، وقد علق بحذاءيها القديمين مشكلاً طينة أحاطت بالحذاءين من كل جانب. في هذا الوقت الصباحي الهادئ. والذي يخلو من الناس. شاهدت البيوت والدكاكين. في دابر الناحية كما لم

تشاهدها من قبل. الكتابات على الجدران. التي مضت عليها أيام طويلة. تبدو مثل بقع توسخ البياض القديم والرسومات التي اقتطعت أجزاء منها. لم تبق منها سوى تصاوير لا يفهم الغريب أي شيء منها.

وإن كان ابن البلد القراري عندما يشاهد أي جزء منها. يمكنه أن يقول في أي مناسبة كانت. فهذه دعاية انتخابية في الانتخابات الفلانية. وتلك من آخر استفتاء على تجديد الولاية للرئيس، وتلك من أجل الاحتفال بالحج إلى بيت الله الحرام؛ لأن مثل هذه الرسومات التي كانت يتم رسمها في الزواج والميلاد والظهور. وصدور حكم من محكمة البندر لصالح هذه العائلة أو تلك. لأن تلك الرسومات لم تعد تجد من يرسمها. فأحدثت الرسومات تعود إلى ما قبل رحيل الغالي عن الدنيا.

تذكرت في سيرها الصباحي الجملة التي سمعته من الراديو لأول مرة. وكأنها قد قيلت من أجلها هي. كانت العبارة تقول: " قلبي على ابني انظر. وقلب ابني عليّ حجر " وكانت تقول لنفسها إن أبناءها عندما يتزوجون ويخلفون، سيدركون الوضع الذي تعيش فيه. أبناءهم الذين سيجعلونهم

يدركون مشاعر الأبوة. وهي أحاسيس لا يمكن أن يتعلمها الإنسان في أي مدرسة. يمكنه أن يعيشها ويتذوقها. ومن تدخل حياته هذه المشاعر، لا يمكن أن تخرج منها.

الذين قابلتهم في رحلتها قليلون. وعندما كانت تقترب من أحد. كانت تحاول أن تتشاغل عنه؛ حتى لا تأتي عيناها في عينيه. ويرمي عليها الصباح. ويدس نفسه في أمورها. ويعرف ما لا يجب أن يعرفه. هي لن تقول. ولكنها لا تضمن قدرتها على الإخفاء. إن أخذت وأعطت في الكلام. ربما تفقد سيطرتها على صواميل لسانها. وتقول ما لا تحب أن تقوله.

خرجت من دابر الناحية إلى سكة التراب. هكذا يسمون الطريق الذي يوصل إلى الآخرة. حيث السكون الأبدي. أخذت في وجهها وسارت. الحقول على يمينها والحدائق على شمالها. وطريق التراب بدا لها في هذا الصباح ضيقاً. لدرجة أنها تساءلت: كيف يتسع لمئات المشيعين الذين يمشون فيه وراء الموتى حتى مقرهم الأخير؟

وفي كل سنة من السنوات التي مضت. عندما كانت تصل إلى المقابر. كان يفاجئها ما هو جديد. ما لم تره في السنة الماضية. كانت تستعجب، التغييرات في البلد مهولة

ومفهومة؛ لأن الذين يسكونها أحياء. أما هنا فمن الذي يغير؟ لا بد وأنهم أهل الموتى يحسدونهم على الراحة بعد تعب الدنيا. وهددة حيل الحياة. ويحاولون حرمانهم منها.

نلمح الصراع نفسه. أصحاب المقابر يحاولون الامتداد في الأراضي الزراعية التي تحيط بها من كل جانب. ولكن الحكومة تدخلت في الأمر ومنعتهم. كانوا يتكلمون عن مذبحة الأراضي الزراعية والخطر الذي يهدد البلاد. وضرورة الحصول على تراخيص من الحكومة نفسها. قبل إقامة أي مقبرة جديدة.

وعندما أغلقت الأبواب أمام التحايل ومحاولات الالتفاف على قرارات العمدة والمهندس الزراعي. انتقل الصراع إلى داخل التراب نفسها. وهكذا ظهرت مقابر جديدة، ولكن في المسافات بين مقبرة وأخرى. وفي الطرق والحارات. لدرجة أن التنقل من مقبرة إلى مقبرة أصبح صعباً

والتعرف على مقابر أي عائلة من العائلات أصبح مسألة مضمّنة. لدرجة أنها قالت في آخر مرة جاءت فيها إلى التراب - في مثل هذا اليوم من العام الماضي - إنه لا بد من تسمية الشوارع، وإطلاق أسماء الموتى على الحارات،

وإعطاء التُّراب أرقاماً؛ حتى يكون من السهل الوصول إليها والتعرف عليها بدون تعب.

كانت في انتظارها مفاجأة، عندما اقتربت من المقابر. اكتشفت سورا من الحديد. لا تعرف متى بني ولا من بناه. يفصل الأراضي الزراعية عن المقابر. كانت تدخل إلى التُّراب من أي ناحية من النواحي. السور منعها. أدركت أنه ما دام هناك سور. لا بد من وجود باب تدخل منه.

لفت ودارت حتى وقفت أمام الباب الذي كان مغلقاً بجنزير وقفل كبيرين. وحول الباب كانت كلاب الليل مازالت تتمسح بالباب والسور. وتتبول بالقرب منهما. شمس الصباح أصبحت مؤكدة. رفعت صوتها تنادي على خفير التُّراب الذي يبني في بيت في آخر التُّراب من الداخل.

ربما كانت هناك حكمة ما من وراء بناء هذا السور، ربما يأتي لصوص الليل وحرامية الظلام. بعد أن أصبحت بيوت الناس تخلو من كل ما يستحق مجازفة السرقة وجسارة أولاد المنسر وقطاع الطريق. فالبيوت لا يوجد داخلها سوى أناس يكملون عشاءهم نوماً. أما سرايات الأعيان وقصور

الأغنياء فهي محروسة بالخبراء الخصوصيين ،والكلاب المتوحشة والبنادق ، والمدافع ، ولا يمكن الاقتراب منها .

ما إن رفعت صوتها تنادي على الخفير . حتى أكملت الكلاب بنباحها الجنوني ما كانت تريد القيام به . خرج الخفير . كان يفرك النوم في عينيه اللتين بدتا مثل كاسات الدم . وهو يقول .

– الكلاب ماسكة . فيه وار د جديد .

شاهدها . اكتشف وجودها . قبل أن يرد عليها

الصباح :

– تعيشي وتفكري يا حاجة .

عاد وأحضر المفتاح . واتجه إلى الباب في صمت لكي يفتح لها . وهي من جانبها كانت قد جلست قبالة الباب ؛ لأنها شعرت بتعب المشوار مرة واحدة . أعطته نصيبه مقدما . حتى يهتم بها ويرش لها الماء حول قبر الغالي ، ويسقي الزرع الذي لا يسقيه إلا في حضورها . ويبقى بدون ماء بعد ذلك .

تتذكر أنها زرعت الكثير من الزراعات. أشجار ونباتات، بل وبعض الورد البلدي، مات كل ما زرعه ولم يستمر سوى الصبار والتين الشوكي. وشجرة لوف لم تجد ما تتسلق عليه فماتت. لو كان أبناؤها في البلد. ولم يمسكوا في حكاية العلام ووظائف البنادر لتناوبوا الحضور إلى القبر. كل واحد منهم يأتي مرة. لري الأشجار التي زرعتها حول الضريح.

ما إن استقر بهما – زوجها وهي – المقام في البلد بعد سنوات الرحل والترحال. حتى لم يصبح لرجلها هم سوى بناء هذه المقبرة؛ حتى لا يدفن في مقابر العائلة القديمة. فيوضع العظم فوق العظم. ويطارد هم التعب دنيا وأخرة. كان يقول دائما. إن من يريد أن يبني لا بد وأن يكون بناؤه في الدار الباقية. أما هنا فكله فان. لن يبقى منه أي شيء، من استطاع أن يأخذ معه إلى الآخرة ولو حتى منديل يجفف به دموعه على غدر الأحياء، يكون أحسن حالا من غيره، لقد جعل الله جلت حكمته. الكفن بلا جيوب.

كانت تعرف أن المقرئ لم يحضر بعد. فهي أول من يصل، سألت الخفير عنه، قال لها إنه على وصول.

استراحت لأول مرة عندما جلست على المصطبة المقابلة  
لقبر المرحوم: القبر الذي يرقد فيه زوجها. أو ما بقي منه.  
بحثت بعينها عن بقايا الكتابة التي كانت زاهية وواضحة.  
اكتشفت أنها بهتت مع مرور الأيام.

لم يكن النهار يوم خميس. ولذلك كان الحضور خفيًا  
في المقابر. لا يصبح الزحام مؤكدا سوى يوم الخميس.  
يومها ينتقل المقرئ من قبر إلى آخر بسرعة. حتى يلم الغلة.  
يردد آيات قليلة من القرآن الكريم بسرعة ويجري.

كانت وحيدة وسط القبور. تشعر بالزحام الذي لا  
يراه أحد. ربما كان زوجها يتساءل عن الأولاد الذين لم  
يعودوا أولادا. حمدت الله أنها لم تسمعه. ولذلك لن تبحث  
عن أكاذيب. تبرر بها غيابهم. أحست لأول مرة بالخجل من  
مجيئها لوحدها. تساءلت: إن انتقلت إلى جواره. فهذا معناه  
أنه لن يأتي أحد لهما.

نظرت إلى ما معها. فهم خفير التراب نظرتها،  
طمأنها. قال لها إن أهل الله كثيرون. بعضهم نيام والآخرين  
في الطريق إليه. لن تعود بشيء معها. ربما لن يكفي الذين  
سيهلون على المكان. إن كانت هناك مشكلة. فهي أنها

حضرت مبكرة أكثر من اللازم. وهذا ليس بغريب على ما كانت مثلها.

اكتشفت أن هناك ما يمكن عمله. ستروي الصبار الموضوع فوق القبر. والتوتة التي بني القبر تحتها. حتى لو كان الخفير يرويها، فإن الماء من يديها له طعم آخر.

في طريق العودة، راحت تفكر في حالها. رأت حياتها بعين جديدة، عندما كان يزورها الأولاد. تلك الزيارات التي تباعدت. كانت الجدران تتلون بأصواتهم. وبقدر سعادتي بلحظة وصولهم والفرح والحبور الذي يسببه وجودهم. ويؤلم القلب. فإنني أحمل هم كمنس الأثر الذي يتركونه في كل مكان من البيت. ويبقى بعد رحيلهم.

سمعت في إحدى المرات من يقول للآخر. إنني أبدو مثل خيال المائة الذي يقف وحيدا في الغيطان. سألت نفسي: كيف عرف الولد حكاية خيال المائة. الأولاد أولاد بنادر. ولدوا وتربوا وكبروا فيها. ومجيئهم إليّ حالات طارئة.

بعد رحيل المرحوم، أصبحت أفنقد صحبة الآخرين، الناس في حالهم. وأقسى ما كنت أخافه هو الليل. خصوصا

ليل الشتاء الطويل الذي يبدو بلا نهاية، كنت أغلق الأبواب والنوافذ مبكرا قبل أن يهبط الظلام في الحواري ويبدأ في النظر داخل البيوت بعيونه السوداء وعندما يستبد الصمت، يبدأ الصفير في أذني. ويرتفع كلما أوغلت في الليل. نصحني الجيران أن أقتني كلبا أو قطة. نفس يتردد وصوت أسمعته. فضلا عن أن الحيوان الذي هو أكثر وفاء □ من الإنسان. قد يوفر لي حماية ربما كنت في أمس الحاجة إليها.

رفضت. قلت إن الكلب نجاسة، والقطة روح على شكل حيوان أليف. هذه الحجج أحاول أن أخفي بها السبب الحقيقي الذي يمنعني من اقتناء كلب أو قطة. وهو هم المصاريف التي يمكن أن تضاف إلى أعبائي المالية. فضلا عن أنهما – سواء الكلب أو القطة – لا يدران لبنا ولا يشيلان لحما. فأي فائدة ستعود علي؟ الأعمار بيد الله، ولن يحول بيني وبين قدرتي كلب أو قطة.

فكرت في استحضار طفلة من أي أسرة، تعيش معي، وبدأت في استعراض العائلات التي ضاقت بأبنائها. ترددت. ستحضر إلي □ الطفلة بمشاكلها معها. ثم من الذي

سيعطيني طفلة دون أن يأخذ مني أجرا علاوة على طعامها  
وشرابها وملابسها؟

لا أعرف ما الذي يقلقني بالتحديد؟ ما الذي يسبب لي  
حالات حزن شفيف يدمر راحتي؟ هل هو المرض؟! وأي  
جديد في هذا. احتمال الموت؟! من يخاف الموت كافر. فتلك  
سنة الحياة. ضيق ذات اليد؟! إن قلت أنا هذا فماذا يفعل الذين  
يربون في بيوتهم أكوام اللحم والأفواه التي لا يستطيعون  
عدها بسهولة؟

لا. هناك ما هو أبعد من هذا كله. كانت جائعة  
لصوت إنساني يهدد قلبها وتشبع منه روحها. عجوز  
بمفردها لا تجد حتى من يرعاها. هكذا سيكون حالها من  
لحظة العودة من زيارة قبر المرحوم وحتى يزورها ملاك  
الموت. عزرائيل الذي يقبض الأرواح. لن يكون حولها سوى  
ذلك العالم البائس والذي لا يثير سوى الشفقة.

والموت لن يأتي سوى في ساعات الليل الأخيرة. ولن  
يكون هناك في الصباح من يطرق عليها الباب حتى  
يكتشف أن الجسد قد أصبح باردا وأن العينين مفتوحتان.  
تحديقان في نقطة وحيدة في السقف طول الوقت. لن يكتشف

أحد ذلك إلا بعد أن تنبعث من باب الشقة وشقوق الجدران رائحة عفونة. وحتى مع الوهن الذي تشعر به، تشك أنها ستكون قادرة على إخراج مثل هذه الرائحة العفنة؛ ذلك أنها لا تملك الجهد الذي يولدها.

عند البيت الذي وصلته وهي متعبة من التعب نفسه. اطمأنت على شجرة المشمش التي زرعتها زوجها ورعاها. ومات دون أن يرى ثمرها. كان يتمنى لو امتد به العمر حتى تطرح الشجرة ولو حبة مشمش وحيدة. يقسمها معها. وينقي المياه في الزير بنوى هذه المشمشة اليتيمة. حتى يشربا ماء الحياة الذي هو أعذب من كل المياه التي تنزل من حنفيات هذه الأيام.

كان يقول لها. عندما يأكل الإنسان من غرس يديه. فإن طعم ما يأكله يختلف. تكون له حلاوة لا توفرها كل زراعات الآخرين. وكان يحلم باليوم الذي يزرع فيه حول البيت كل ما يحتاجه، كان يقولها اكتفاء ذاتي، وكان حلمه في ساعات العصاري. يشمل تلقية الشاي، ومعلقة السكر، ونقطة الزيت ورغيف العيش، وحلة الأرز. يروي زرعه

بماء نظيف. ويرعاه بنفسه. إن الحياة تصبح جنة على الأرض في هذه الحالة.

بعد وفاته رعت شجرة المشمش. كان يقول لها إنه اختار المشمشة حتى تحميها من طلبات الآخرين. إن طلب منهما أحد أي شيء يقولون له: في المشمش. يعلقون الطلب على طرح الشجرة. الذي لا يستمر سوى أيام معدودة كل سنة. مستحيل مستمر وإمكانية عابرة.

انتظرت أن تطرح المشمشة. شعرت أنه سيستريح في قبره البعيد إن طرحت. ولكن الشجرة كبرت وعرشت وزرعت الظل على باب الدار دون أن تطرح.

سألت أحد الفلاحين الجيران عن حكاية هذه الشجرة

العاقر.

– إنها شجرة مشمش كاذب.

– ذكر يعني؟

– ولا هذا.

.. تحركت بي السيارة. المسافة قصيرة من البلد وحتى البندر. مصر أم الدنيا. التي أقول عنها البندر لقربها من البلد. ألاحظ في المرات التي سافرت فيها مع المرحوم. إن كان السائق يدخن. فإنه لا ينتهي من السجارة في المسافة من البلد إلى مصر. يصل إلى موقف أحمد حلمي ويتوقف وتكون بين أصابعه بقايا السجارة.

وإن كان السائق صاحب مزاج ولا بد من كوب شاي مع السجارة. فإنه يصل بنا إلى نهاية المشوار والدخان مازال يتصاعد من سيجارته فضلاً عن أن نصف كوب الشاي يكون كما هو. يشربه في الموقف على مهله، بعد أن يحصل الأجرة منا. أما عن شرائط الكاسيت. وكل السيارات لا بد من وجود كاسيت فيها. من النادر أن يغير الشريط خلال الطريق.

تحركت السيارة. فلمت نفسي. كدت أن أقطع وجهي من اللطم عليه. كيف هان عليّ الحبيب الغالي؟ كيف لم أفكر

– مجرد تفكير – في الذهاب إليه والاطمئنان عليه؟  
من أدراني ماذا فعل به الزلزال؟ صحيح أنني بدأت يومي  
بالذهاب إليه. ولكن ذلك كان قبل الزلزال. ألم أسمع من  
يقولون إن الزلزال فتح القبور؟ وإن عظام الموتى تحركت  
من مكانها؟ بدلا من سؤاله ماذا فعل به الزلزال. جريت  
ملهوفة على المفاعيص الذين اختاروا البعد عني. من قال إن  
الزلزلة تهدد الأحياء فقط؟! أليست هذه القبور فوق وجه  
الأرض؟ ومهما مرت السنوات على وفاة الإنسان وتحول إلى  
تراب. فإن عظامه تبقى في قبره. وروحه تظل حولنا تحاجي  
علينا وتحمينا من الأرواح التي يمكن أن تضرنا.

كان علي □ الذهاب له أولاً. فكرت في أن أطلب من  
السائق التوقف. كان قد ابتعد عن البلد. قلت لنفسي: ملحوقه.  
ما إن أعود إلى البلد. حتى يكون أول مكان أذهب هو قبره،  
حتى قبل أن أضع قدمي في البيت. سأمسح قبره بدموعي.  
وهو رجل قلبه كبير. وصدرة واسع. ونفسه طيبة. ثم إن  
الذهاب إلى أبنائه سيرضيه كثيرا.

ضبطت نفسي وأنا أفكر. إن الحي ربما كان أبقى من  
الميت، مع أن هذا الميت. هو والد وجد كل الأحياء. وكان

يحب أن يكونوا معي في زيارته بدلاً من تركه من أجل سواد أعينهم

شعرت بالضيق. لم أهدأ إلا عندما تذكرت موضوع ابني وروح عيني. والتليفون الغريب الذي جاء من البنت المقصعة. والتي لا بد وأن لها عينا جريئة تندب فيها رصاصة. قد يكون هذا الموضوع هو الذي دهولني، وجعلني لا أعرف ماذا أفعل بالضبط. وهو الذي نساني الاطمئنان على حبيب العمر.

كانت البلد التي أعيش فيها هي بلد المرحوم. وكان يقول دائما إنها لا بد وأن تصبح واحدة من أحياء مصر ذات يوم. كان يمتلك بضعة قراريط فيها. وظل ينتظر الثروة الخرافية التي ستهبط عليه عندما يزحف العمران، ويحتوي البلد بداخله، ويقسمها مباني. ويبيعها بالمتري. كان يتابع ارتفاع أسعار الأراضي في كردون المدينة " لا أفهم معنى كلمة كردون هذه. وإن كنت قد حفظتها من كثرة ترديده لها".

كانت القراريط القليلة هي حلم الثروة التي ستنزل علينا من سماء الله العالية. فتغير كل ما في حياتنا مرة

واحدة، ننام ونحن أفقر الفقراء. ونصحو في الصباح لنجد أننا أغنى الأغنياء. على طريقة أفلام إسماعيل يسين وعبد السلام النابلسي. ولكن الزحف العمراني لم يصل إلى البلد. كان يقول إنه سيبدأ التقسيم والإعلان في الصحف. عندما يشاهد في البلد أول عمارة عالية. على مدد الشوف.

بدأ البعض يبني بيوتاً من كم دور. حدث سباق في عد الأدوار، وكان الدور الرابع هو السقف. ولكنه قال لي هذه بيوت فلاحين، العمارات شيء آخر مثل التي كانت في مصر أم الدنيا. وبنائها لن يحدث إلا بعد تنفيذ مشروع القاهرة الكبرى. الذي سيضم المحافظات التي حول العاصمة. نحن نقطة في بحر. وعندما يصل طوفان الضم سيكون بالطبل البلدي. لن تعود البلد كما عرفناها، ستكون هناك بلد أخرى، وإن كان زوجي قد مضى من عالمنا دون أن تطالعه أول عمارة عالية. وهكذا ترك لنا الأرض والأحلام وذهب.

كان زوجي رجلاً بسيطاً. وأنا من عائلة يقال عنها من أولاد البلد. وعندما جاء يطلب يدي. ويكتب كتابه عليّ. ويدخل بي. وكانت كل هذه الأحداث الكبرى قد جرت في

شهر إجازة حصل عليه من عمله. كان يعمل محضرا في المحاكم، ويوم أن وصله خطاب الإحالة إلى المعاش كان قد أصبح رئيس قلم المحضرين في محكمة مصر أم الدنيا ذات نفسها.

وصورته الوحيدة التي مازالت أحتفظ بها في بيتي له. أكبر ما فيها شاربه الكثيف، وبدلته الكاملة المخططة بخطوط عريضة. وربطة عنقه الملفوفة من كثرة الاستعمال. وقميصه الذي كان مخططًا وياقته المثناه. لا أعرف لماذا لم تكن مكوية حتى من أجل الصورة؟ وعلى رأسه طربوش. لم يبدل لونه الأحمر؛ لأن الصورة كانت بالأبيض والأسود. واختلف الأولاد حول تلوينها وانتصر الرأي الذي قال بتركها كما هي.

يبدو لي أن هذه الصورة قد التقطت قبل زواجنا. تحت الطربوش منديل محلاوي كبير. يقوم بدور مظلة صغيرة. تغطي أجزاء من الرأس. وإن كان قد قال لي. إن هذا المنديل يحمي الطربوش من العرق الغزير الذي يغطي رأسه ساعة الظهر.

نسيت، وما أكثر ما نسيت. أن أسأله عن ظروف التقاط هذه الصورة له. متى؟! وأين؟! والأهم من كل هذا. لا أين كنت أنا وقت التقاطها؟ كبير الصورة وبروزها في أيامه الأخيرة وعلقتها بعد رحيله؛ لأنني اكتشف بعد رحيله أنه توجد لي صورة معه. لا صورة للزفاف. الذي تم في البلد، وليست لنا كعائلة صورة تذكارية تجمعنا معا.

شربت المر في أيامي الأولى معه. لف ودار في كل بلد من بلدان بر مصر. من الصعيد الجواني. حتى شط إسكندرية. حتى مدن القتال لم تكن له واسطة سوى عمله وإخلاصه وعفته ورفضه أن يمد يده، كان يقول دائما: إما أن يمد الإنسان يده أو يمد قدميه. وهو اختار الحل الثاني. كنا من بلد منسي. ولم يشم أحد أبنائه نفسه ويقب على وجه السماء فيصبح واسطتنا عند الأكابر فأخذناها كعابي. كان يسمى رحلتنا في لحظات الصفاء – وما أندرها – كعب داير.

كان يشرح لي أنهم عندما يفكرون في البوليس. خاصة المباحث. أن يدوخوا احد المجرمين السبع دوخات.

يلفون به البر بلداء، بلداء، ومدينة مدينة. كل عب وناحية ذهبنا إليه. لم نعرف الاستقرار الذي يتكلم عنه الناس.

رزقنا الله بسبعة من الأولاد. في وجه العدو. يحكون رحلتنا المرهقة والمضنية التي قمنا بها على مدى العمر. كل واحد أو واحدة له شهادة ميلاد من بلد. لم يحدث أن كان اثنان من أولادي لهما شهادتي ميلاد من بلد واحد.

كان زوجي يجلس معي ساعات الأصيل ويعد على أصابعه البلاد التي استخرج منها شهادات ميلاد للأولاد ويعرف منها رحلة عمره. فالتاريخ مدون في شهادة الميلاد وكذلك المكان. ثم ينظر ناحية الأفق ويتساءل: ترى أين ومتى ستدون شهادات الوفاة له ولي ولهؤلاء الأبناء؟.

أحاول أن أثنيه عن المضي في هذا الكلام. ولكنه كان يتلو دوماً " وما تدري نفس ماذا تكسب غداً. وما تدري نفس بأي أرض تموت " ثم ينصرف إلى الصلاة، يصلي ركعتين. يهدئ بهما نفسه. ويخرج من حالة الكدر؛ لأنه ما من شيء كان يحزنه أكثر من غربة أولاده وعيشتهم بعيداً عن أحضانه ورعايته.

كان يحن إلى بيت العائلة الكبير. الذي يجمع شمل الجميع تحت سقفه. ومع إن هذا كان من النادر أن يحدث، كان يقول دائما: " يوم عيدنا يوم لم شملنا" وما أندر ما كان يحدث هذا. أتذكر أنه منذ أن أصبحت هذه الحكاية هما من همومه. لم يحدث أن اجتمع الشمل كله. حتى رحل عن دنيانا.

في كل مرة كان لا بد من نقصان أحد. وكان كل اهتمامه ينصرف إلى الغائب أو الغائبة ويصبح الغائب أكثر حضورا من الحاضرين. لدرجة أن هذا الإحساس كان يضايق الذين حضر. وا

كانت محطته الأخيرة في مصر. نقل إليها بعد أن لفت بنا الأيام ودارت. حصل على شقة في حي جميل. كان يقول إنه توفيق من صاحب الخيمة الزرقاء. الذي يقول للشيء كن فيكون. كان سعيدا بالثقة؛ لأننا كنا نرى منها مقياس النيل. الذي كان يقول عنه مقياس الخير ومقياس الأمل. وكنا نرى من فوق السطوح الأهرامات. تبدو طشاش جزءا من صورة كما لو كانت لوحة مرسومة على الورق.

وسط الضباب والغبار وذرات الهواء التي يمكن أن يراها الإنسان.

ولأنه كان أصبح رئيساً لقلم المحضرين. كان يقول عن نفسه: مدير عام. ولا يخرج بدون البدلة الكاملة والكرافتة والقميص. وينصرف كما لو كان وزيراً، ورغم أنني لا أعرف إلى أين وصل في تعليمه، فإنه كان يقرأ كثيراً الصحف والمجلات التي يبدو أنها كانت تقدم له على سبيل الهدايا في عمله؛ لأن مصروفة لم ينقص بما يعادل ثمنها.

وفي مرحلة تالية. كان لا يقرأ سوى القرآن الكريم. الذي كان يقرؤه من قبل أحياناً. بدأ يحتفظ بنسخ كثيرة منه. لدرجة أنه أصبح لديه دولا ب كامل. فيه مصاحف كثيرة. وتفسيرات متنوعة. وألوان متباينة من كتاب الله.

بدأ زواج الأولاد والبنات. من يتزوج كان يغادر البيت الكبير، والكبير تعبير من عندي؛ لأن البيت كان صغيراً. لدرجة أنني لا أعرف كيف كنا نعيش فيه، قال يوم الزواج الأول. إن الفرة جاءت وسرعان ما ستكر حبات السبحة. ونجد أنفسنا أنا وهو وجها لوجه بمفردنا.

يوم أن عاد إلى البيت ومعه خطاب إحالته إلى المعاش. قال كلمتين فقط. لم أفهم معناهما في البداية: " خيل الحكومة" أي خيل؟ وأي حكومة؟ قال لي إنه في إسطبلات الحكومة. قبل أن تعرف مصر السيارات بكافة أنواعها. وحتى بعد أن دخلتها السيارات. كانت الخيول هي وسيلة المواصلات الرئيسية لموظفي الحكومة. خاصة الشرطة. كان الحصان رمزا من رموز الحكومة.

في كل بلد كان هناك إسطبل من أجل تربية الخيول. يقوم على خدمتها عمال. وهو ما لم يحدث للبنني آدمين، ولكن عندما يعجز الحصان. ويصبح غير قادر على الحركة. فإنهم كانوا يطلقون الرصاص عليه؛ حتى يريح ويستريح.

عجبت من أمره وتعجبت. هل يكره إنسان الراحة بعد التعب الذي مر به حياته؟ قال لي إنه في عنفوان قوته. وذروة قدرته على العطاء. وقرار الإحالة إلى المعاش. كأنه رصاصة الرحمة التي تحاول أن تنهي حياته وهو حي. كان يقول عن نفسه بعدها: الميت الحي.

إحالته إلى المعاش نجحت في إصابته. بدأ يخشى المرض ويكثر من الحديث عن الأمراض. ويتساءل: إن كان

ينحدر من عائلة معمرة؟ يتساءل عن السن الذي مات فيه أبوه وجد جده. وأمه وأمها وأخوته؟ كان قد وقع في حفرة سن الستين. وكنت أخشى ألا ينجح في الخروج منها بأقل الخسائر الممكنة، كَلَّته أن يمكس وظيفة ما. يشغل بها نفسه، فتساءل: أي وظيفة؟ كاتب محامي؟ تومرجي في عيادة طبيب؟ أم أجلس على كيس في محل أو مطعم أو كافيتريا؟! كل الأعمال من وجهة نظره كانت أقل منه. كان يتساءل بإحساس طارئ بالعظمة: هل نسيت العمل الذي كنت أقوم به؟ والدرجة التي كنت أشغلها؟ والساعي الذي كان يفتح لي الباب لحظة وصولي إلى العمل؟ والسكرتارية التي كانت تعمل عنده؟ وعدد التليفونات التي كانت على مكتبه؟ إيشي أحمر وإيشي أبيض؟ والسيارة التي كانت تحضره إلى البيت؟ وتذهب به إلى العمل. والسائق الذي كان يفتح له الباب ويعظمه لحظة دخوله السيارة؟

لم أكن أجرو أن أقول له إنه حتى لحظة إحالته إلى المعاش كان يركب الأتوبيس. وإنه كان معه أبونيه يضعه في محفظته. ويتأكد من وجوده قبل أن ينزل كل صباح من البيت. لم أكن أريد أن أرح مشاعره، ما دام يصدق نفسه

فيما يقوله. لا بد وأن أصدقه. وعليّ أن أمثل هذا الدور أمامه. هل معقول أن أغضبه، من أجل هذه الحكاية التافهة؟

لا أعرف ما هي العلاقة بين إحالته إلى المعاش ورغبته في ترك مصر. والعودة إلى البلد. من يومها وزياراته للبلد أصبحت أكثر. فكر في بيع قراريط الفردوس المنتظر. والجنة الموعودة. وأن يبني بئنها شقة صغيرة. لها حديقة خضراء. يعيش فيها ما بقي لنا من أيام العمر.

عاد من البلد ذات مرة. وقال إن العمران أوشك على الوصول إليها، تحدث عن تحريم البناء على الأراضي الزراعية. كان يتصور أنه شخصيا هو المقصود بمثل هذا القرار. وأن الذي أصدر القرار لم يكن يفكر سوى في قراريطه القليلة. وكان يثور عليه. رغم أنه لم يكن يعرفه. وكنت أهدئ من ثورته وأقسم له. إنه خارج الحكاية، وإن الناس تريد له الخير. مع أنني لم أكن أعرف أي شيء عن الحكاية. كنت أؤكد له أن الأمر لا علاقة له بنا من قريب أو بعيد ولكنه كان يرفض أن يصدقني.

كان يسافر ويعود متعبا. بيت العائلة قديم. توزع بحكم الميراث والبيع. ولم يبق لنا فيه سوى ما يماثل أقل من

غرفة، وهو ليس معه مال. لا يملك سوى القراريط الستة. كانت أول مرة يحدد فيها الرقم. كان يقول من قبل قراريط قليلة ويكتفي بهذا. قال إن هذه القراريط الست مزروعة جرجيرا وفجلاً. هذه القراريط الستة هي ما أمامه وما وراءه.

وهو يريد أن يكون له بيت يليق به. يقوم ببنائه في البلد. اقترحت عليه أن يقوم بعمل اكتتاب. أن يطلب من الأولاد المساهمة معه في تكاليف بناء البيت. يبني البيت الذي يحلم به سواء على جزء من أرض بيت العائلة. أو على جزء من القراريط الستة. التي كان يعتبرها قراريط في الجنة.

رفض وثار. هاج وماج. قال إنه لن يمد يده إلى أبنائه تقطع يده. ولا يمدّها لأحد من أبنائه. سيظل والدهم. الذي يعطيهم ولا يأخذ منهم. وسيبقى هكذا حتى آخر يوم في عمره.

ذات صباح تفتق ذهنه عن حل. سيبيع نصيبه في بيت العائلة في البلد، مع أنه يهاجم الذين باعوا. وكان يرفض حتى الكلام معهم. ويبيع الشقة التي تعيش فيها في

مصر. كانت الشقة قد صففت علينا. عليه وعلى ابنتنا التي لم تتزوج.

الكل تزوج. وانتقل إلى بيته، وحتى الولدين اللذين لم يتزوجا ضاقا ذرعا بالقيود التي كان يفرضها عليهما. وعزلا. أقاما معا في شقة واحدة في البداية. ثم استقل كل منهما بشقة تخصه، وكنت حزينة. كنت أريد لهما ترك البيت إلى بيت زوجية كل منهما، ولكنهما كانا يهربان من قيود والدهما وصرامته؛ بل وقسوته التي زادت بعد أن طلع على المعاش.

الشقة التي كنا ننظر إليها على أنها ضيقة في وجود الأولاد. كانت قد بدأت تتسع علينا، ولا نسمع فيها سوى صوت الصمت. كنا نحن الثلاثة قد تحولنا إلى نقطة صغيرة في سكن واسع علينا. وهذا جعله يضيق أكثر بالحياة فيها. رغم أنه كان يحلم ببيت في البلد أكبر من الشقة كثيرا.

كنت ضد بيع الشقة حتى لو انتقلنا إلى البلد. كان لا بد من الإبقاء عليها. لا بد من وجود بيت لنا في مصر. في هذا البندر الذي لا أول له ولا آخر، والأهم من كل هذا الذي يعيش فيه أولادنا.

لكن مشكلة لم نكن نعمل حسابا لها نشأت لنا. ذلك أن ابنتنا الوحيدة التي بقيت معنا. ولم يأتها عدلها. وكانت مازالت في انتظاره رفضت أن تذهب معنا إلى البلد. قالت إن فرص الزواج الذي مازال تحلم به هنا أكثر. وفي البلد لا وجود لها. كلهم في البلد متزوجون. ولا أحد يطلق هناك. كما أن المرأة لا تموت قبل زوجها.

كانت أصعب الأيام التي عشتها. طلبت البنت الشقة عيانا بيانا شوارها. هي الوحيدة التي لم يجهزها والدها، هذه الشقة من حقها. ووالدها نظر إلى الأمر باعتبار أنها ترثه في حياته. ولم يكن يتصور أن نذهب إلى البلد ونترك البنت وحيدة في الشقة، كان هذا فجورا وفحشا وقلّة أدب. وإن كان في آخر الليل يحاول أن يجد لها العذر، ويحنو عليها بسبب ميّلة بختها. وهكذا وافق قلبه على ما كان يرفضه عقله، وقبل أن يوافق أخذ التعهدات على أخوتها خاصة الرجال. أن يكونوا مسؤولين عنها أمامه. أنذرنا إنه عندما يطلب منها العودة إلى البلد معنا لا بد وأن تعود دون مناقشة. وهي وافقت. كان يفكر أن يحفّفها على المصحف الشريف أن تصون نفسها. في هذا البلد الذي لا يصون عرضا ولا

يراعي قيمة. ولا يبقى على أي معنى من معاني الشرف والكرامة.

كان الحل الذي توصل إليه. أن يستبدل جزءا من معاشه، وذلك باعتبار أن الحياة في الريف أرخص منها في المدينة. قال لي إنها أقل من النصف. وإن كان قد ثبت له بعد ذلك أن هذا وهم. وأنه ربما كانت المدينة أرخص من القرية. أخفى عن أبنائه حكاية استبدال جزء من المعاش. وإن كانوا قد عرفوا بعد ذلك.

معركة الانتقال إلى البلد، وكثرة السفر. جعلت صحته تبدأ في رحلة التدهور. أمسكت فيه الأمراض. لم يكن يحب استخدام الدواء. كان يفخر أنه لم يدخل صيدلية في حياته. ولم يعرض نفسه على دكتور. فأتت له الأمراض كلها مرة واحدة، ومع إنه كان يقول إن الصحة في البلد تكون أحسن منها في مصر. الهواء النقي والزرع الأخضر والمياه والبراح والبعد عن المدينة المصبوبة من الأسمنت، حتى الهواء من الأسمنت، ، والماء من الأسمنت. بعد أن أمسكت فيه الأمراض. كان يدعو بعد الصلاة. وقبل النوم. وبعد

الصحو" اللهم اجعل صحتي قد عمري" كان يتكلم عن نعمة الموت المفاجئ. ويكره المرض الذي يذل الإنسان.

أمسكت فيه البلد وانتهى الأمر. لا بد من عودته إليها. كان يقول لي: من الأفضل لي أن أعود إليها على قدمي. بدلاً من أن أدخلها في صندوق مغلق. محمولاً على الأكتاف.

وحكاية البيت جرت وراءها حدوتة القبر. فبعد أن باع نصيبه في بيت العائلة. واستبدل معاشه. قسم المبلغ بين البيت الذي اشتراه والقبر الذي بناه. كانت مقبرة العائلة قد ازدحمت، أصبح الدفن فيها صعباً. لم أكن كيف أدرك كل هذه الأمور الغريبة ولا متى.

عندما ناقشته في موضوع القبر. قال لي إن الجدع هو من بيني هناك. الأولاد تشاءموا من مجرد اهتمامه بموضوع القبر. قالوا القبر ينادي صاحبه وإن ما جرى يعكس الإحساس بدنو الأجل. وأنا كنت أستمع إليه صامتة. قال لي: إن القبر هو الدار الباقية. وأنا هنا في دار الفناء. فلم يقصر في حق آخرته. هاج وثار عندما عرض عليه الأولاد شراء مقبرة في مصر.

قال كيف يرفض قبرا وسط الحقول. الخضرة تحيط به من كل جانب. ترعة المياه بحرية وشرقية. والظل يغطي القبور التي تشكل الأشجار دابر دابر حولها. وهو لن يشترى قبرا إلا إن كان مغطى بالظلال. مزروعا بالظل فالظل جزء من الجنة، والهجير هو الطريق إلى الجحيم.

وهو لن يدفن في قبر وسط الصحراء. تسافر من أجل الوصول إليه يوما، لا بد وأن تكون معك خريطة حتى تصل إليه. في اليوم التالي لوفاتك يأتي الطلاب الذين يدرسون الطب. يسرق لهم التربي عظامك، ويبيعها لمجموعة منهم، حتى يدرسوا عليها التشريح وتنتقل أجزاءك من شقة إلى أخرى، وينفرون على موتك، يصبح جرسة وفضيحة بجلال.

أعلن الأولاد. أنهم لن يقبلوا الدفن في البلد. وهو قال يحرم عليّ الدفن في مصر. كل مقابرها في الصحاري. عطش وحرق ولون أصفر. مع أن اللون الأخضر هو الحياة. المياه نادرة. وإن وجدت تاهت بين الرمال.

كان قد أصبح كل همة الانتهاء من بناء مقبرته، كان يجهزها لنفسه. وفي الوقت نفسه كان يوضب البيت لي.

اشترى بيتًا من أصحابه. الذين شدوا الرحال إلى مصر. نحن عائدون وهم في الطريق إلى البندر الذي عدنا منه. ولكل منا أسبابه الخاصة – والوجيهة – التي تدفعه إلى هذا. أجرى في البيت بعض الترميمات. وسعى من أجل إدخال الكهرباء والماء والتليفون فيه. قال لي الكهرباء من أجل الإضاءة والتلفزيون. والماء هو الحياة نفسها. أما التليفون حتى لا تأكلني الوحدة. بعد البعاد عن الأولاد. عاد وقال وجع البعاد عن الضنى، كأنه كان يتوقع هذا المصير.

يعرف الإنسان منا في أعماقه أن رحلة العودة قد بدأت. لا أريد أن أقول إنه كان مكتشفًا عنه الحجاب. ولكنه كان قادرًا على قراءة ما سيأتي به الزمان. ذلك أن الأيام التي فصلت بين الانتهاء من بناء القبر ووفاته كانت قليلة. ولم أعد أعرف من الذي نادى على الآخر؟ القبر الذي نادى عليه أم هو الذي نادى على قبره؟

كل أمر في الحياة له جانبه الإيجابي – حتى موت زوجي – يمكن أن نقول إنه كانت فيه إيجابية ما. ذلك إنه بعد رحيله. – الذي لم يكن مفاجئًا – بفترة قصيرة نزعنا الحكومة ملكية بعض الأراضي للمصلحة العامة. هكذا قالوا.

إن هناك طريقاً ضخماً سيمر من البلد، البعض قال يوصل الوجه البحري بالصعيد. والبعض الآخر أكد أنه طريق دائري حول مصر يلفها مثل الكعكة.

كانت من ضمن الأرض التي نزعت ملكيتها القراريط الستة. قراريط جنة عمره. التي كان يقول عنها إنها ستريحه في آخر أيامه. لو لم يموت موته الطبيعي، لمات من الحسرة على هذه الأرض. يوم نزع الملكية. حمدت الله إنه مات قبل أن يشاهد هذا اليوم بنفسه.

قالوا إنهم سيصرفون تعويضاً كبيراً. ومرت الأيام ولم يصرفوا مليماً واحداً لأي من أصحاب الأرض. والمشروع لم يتم، وتحولت الأرض التي كانت مزروعة إلى خرابات ومقالب زباله للسيارات الكبيرة التي تحضر من البندر وفيها كل ما يستغني الناس هناك عنه. عندما جاءت أول سيارة في الليل ورمت حمولتها وجرت. ذهب الأولاد العواظلية. يبحثون في الزباله عن شيء ثمين. وعندما عادوا بالوسخ في أيديهم قلت لنفسي: هيه الحداية بترمي كتاكيت؟

أفقت من تأملاتي. كنا قد أوشكنا على الوصول. وصلنا وما وصلنا. المباني حولنا من كل جانب. ولكن ما

نمشيه وسط المباني أكثر مما رمحته العربية وحولها الغيطان  
والبراح من كل جانب.

تأكدت - لست أدري للمرة الكم - أن العناوين  
وأرقام التليفونات وطريقة الوصول إلى كل منهم معي. عندما  
طلبت منهم العناوين. قالوا وهل من المعقول أنني سأذهب  
إليهم؟ وأتحمل المواصلات وزحامها ورزالة أولاد البنادر؟  
وقد يفعلون معك ما يخرج عن أي تصور.

قلت إنني سأخذ هذا الورق معي حتى أستبارك به،  
بركة من الذين يسكنون القلب ويعششون في حبة الفؤاد  
ويتعلقون برموش العين. فكرت: أليس هناك احتمال أن  
يحضر أحد لها؟ تذهب هي ويجيئ هو وتحدث حالة من  
البحثرة على السكك. قلت لنفسني: إذا كان لم يكلف خاطره  
بالاتصال، فكيف يحضر؟! ثم إنهم قبل الحضور يتصلون.  
يطمننون على وجودي في البيت. ويسألونني إن كنت أريد  
شيئاً من البندر. كان هذا يحدث في الوقت الذي كانوا  
يحضرون فيه إليّ.

عند مدخل البندر شاور بعض الركاب للسيارة.  
وركبوا، كان السائق مستعجلاً. ولكنه توقف وأركبهم. في كل

مرة كان يحدث كلام وحديث عن الأجرة. والسائق يضرب في العالي. والناس المساكين يفاصلون. ويود كل منهم أن يقيس المسافة بالمتراً؛ حتى يحدد المبلغ الذي سيدفعه. وكلما ركب راكب هدأت نفسي واطمأنت روعي. إلى قلة المبلغ الذي يمكن أن يطلبه مني سائق.

كل راكب ما أن يستقر به الجلوس في العربية. حتى يبدأ في الكلام، وهل هناك موضوع آخر غير الزلزال لكي يتكلم فيه؟ شخص تساءل بعد أن استمتع بالجلوس بجوار النافذة. ماذا يمكن أن نتوقع بعد الفجور الذي يحيط بنا من كل جانب؟ لقد طفح الكيل. وكان لا بد من قارع.

سمعت من يقول إنه لا بد من وقوع معجزة ما بعد الزلزال، وربما عدد من المعجزات. وإن مضى الوقت دون حدوث المعجزة سيكون هذا معناه أن الله غاضب على البلد ومن فيها. رد عليه واحد متسائلاً: كيف يغضب على بلد فيه هذا العدد من آل البيت؟ إنهم بمثابة الأركان التي تثبت الأرض وتحمي البلد من المصائب. إنهم البركة الباقية. وآخر الخير الباقي على الأرض.

شاب متعلم. قال إن الزلزال لو لم يوجد لاخترعوه  
وصنعوه، إنهم يعيشون على الفضائح في الأيام العادية. فما  
بالك بكارثة في حجم هذا الزلزال. ونحن الذين ندفع ثمن كان  
المصائب في النهاية.

لم أفهم من كلام الشاب حرفاً واحداً.

.. مصر أخيرا.. يقولون عنها القاهرة. اللحظة الأولى. النظرة الأولى. العين تصافح الأشياء لأول مرة. وتحاول أن تألف المكان. عواصف غبارية في الشوارع. غبار يخيل إليّ أن الذي تحركه عاصفة ترابية ضخمة. ولكن لأن الريح ساكنة والهواء يقف في مكانه. أدرك أن سقوط أجزاء من بعض البيوت هو الذي أثار هذا التراب في الجو. جدران صفراء في الشوارع. جدران من الغبار. جدران وهمية تحجب الرؤيا. الغبار الذي يصل إلى الأنف يدفعني إلى العطس. غبار ذهبي اللون مثل غبار النحاس. مثل ذرات الطحين المتناثرة والمتطايرة. يقترب الغبار مني فيضيع الأفق أو يتوه من نظري، وأفقد حتى القدرة على الرؤيا.

لسنا في أيام الخماسين. والصحراء ليست قريبة منا. ابتعدت الصحاري أو تراجعت. بعد زحف العمران. من أين يتطاير هذا الرمل في الجو؟ من أين تأتي؟ وإلى أين تذهب؟ سألت نفسي ولكن بدون إجابة.

كانت البلد في انتظار هزة زلزالية أخرى يقولون عنها توابع الزلزال. تبدو المدينة خفاقة بيضاء مثل قلوب الأطفال، كان الناس يتناقلون أخبار الساعة بلهفة وحسرة وألم. وكان الرعب يتجول في الشوارع ويقف على النواصي.

كان مشهد المدينة قد تغير. ألم أعش فيها سنوات من عمري؟ والفرع من الفرع. والرعب من الرعب. والخوف من الخوف. يرسم ملامح جديدة لوجوه الناس. النساء يحتمين بالرجال. والأطفال يتعلقون بأذيال أمهاتهم. وكبار السن يتعكزون على الشباب، والجميع لم يكونوا يسمعون سوى دقات قلوبهم. دقات قوية ومرعبة من الخوف والفرع. إن هذا يحدث للناس دائما عندما يجدون أنفسهم أمام الموت وجها لوجه.

طوال الطريق. وقبل أن أعرف حجم ما جرى. كنت أدعو لأبنائي وأحفادي. ولكن بدون صوت. يا رب سترك. يا رب نجي أولادي من كل سوء. اكتب لهم في كل خطوة سلامة. كرامة للنبي نجهم من كل شر. يا رب يا نصير كل ملهوف.

نظرت إلى المشهد أمامي. العمارات العالية التي  
تصل السماء بالأرض. تساءلت: ماذا جرى لها لحظة  
الزلازل؟ هل تآرجح الجسر على بحر النيل الذي يصل  
الضفة الغربية بالضفة الشرقية للنيل؟! هل انقلبت القوارب  
فيه؟ والعمارات العالية هل مالت من أجل أن تستند على  
بعضها؟ وماذا فعل ساكنوها لحظة الميل؟!!

سمعت الناس تنصح الناس. قلت لنفسي: هل ينصلح  
الحال؟ هل يدفع الزلازل الناس إلى أن يظهروا أجمل ما  
فيهم؟ كانت الناس تطلب من الناس تفادي المشي بجوار  
الحيطان على الأرصفة. وأن يكون المشي في بحر الشارع؛  
لأن ذلك أسلم. قلت لنفسي. عن أي سلامة يتحدثون مع أن  
الموت يفرد قامته في كل مكان ويوشك أن يقول: أنا هنا؟.

مصر أخيراً: تعجبت من حالتي. إنها القسمة  
والنصيب. المقدر والمكتوب. المكتوب على الجبين الذي لا  
بد وأن تراه. منذ أن أقمت في البلد. وأنا أنوي الحضور إلى  
مصر. وأن ألق وأدور على آل البيت. وفي كل صباح  
أنوي.

ولكن - في كل مرة - أوْجل تنفيذ نيتي إلى يوم آخر. مرة لأن اليوم ليس يوم جمعة وأخرى لأن ملابسي غير مكوية وثالثة لأن صحتي ليست على ما يرام. ورابعة حتى أرتب أموري مع أولادي، هل من المعقول أن أذهب إلى مصر دون أن يعرفوا؟! أكون بذلك قد أجمت في حق نفسي.

ولكن ها هو اليوم الذي فراض عليّ تنفيذ الرحلة. دون ترتيب أو اتصال. سأمر على أولادي أولاً. اليوم يوم أولادي. وغدا لآل البيت أعرف أن الغد ليس جمعة. ولكن ما باليد حيلة. أطمئن على أولادي ثم أقوم برحلة الشكر غدا.

حمدت الله. أن الأولاد يعيشون في بلد واحد. هو مصر. ماذا كان الحال لو كانوا يعيشون في أكثر من بلد؟ ولد في الإسكندرية؟ وبنت في الصعيد؟ وولد آخر في بورسعيد؟ وواحدة في الواحات أو البحر الأحمر؟ يا داهية دقي. لو أن واحدة تعمل في مرسى مطروح أو أسوان. كلهم في بلد واحد. الحمد لله أن هذا جرى. إنه توفيق من صاحب كل توفيق يحدث لنا. فهو الذي يرتب أمور حياتنا. حتى قبل أن نأتي إلى هذا العالم.

حتى الابن والابنة المغتربان - رداهما الله من الغربة  
وجعلها غربة مؤقتة - الناس يقولون في البلد. الغربة تربة.  
قرب اللهم من يوم عودتهما إلى مصر. ربما كان يوم العودة  
قريبا بالنسبة للولد.

فهو يعمل هناك فقط. وربما كان يوم العودة بعيدا  
بالنسبة للبنت. فقد تزوجت وأنجبت هناك. ولد وبنت. البلد  
بلد زوجها وابنها وابنتها. ولكن لها شقة في مصر. وهذا  
يعني أن عودتها واردة. ولكن متى؟ علم هذا عند الله.

لم أعرف حجم الزلزال إلا عندما نزلت في باب  
الحديد. كنت متأكدة أن البلد تعرضت لزلزال. سمعت الناس  
تتكلم عنه وشعرت به في بيتي. وطوال الطريق من قريتي.  
قرية الروضة وحتى مصر. لم يكن للناس كلام سوى عنه.  
لقد وصل عندما كنت أفرج على مارلين مونرو. والرجال  
الذين يفضلونها ساخنة. ومع هذا لم أتصور حجمه؛ لأنني  
عندما كنت أنظر للناس كنت أجدهم يعيشون حياتهم بشكل  
عادي، وأن الأمور تجري مثل أي يوم آخر.

سيارات ترمح، قطارات تجري. وأخرى متوقفة على  
جانبي الطريق. وركاب مزدحمون. ومشاة على الصفيين.

ومقاهي ومحلات الكاوتشوك مفتوحة. وباعة الفاكهة يلوحون لنا. يشيرون إلى الفاكهة. كل هذه الأمور أشاهدها في كل سفريّة. وهي تحدث اليوم بدون أي تغيير.

في باب الحديد، قابلت الزلزال فعلا. وجدت نفسي أمامه وجها لوجه، ذعر وفوضى. رمح وجري في كل اتجاه. كان المارة يبتسمون لبعضهم. كانوا سعداء بالنجاة. وكل واحد يقول لنفسه. أو يحاول أن يقول لنفسه بأنه سعيد؛ لأنه ما يزال على قيد الحياة. رغم ضخامة ما جرى. كان اللغط المحيط بي ذا أصوات زجاجية. تصورت أن صخرة طائرة. نزلت علينا من السماء فتعكّر صفو الجو وزرقتة الخريفية. القريبة من اللون الرمادي.

حالة سفر غير عادية. من مصر وإليها. الأكثر كان الخروج من مصر. والأقل هو الحضور إليها. ناس تهج مكروشة النفس متعبة الصدور. يغطيها العرق. رغم بعض نسيمات الخريف التي تسللت إلى الجو. تجري في كل اتجاه، ناس تحمل أشياءها. ولا أحد يجلس بالقرب من المباني. والذين يجلسون يفضلون الجلوس في الأماكن البعيدة عن أي شيء تم بناؤه على الأرض.

مع أنه في هذا الوقت من النهار . يحب الناس الجلوس حيث توجد الظلال التي تحميهم من الشمس. لكن الخوف من المباني جعلهم يضحون بالظلال وما يمكن أن تمنحه لهم من طراوة يفقدونها في هذا الوقت من النهار.

احتارت بأي الأبناء تبدأ؟ بمن تحبه أكثر؟ أو من تخاف عليه أكثر؟ وفتت. يطن الموضوع في رأسها. حكاية أولادها. وتوقع ما يمكن أن يكون قد وقع لهم. ولكن الأتوبيس الذي وقف أمامها في هذه اللحظة بالذات. هو الذي حسم ترددها. ما إن انفتح بابه، حتى نزل ركاب وما إن نزل منه آخر راكب فيه. وهو في العادة راكب لكعي لا يعرف إلى أين يريد الذهاب. ويسير بدون هدف. وقد تقوده الصدفة. أكثر من أن يقوده تصميمه الداخلي على الذهاب إلى مكان معين.

وجدت نفسها تصعد إليه واعتبرت أن هذه الصدفة رسالة من الله لها. أمر لا بد من تنفيذه. إلهام أو رغبة إلهية كل ما عليها أن تنفذها وهي سعيدة؛ لأن من يحركه الله. ماذا تخشى من الناس؟ كل الناس؟ كان الأتوبيس ذاهبا إلى المنيل. الذي نقول عنه منيل الروضة، وبهذا تكون قد جاءت من

الروضة إلى الروضة :الروضة القريبة الخضراء إلى الروضة الحي الذي يحيط به الماء من كل جانب، ومع هذا هناك فوارق بين الروضة التي جاءت منها، والروضة التي هي في الطريق إليها. جاءت من الجنة إلى عذاب النار. إلى جهنم إبليس. ترددت قليلا، قالت لنفسها إن الأمور لا يمكن أن تصل إلى هذا الحد في المقارنة.

صعدت الدرجات الثلاث. وجلست. ومضى بعض الوقت حتى حان موعد تحرك الأتوبيس. كان خاليا من زحام الناس المهول في هذا الوقت من النهار. فقد شعرت أنه يمكنها أن تغير مكان جلوسها. تتبغدد وتختار. تقبل وترفض. وهذا لم يحدث لها من قبل في أي أتوبيس. ولا حتى سيارة بالنفر، وإن كان قد جرى مرتين في هذا اليوم الغريب.

كانت قد جلست بمجرد صعودها في آخر صف من الخلف. فوق الكنبة العلوية. التي يكون موتور الأتوبيس تحتها. تعرف هذا من سخونتتها. وإن كان الجلوس عليها يبدو محببا في الشتاء؛ لأنه يدفع الإنسان ويطرده عنه البرد. فإن الاضطرار للجلوس عليها في الصيف يجعل الإنسان. كما لو كان في جهنم الحمراء. ويصل إلى المكان الذاهب إليه

مشويا. ثم إن الجلوس في الخلف يجعل الإنسان ملطشة لكل الصاعدين. وربما شال عنهم ما يحملونه. وإن لم يجدوا أماكن للجلوس فيها. تبقى الأشياء التي يحملونها معهم حتى يحين مكان نزولهم. ربما يتزكونها معها كنوع من حجز مكانها. إن نزلت هي قبلهم. وهم يفعلون هذا. إن كانوا يركبون من المحطة الأولى وحتى المحطة الأخيرة في الخط. في اللحظة التي تقوم فيها، قبل أن تصل إلى محطاتها كنوع من الاستعداد وما إن تسلم صاحب الشيلة شيلته حتى يجلس مكانها.

أمامها فرص نادرة للجلوس في مكان أفضل. ذكراها بهذا حر جهنم الذي تجلس فوقه. كل هذا جرى والأتوبيس لم يتحرك من مكانه، فماذا سيجري عندما يمشي ويرتفع صوت الموتور. وتزداد الحرارة؟!!

قامت من مكانها. قبل أن يحل عليها التعب. مسكين البني آدم. لا الزحام يريجه. ولا الكراسي الخالية تشعره بالراحة أيضا. احتارت أين تجلس؟ نظرت وتفحصت وحاولت أن تحسب في عقل بالها مزايا وعيوب كل مكان من الأمكنة الخالية أمامها. اتجهت إلى الكرسي الذي وراء

السائق مباشرة، جلست فيه. هذه الأتوبيسات الموحدة الأجرة لم تجعل التسلل من الدرجة الثانية إلى الدرجة الأولى مغامرة مالية. تدفع الفارق فيها بمجرد صعود المفتش الذي يفتش على التذاكر. وهي لم تدفع ثمن تذكرتها بعد.

كل ما همها أن يكون الكرسي بجوار نافذة. يدخل منها الهواء الذي يعد أكبر وأعظم رحمة. الحمد لله إنه مازال ببلاش. في هذه الكتمة الكبيرة. بمجرد جلوسها شدد الزجاج المتحرك؛ حتى تتأكد أنه من السهل أن تغير مكانها قبل أن يهل خلق الله. وتحدث أزمة ليس في الأماكن. ولكن في الهواء الذي يمكن أن يستنشقه الإنسان.

حركت الزجاج. بدأ هواء الله في الدخول إليها.

إنه ليس مثل هواء البلد. ولكنه هواء والسلام. أفضل من الكتمة والحر.

بعد وقت خيل إليها أنه طال. تحرك الأتوبيس، راحت تنظر حولها. وهي تحاول أن تتذكر كم مرة قطعت هذه الرحلة معه؟ وكم مرة مع الأولاد؟ كان المرحوم يقول لها. من نعم الله علينا وجود هذا الأتوبيس الذي يتحرك من

باب الحديد ولا ينزلون منه سوى عند البيت، العذاب أن يضطر الإنسان إلى تغيير الأتوبيس ولو حتى مرة واحدة. فما بالك بالذين يغيرون أكثر من مرة؟ كان يقول إنه من نعم الله أيضا أن هذا الأتوبيس يتحمل العائلة كلها.

تساءل بصوت عالٍ: دلوني على تاكسي في أي مكان من البلد يمكن أن تركبه العائلة مرة واحدة؟ يحتاجون إلى ثلاثة أو أربعة تاكسيات. ولأنه من المستحيل أن تسير مع بعضها. فقد يتوهون من بعضهم في الطريق.

كان يحاول أن يجعل من فقره جنة لهم. وأن يجد لهذا الفقر مزايا في كل ما تقع عليه العين وتسمعه الأذن وتشمه الأنف. ولكنه رحل انخطف منها. وتشتت شمل الأولاد وسكن كل منهم في مكان بعيد عن الآخر.

تتوه الذكريات. وتتداخل وتختلط وتحتاج لجهود جهيدة حتى تستطيع أن تتذكرها وتربطها في سياق واحد. كانوا يسافرون إليها في الشتاء والصيف بل في الربيع والخريف.

ربما كانوا يحضرون إلى البيت أكثر من الفصول. كانوا يسافرون إلى البلد كثيرا، كلما شح الزاد والزواد وضافت عليهم الحياة. لم يكن أمامهم سوى السفر إلى البلد. بلده وبلدها. وإن كان مازال له من سلساله أقرباء كثيرون في البلد. أما هي فقد تباعدت الأمور بينها وبين أقرائها لدرجة أنها تبدو كما لو كانت مقطوعة من شجرة، لا أحد لها في هذا العالم سوى أولادها.

إنها البلد التي كانوا يحاولون ربط أولادهم بها وجعلهم جزءا منها. ويأخذون عليها وتربطهم بها ذكريات جميلة وصدقات عذبة. حتى تصبح بلدهم في النهاية ويصبح التردد عليها ترياقا. والسفر إليها علاجا، والبقاء فيها بديلا للذهاب إلى المستشفى إن أصابت أحدهم علة. وما أكثر الأوجاع التي يمكن أن تصيب الإنسان.

كانوا يسافرون إلى البلد بعد ظهر الخميس، يوم كله زحام وعرق وغبار، وهذا كان يجعل لحظة وصولهم إلى البلد وقت الراحة المسروق من التعب. وكانوا يعودون من البلد مساء الجمعة؛ لأن أشغالهم تبدأ صباح السبت. ويقدر ما

كان وجودهم يسبب لها من البهجة والتعب فإن سفرهم كان يترك وراءه حالة من الفراغ.

لفت نظرها أن الطريق كان خاليا. لم تكن ثمة إشارات تتوقف فيها السيارات على شكل طوابير ولا زحام على الأرصفة، والمشاة لا يسدون عين الشمس، كانت تسمع أن الإشارات والزحام يجعلون المسافة من باب الحديد وحتى البيت تأخذ من الوقت أكثر من الوقت الذي يحضرون فيه من البلد. وأحيانا يصل إلى الضعف.

الركاب القليلون كانوا يتكلمون. وهل هناك غير الزلزال للكلام عنه؟ وإن كانت قد عجزت عن الاستماع إلى ما يقال؛ بسبب صوت الأتوبيس. ولأنه لم يجلس بجوارها أحد. اختار كل راكب كرسيًا في أبعد مكان عن الكرسي الذي يجلس عليه الآخرون.

كان كل واحد عنده قصته الخاصة عن الزلزال. سواء في منزله أو مكان عمله. وكان يقدم الكثير من التفاصيل عما جرى له. ويا حبذا لو كانت هناك أعاجيب وحكايات تفوق الخيال الإنساني. ذلك أن المآسي التي نتجت عن الزلزال لم تكن قد اتضحت بعد.

في دقائق ليست كثيرة. اقتربت من حي المنيل. كان  
المرحوم يحب أن يقول عنها جزيرة المنيل. وكان الأولاد  
يحبون مناغشته عندما يقولون له: شبه جزيرة المنيل؛ لأن  
الحي يتصل باليابسة من أحد النواحي، كانوا يعرفون أنه  
على حق ولكنها مناقشة والسلام.

لم تنظر في الساعة لحظة تحرك الأتوبيس من باب  
الحديد حتى تحسب الوقت الذي استغرقته الرحلة بالدقيقة  
والثانية، وتحسب الفارق بين الوقت في الظروف العادية،  
والوقت في هذا اليوم.

أصبحت على مشارف المكان الذي عاشت فيه معظم  
سنوات عمرها. هنا كان السوق الذي كانت تشتري منه ما  
تحتاجه من الخضر والفاكهة، منذ أن أصبح لها بيت. وهي  
تحب شراء أشياءها بنفسها. ليست من ذلك النوع من النسوان  
التي تكتب قائمة طلبات لزوجها لحظة نزوله من البيت  
صباحا حتى يعود بها عند عودته وقت الظهر. وهنا كان  
البقال الذي كانت تستبضع منه طلبات البيت. وفي مكان  
قريب من النيل. كانت حلقة السمك الصغيرة التي كانت  
تتسوق منها السمك.

نزلت بالقرب من البيت، في أقرب محطة إليه. نفس المحطة التي كانوا ينزلون فيها من قبل. عندما كانوا يعيشون هنا وفي الناحية الأخرى من الشارع. في المكان المقابل، كانوا يركبون الأتوبيس؛ لكي يذهب كل منهم في حال سبيله. كما ارتبطت هذه المحطة وتلك بحكايات تناثرت وهم يفتطرون صباحا. قبل خروج الوالد من البيت على باب الله. مصحوبا بدعواتها. أن يرزقه الله برزق عياله. والأولاد كل إلى مكان دراسته أو محل عمله. والدعوات أن يحقق الله لكل منهم ما يريد. وأن يفتح في وجهه كل الأبواب المغلقة.

كانت الحكايات تمتد على الغداء كأنها وصلة ثانية. تكمل ما قيل في الصباح. وفي بعض الأحيان تستمر الحكايات إلى العشاء. مثل مسلسلات التليفزيون. وكم من خناقات كانت المحطتان مسرحا لها، كانوا يسمعون الأصوات والصياح والصفير وهم في البيت ، ومن الشرفة كان يمكن مشاهدة جزء من المشهد الذي يجري. فضلا عما يحكيه الأولاد بعد العودة. أما الوالد الكبير فقد كان ما يحكيه عن عمله وما يجري له فيه من نوادر وحكايات وقصص تتغير كل يوم.

حاولت أن تتذكر. متى كانت آخر زيارة لها لهذه المنطقة؟ وكم مر □ على هذه الزيارة؟ وما هي المناسبة التي جاءت فيها؟ لم تستطع أن تتذكر. وهل مخها دفتر حتى تتذكر كل هذه التواريخ؟

كان حجم التغيير ضخماً. بيوت قديمة اختفت. كأنها لم تكن موجودة من قبل. عمارات أقيمت، وحدائق لم يعد لها وجود، وميادين جديدة طالعها ولم تشاهدها من قبل.

جديد في كل مكان. ربما لأنها غابت أكثر من اللازم. ولولا ما جرى اليوم. ما كانت قد حضرت. إن كان التغيير قد طال البلد الصغير الذي تعيش فيه. فما بالك بأأم الدنيا؟ وإن كان ما أفزعها وأقلقها سرعة التغيير وحجمه وتسارعه.

تساءلت: هل تحضر في إحدى المرات فلا تجد البيت الذي يستأجرون شقة فيه؟ ما الذي يحول دون ذلك؟ وماذا يمنع؟ كل شيء جائز. وكل المستحيلات أصبحت ممكنة.

كانت تخاف من اللحظة التي ترفع فيها الجريدة الملوثة بالدماء عن وجه ميت. فيطالعها وجه ابن أو ابنة لها،

أو الثانية التي تمسح فيها الدماء عن وجه جريح،  
فتخرج من تحت الدماء تعرفها. لا تعرف – لا قدر الله ولا  
كان – كيف تتصرف لو حدث هذا.

وهي تمشي في الشارع من المحطة إلى البيت.  
تساءلت: هل تسرعت بالحضور؟ هل كان يجب البقاء حيث  
كانت؟ لقد شهدت هزة أرضية كبرى. لم تشهدها من قبل.  
وكان عليها أن تتحرك قبل أن تستقر الأرض من جديد؛ لأن  
الأوضاع إن استقرت سيكون من المستحيل تغييرها بعد ذلك.

توقفت. اكتشفت أن يدها اليمنى أمامها. وأن يدها  
اليسرى خلفها. قالت لنفسها: يا كسوفي، يا ندامتي. أول مرة  
أزور أولادي. دون أن تكون معي هدايا. لكل منهم هدية  
باسمه. الكل يعرف أن الوقت ليس وقت هدايا. هل كان في  
هذا اليوم وقت للهدايا؟ الفلوس هي الحل. توزع عليهم مما  
معها. حمدت الله أن معها فكة.

وقفت في منتصف الشارع، تساءلت: هل يمكنني  
التعرف على هذه المدينة التي غيرت من شكلها وأوجدت  
لنفسها إيقاعا جديدا؟ لا المعالم هي نفس المعالم، ولا الناس  
هم نفس الناس.

زحام الشوارع لم يعد له وجود. انتقل من الشوارع،  
أمام المحلات، إلى الحدائق العامة. سألت عن السبب فقبل  
لها: إن الناس تتوقع توابع الزلزال. حجه يؤكد أنه لا بد من  
توابع له؛ ولذلك هربوا من بيوتهم إلى الحدائق.

أسر بأكملها انتقلت إلى الحدائق. حيث قضت بقايا  
النهار. والليل الذي جاء بعده. ومعهم أدوات الشاي وتناول  
الطعام. البيوت التي كانت أسراراً من قبل أصبحت جزءاً من  
الشوارع. لم يشعر الناس بالفضيحة ولا معنى الستر. ذلك أن  
ما جرى قد غير كل المفاهيم.

إنه الزلزال.

.. نظرت، فرأيت البيت. حمدت الله في سري.  
 مازال البيت واقفاً، كنت أتصور أن هزة صغيرة كفيلة  
 بالقضاء عليه وجعله كومة من التراب. فما بالك بزلزال هز  
 أم الدنيا؟ من الصعب وصف فرحتي لمجرد أن البيت مازال  
 في مكانه.

إنه البيت الذي عشت فيه سنوات جميلة وطويلة من  
 عمري. حيث توجد الشقة التي عاشت فيها العائلة معاً.  
 عرفت معنى اجتماع الشمل في هذا المكان. وعندما خرجت  
 منه خرج هذا المعنى من حياتي في نفس اللحظة. ولم يعد  
 إليها إلا في حالات نادرة.

عندما اقتربت أكثر من البيت، خيل إليّ أنه هدية من  
 الماضي، فيه رائحة الزمن الجميل الذي مضى ولن تعود،  
 استعادته أكثر من مستحيلة. الصدفة وحدها هي التي جعلته  
 أول مكان أصل إليه بعد البلد مباشرة. بدا لي البيت وكأنه  
 يميل.

بيت قديم. كان هذا هو أول انطباع في الذهن. بعد أن وقعت عليه عيناى. وهل في ذلك أي اكتشاف جديد؟ عندما سكنا فيه منذ أكثر من ثلاثين سنة مضت. كان من البيوت القديمة في الحي، ولكننا أقنعنا أنفسنا بجذته. وقلنا هذا للأولاد. الذين جاءوا إلى الدنيا فيه. فوق رعوس بعضهم. واحدا وراء الآخر. ولكن مع مرور السنوات كان من الصعب إقناع الأولاد بحكاية أنه بيت جديد. بدا قدمه واضحا وسط العمارات الجديدة. والأبراج العالية التي تغطي الفضاء. وتحجب الشمس بالنهار والقمر ليلاً.

العمارات الجديدة. أكدت قدم البيت. دون أن تقصد ذلك، وأشعرتنا أن البيت من عمر الأهرامات. يبدو أن الذي بنى الأهرامات. هو الذي بنى البيت. في نفس السنة. وبففس العمال الذين بنوا الأهرامات.

كان صاحب البيت يتكلم عن ضرورة هدمه. قبل أن يقع على من فيه. كان يعيش معنا في الدور الأرضي منه. وكان يقول – دائماً وأبداً إن الذي بناه هو من بنى مصر، الذي كان في الأصل حلواني.

أصل المشكلة أننا بعد أن سكناه أصبح من المستحيل تغيير البيت. أصبح البيت مثل القبر. لا يمكن النقل منه، كنا نسمع من المرحوم عن لافتة "للإيجار" التي كانت موجودة بكثرة. ولم يعد لها وجود. وحكايات الذين كانوا يغيرون سكنهم لمجرد أن النفوس تغيرت مع الجيران. أو بسبب الكسل.

أو عدم وجود الرغبة في طلاء جدران الشقة. فيكون الحل الأسهل هو التعزيل وتغيير الشقة.

قبل أن نصل إلى مصر. ويقول زوجي إنه هنا نهاية المطاف وحسن الختام. ولن نجد أحلى من هذا المكان. كنا قد غيرنا شققنا أكثر من مرة في مدن أخرى متناثرة في بر مصر. وفي هذه المدينة كانت شقة المنيل هي الأولى. وهي أيضا الأخيرة.

وأصبح التغيير مستحيًا للبيت الذي يولد فيه الإنسان. هو الذي يزوره فيه ملاك الموت. من الرحم إلى البيت. ومن البيت - نفس البيت - إلى القبر. ثم بدأت حكاية التملك. ومن يقدر على دفع ثمن شقة؟ من بعدها انتهى الأمر. أصبحت الشقة هي قدر الإنسان ونصيبه.

بيت من بيوت الزمان القديم. يوحى بعز لم يعد له وجود. مبني من الحجارة وقطع الدبش. حوله حديقة. وله سور خارجي. وباب على الشارع. كنا نسميه باب السكة. في وسط السور. مواجه لباب داخلي. كنا نغلقه في الليل. ومع كل ساكن من السكان نسخة من المفتاح.

مشاية من الباب الخارجي إلى الباب الداخلي. كان زوجي سعيدا بحكاية البابين. كان يقول في هذه المدينة لا بد من باب يغلق في كل الأوقات. من يطرق هذا الباب لا بد وأن يكون غريبا. وغرباء المدينة لا يحملون سوى الشر. لا خير من ورائهم أبدا.

مشاية من البلاط المضلع. تصل من الباب الخارجي وحتى الداخلي. وفي الحديقة زرع أخضر. عندما كنا نسكن هنا. كان في الحديقة جرجير وفجل وكزبرة وبقدونس وبصل أخضر. لكن كل هذه الزراعات تم استبدالها بزهور. المهم وجود الزرع حول البيت من كل ناحية.

شاهدت سكان البيت يقفون في الحديقة. لم يحدث أن اجتمعوا بهذه الصورة. ما يفرقهم أكثر مما يجمع بينهم. لا بد

وأن الذي جرى هو السبب؛ ولهذا فهم يدوسون على الزرع بكل قسوة وغلظة.

كانت ابنتي تقف بينهم. شاهدتها قبل الوصول إلى البيت؛ فشعرت بالاطمئنان عليها. بداية الرحلة مطمئنة. ها هي لم تصب بسوء. لم يحدث لها أي شيء، حمدت الله في سري وشكرته. عندما يستقر بي المقام في أي مكان. سيكون أول ما أقوم به هو الصلاة: صلاة شكر. شكر الله سبحانه وتعالى.

أشكره على أن البيت لم يقع. كان البيت مصيره يقلقني منذ بداية الرحلة. هذا البيت نوع وكل البيوت الأخرى نوع آخر وأشكره على أن ابنتي مازالت على قيد الحياة. نجت من المصير المؤلم، الذي وفره الزلزال لكثير من سكان هذه المدينة.

قليل من عفش السكان معهم على الأرض. متناثر بينهم. يبدو أنهم تركوا البيت ونزلوا إلى الحديقة، إنها أكثر أمانًا من كل الشقق. لا يوجد فوقها سوى سماء الله العالية. وهل هناك من هو أرحم منها؟ في أيام تددت فيها الرحمة؟

شقتنا في الدور الأخير: الرابع بعد الأرضي. هكذا كنا نقول. حتى لا نضطر إلى القول: الدور الخامس. وبعض الأبناء كانوا يقولون إنه يقابل الدور السابع في العمارات الجديدة، يوجد متران زيادة في ارتفاع كل دور، عشرة أمتار تساوي ارتفاع دورين. كانوا يقولون إننا نغالط في الأدوار والارتفاعات. كنا نقول لهم: إن ذلك أفضل من المغالطة في أمور أخرى.

عندما كنت أقترب من البيت. وما إن شاهدته واقفاً في مكانه، حتى بدأت التفكير في عناء صعود السلم. الذي يبدو مثل الجبل في وقفته. عمري لم يعد يسعني. وصحتي لم تعد تساعدني. وقلبي الذي يطفطف ويرفرف عند أقل مجهود أقوم به سيخونني قبل الوصول إلى شقتنا. تساءلت: كم مرة سعدت السلم؟ عندما كانت هناك صحة وعافية وروقان بال. إنها أمور أهم من كل ما عداها، كنت أخذ السلمتين في قفزة واحدة.

أدركت تقدم العمر من البطء في صعوده. اكتشفت هذا عندما ضبطت نفسي أعد الدرجات. من الدرجة الأولى. وحتى الدرجة الأخيرة قبل شقتنا. وفي كل مرة كنت أصل

إلى رقم مختلف عن رقم المرة الأخرى. لا بد وأن العيب في عدي. أو قدرتي على العدد. لأن عدد الدرجات واحد لا يتغير. من غير المعقول أن تكون قد اِسِدِّقت درجة في الليل.

بعد ذلك أصبحت لا أستطيع الصعود. إلا بعد الإمساك في الدرايزين. لا أعرف كيف كنت سأصعد بدونه. وعلى الرغم من شكله الذي يبدو لامعا من بعيد. إلا أنني كنت أكتشف بعد الاعتماد عليه في الصعود، كم من الأتربة والقانورات عليه. بعضها أصبح جزءا منه. بعد أن جف وجلّد.

أتذكر أن أوبخ البواب على هذا الإهمال. من المفروض أن ينظف السلم يوم الخميس أسبوعيا. ولكنه يكتفي بدلق المياه عليه. ويتركها تنزل على أسفل ورغم هذا التصميم. كنت أنسى.

عندما بدأ الدرايزين يهتز تحت يدي. قلت إنني السبب. من يمسك به سواي؟ إمساكي به قلقله من مكانه. جعله مهددا بالسقوط. لا بد من الاعتماد على وسيلة أخرى بدلا من الإمساك به. قبل أن يطلب مني الجيران عدم الاعتماد عليه.

بدأت أستريح. وأخذ نفسي بين دور وآخر. كان الجيران يفتحون لي أبواب شققهم ويعزمون عليّ. أن أستريح في شققهم، وأن أشرب الشاي والقهوة والمثلجات. كنت أشكرهم وأقف حيث وصلت. أستند إلى الدرابزين واقفة. أو أسند ظهري إلى الحائط.

حتى التوقف لم يعد يريحني. المهم هو الجلوس. الوقوف بالنسبة لي عملية صلب حيل وصلب طول. أشعر بدقات قلبي المبهورة. أسمع دقات قلبي على قفص صدري. أسمع صوتها وأنا واقفة أحاول أن أستريح.

سمعت من أولادي. أن بعض عمارات زمان التي بناها أولاد الذوات. فيها كراسي في كل دور. من أجل هذه الراحة. والكراسي مثبتة في الجدران. وهي عبارة عن مستند من الخشب في الزاوية بين جدارين.

هل يمكن أن يبني صاحب البيت مثل هذه الكراسي؟ لو فاتحناه لرفض. الشيء الوحيد الذي يبدو مستعدا للقيام به في أي وقت – دون أن نطلب منه ذلك – هو هدم البيت. وأي طلب آخر يرفض حتى مجرد الكلام فيه.

ولو تكلمت مع السكان لكي نقيم هذه الكراسي بأنفسنا  
سيجعلون أذنًا من طين وأخرى من عجين. كله إلا دفع  
الفلوس. التي لا تخرج من الجيوب سوى بطلوع الروح.

ما إن أصل إلى الدور الأخير. إلا وتكون روحي قد  
أوشكت على الطلوع. أفتح باب الشقة بمفتاح معي. حتى لو  
كان بالداخل أحد الأولاد. لا أنتظر حتى أدق الجرس. ويفتح  
لي الباب. فهم من أجيال اللكاعة التي لا تسعف مكروبا ولا  
تريح متعبا.

أفتح الباب. أضع قدمي على أرض الشقة. أوشك أن  
أجري إلى أقرب مقعد في الصالة. أجلس عليه. أشعر أنني  
ولدت من جديد.

عندما كنت أقترب من البيت. فكرت في مشكلة  
الصعود. كنت متعودة على هذا الأمر. والتعود على شيء  
نصف الطريق للقيام به. منذ متى لم أصعد هذا السلم؟ الأمر  
الآن أكثر صعوبة. قد لا أستطيع الصعود وأنا غريبة عن  
السكان. من سيفتح لي باب شقته؟ كنت أخجل من الدخول  
وأنا أعيش بينهم. فماذا أفعل بعد أن أصبحت غريبة؟!

أن أصعد السلم في المرات السابقة. الحل هو إرسال ابن أو ابنة البواب إلى الشقة. سأضع في يده جنيها. حتى يسعد بدلاً مني. من أجل الاطمئنان على الأنسة نجبية أو الست نجبية التي تسكن بمفرده.

وحيدة ابنتي. تعيش لوحدها. في المدينة الكبيرة. وأعيش أنا بطولي في البلد. لم أعد قادرة على العودة من أجل الحياة هنا. بمجرد عودتنا إلى البلد. انفرط عقد العائلة. وتشتت شمل الأسرة. شرق من شرق. وغرب من غرب، وقبل من قبل. وبحر من بحر. ولم يبق في الشقة سوى نجبية.

عمرها يقترب من عمري. أعتبرها أختي، وإن كانت تغضب من ذلك. نجبية استمرت هنا؛ لأن الأمل في العريس الذي لم يأت كان ما يزال يراودها. لم يبرح خيالها. كان يعيش بين طيات مخها. كان الحنين إليه ما يزال يكلبش في حشاياها ويلتف حول حبة القلب. وإن لم تصرح بذلك. وهل نحن في حاجة إلى قول ما لا يجب أن يقال؟!

الناس هنا أكثر. لا يعرفون بعضهم، والفرص أكثر. والبقاء أفضل من البلدة الصغيرة، التي يعرف كل إنسان فيها

الأخرين. كل واحد أصله وفصله معلق على جنبه. كالإعلان  
عنه. عروسة بشقة والشقة في حي كان يسكنه الأغنياء، وهو  
الآن حي متوسط الحال. لم يبق للأغنياء غناهم. وعندما  
يمضي الغنى يترك بقايا وروائح العز تقول كان هنا غنى.

والشقة ترمح فيها الخيل فلا تجيب آخرها. شقة من  
شقق الزمان القديم الواسعة. البراح. التي تستوعب عائلة  
حتى ولو كانت مكونة من ثلاثين فردا. بيعة وشروة من يقدم  
عليها فهو الكسبان.

وهكذا ظلت الست نجبية. أختي وبنت عمري. قبل  
أن تكون ابنتي البكرية في انتظار العريس الذي لم ولن يصل  
إلى محطتها.

كانوا يقفون في الحديقة. متكومين حول بعضهم.  
وبينهم حالة من الكلام. التي تحولت إلى صراخ وشجار.  
وإن كان لم تصل إلى العراك بعد.

اقتربت منهم. فلم يشعر بي أحد. لم يرحب بي واحد  
منهم. وابنتي لم تجر إلي. وترتمي في أحضاني وتقباني  
وتهنئي بالنجاة من الزلزال. وتبكي على صدري ما جرى.

وأبارك أنا لها أيضا. كل الذين يقابلون بعضهم. كتب لهم  
عمر جديد غير العمر الذي كان مستمرا حتى لحظة وقوع  
الزلازل.

كان بينهم نقاش قادر على أن يأخذهم حتى من  
زلزال جديد يمكن أن يقع، ألم يحذروا الناس من توابع يمكن  
أن تتبع الزلازل الأم؟

كان صاحب البيت. يقف في منتصفهم. يبدو سعيدا.  
باضت له في العش. جاءت على الطبطاب. لو أنه هو الذي  
صنع الزلازل. لما وصلت نتائجه إلى ما وصلت إليه. انتهى  
البيت. بينه وبين الانهيار لحظات التقاط الأنفاس فقط.

هذا يومك يا وجه النحاس، من يومك وأنت لا كلام  
لك إلا عن هدم البيت. وثمان أرضه. والعمارة التي يمكن أن  
تقام مكانه "برج الروضة" هكذا كنت تحلق في سماوات  
الأحلام. وأنت تتكلم عن البرج الذي تنوي أن تقيمه مكان  
البيت.

أتى الزلازل ليحل لك مشكلة عمرك. الشقق إيجارها  
قديم. الشقة بأقل من الخمسة جنيهاً. وثمان الأرض فقط لو

هدم البيت. وبيعت الأرض ووضع ثمنها في بنك. وجلس على المقهى واضعا قدما على قدم. لأصبح أحد الأغنياء هذه الأيام. التي كثر فقراؤها. وكثر أغنياؤها أيضا وبنفس القدر.

لكنه لم يتمكن من طرد أحد من السكان. أو إقناع أحد بقبول فكرة هدم البيت. لم يكن أحدهم يسمح له بالكلام في هذا الأمر. مهما كانت الظروف.

حاول أن يستصدر قرار إزالة من الحي. ولكنه فشل. بذل كثيرا من المساعي. حتى يصدر قرار بتشريك المبنى. والإقرار بأنه لم يعد صالحا للسكنى فيه. ولأنه لم يتمكن، سعى في انصاف الليالي للحفر حول الأساس الذي بني البيت عليه. ولكن أحد السكان ضبطه. ولم ينته الأمر سوى بمذكرة في القسم.

كان يعيش في البيت مع السكان. ومعه أسرته. وهذا لم يمنعه بأن يحلم في نومه أن يقع البيت. فجأة مثل ديكور أنشئ لتصوير فيلم سينمائي. أو مسلسل تليفزيوني. مع أن تحقيق حلمه. وهو في سابع نومة ربما كان معناه أن يموت هو وأسرته. قبل السكان الآخرين. ولكنه جنون الجري وراء المبلغ الذي كان سيبيع به الأرض.

عندما انتشرت الآلات الحاسبة. اشترى واحدة صغيرة. ربما قدمها له أحد العائدين من الدول العربية هدية. آلة تعمل بالطاقة الشمسية. يعرضها للشمس فتعمل. وبعد أن تغيب الشمس تعمل بالمخزون فيها من حرارة الشمس.

كان يسأل كل صباح عن ثمن متر الأرض في المنطقة، ويذهب إلى المكاتب العقارية التي انتشرت في كل حي. ويخرج الآلة الحاسبة من جيبه. جيب جلاببه الأبيض الذي على شمال صدره. ويعرضها للشمس ويبدأ في الحساب.

يضرب مساحة الأرض المقام عليها البيت، ثم يعود ويحسب ثمن أرض البيت والحديقة معا. ويحدد الفارق. عندما أقيم البيت. كان الناس يحافظون على فكرة البناء على ٠٦% من مساحة الأرض. والباقي يخصص حديقة. أما الآن. فالناس تبني من الرصيف إلى التلطورار. لا يتركون سنتيمتر واحد. لا حديقة ولا يحزنون. ومدخل البيت يصبح محلات، وأسفله جراج. يتحول إلى محل كبير فيما بعد وخلفه مخازن.

وفي الجانبين. محلات نصفها تحت الأرض.  
ونصفها الأعلى فقط هو الذي يمكنك أن تراه. يؤجرها  
لمكوجي. ومنجد وكنترجي. وتاجر فحم ومحل للطرشي  
البلدي.

كان قد أوشك عقله أن يهجم. أصبح نصف مجنون  
ونصف عاقل. يتحرك نصفه المجنون عند الكلام عن مصير  
البيت. وما يمكن أن يعود عليه من ثمن الأرض. أما نصفه  
العاقل الذي يحضر مع خاله الطيب عندما يتقبل فكرة  
استحالة الهدم. ولا بد من بقاء البيت كما هو. ويتعامل معنا  
على هذا الأساس. وإن كان يبدأ في المحاولة من جديد:  
محاولة الهدم. إلى أن أتى الزلزال. فعل له ما لم يقدر على  
فعله من قبل. فأعطى خاله الطيب إجازة مفتوحة. حرر له  
استمارة ستة. استمارة الإحالة على المعاش. وأسألوني أنا  
عن هذه الاستمارة وما فعلته بي وبحياتي.

كانوا يتناقشون. وكان صاحب البيت يعرض عليهم  
أحد أمرين. إما أن يتركوا المكان مؤقتًا لحين بناء البرج  
الجديد. الذي سيرتفع حتى تتساوى الرءوس. الأبراج من  
شرقي البيت ومن غربه. من أمامه ومن ورائه. والحيطة

الواطية الوحيدة في المكان هي هذا البيت. من يرضي عن هذا الوضع؟ من يقبله؟!

ستكون لهم أولوية مطلقة في الحصول على شقق البرج الجديد. بعد الانتهاء من بنائه. سأله واحد من السكان: شقق بنفس شروط الشقق الحالية؟! إيجار وبنفس المبالغ المالية؟ رد عليه: عندما نصل إلى التسليم سيكون هناك كلام. لأن برجا جديدا قد أقيم. ومصاريف قد أنفقت. فهل سيتساوى الدور الأرضي بالثاني؟ بالثالث؟ ثم إنه سيكون هناك مصعد؟ والذي منه؟ وكل مستلزمات العمارات الحديثة؟

الحل الثاني أن يحصلوا على تعويض مالي. عدا ونقدا قبل أن تجف الكلمات على الشفاه. ويرحلون إلى بلاد الله الواسعة. والمبلغ الذي سيحصلون عليه منه. يمكنهم من البدء في مكان جديد. وبظروف أفضل من الظروف التي عاشوها هنا.

كان يتكلم وكان البيت قد انتهى أمره. وتم تشريكه وأنه سيقع في غمضة عين. أو بعد برهة. وعلى الأكثر غدا، والبقاء فيه أصبح خطرا على حياة سكانه. ولا بد من تشريكه فورا.

كان يستعجلهم ويوهمهم أن الوقوف في الحديقة خطر عليهم. وقد يقع البيت بين لحظة وأخرى. كان يؤكد لهم أن الشروخ أصابت البيت. وأنه ليس مبنيا بنظام المسلح. وأنه محمل على جدران، والجدران سميقة ولكنها تشققت من الزلزال، البيت سيقع سيقع. واقع واقع. قد ننتظر ساعة أو ساعتين، يوما أو يومين. أسبوعا أو أسبوعين، شهرا أو شهرين. سنة أو سنتين. ولكنه سيقع في النهاية.

ومن الذي يمكنه أن يستأمن مثل هذا البيت على حياته وروحه؟ وحياة أهله وناسه وأطفاله؟ إن البقاء في مثل هذا البيت محكوم عليه بعدم الاستمرار. ثم إن الحكومة ستقدم شقفا للذين هدمت بيوتهم بمناسبة الزلزال. هل هناك مناسبة أهم من الزلزال؟ الحكومة ستقدم. وبعض رجال الأعمال سيقدمون. بل والدول الأجنبية ستمد يدها. منذ كم من السنوات ومصر لم تعرف زلزا لابل هذا القدر من العنف؟ والدول العربية والملوك والأمراء والشيوخ ستكون لهم حصة في هذه التبرعات. التي ربما سدت عين الشمس. ولو تركوا هذا البيت. ربما كانت لهم حصة في هذا المولد الكبير. الذي ينصب في هذه اللحظة.

لم تكن المرة الأولى التي يطرح عليهم فيها هذا الكلام. قاله من قبل ورفضوه. بدأ طرحه عندما كان أبو نجبية يعيش مع أسرته في الشقة. وقد قال له ذات صباح: إلى أين سيذهب بكوم اللحم الذي يحمله على أكتافه؟! أي شقة جديدة يمكن أن تستوعبهم؟ وبأي إيجار سيسكنون؟ وهل هناك من يؤجر شقة؟ أم أن جنون التملك لم يترك شقة واحدة للإيجار؟ وأين سيجدون شقة في وسط البلد مثل هذه تمكن كل منهم من الذهاب إلى عمله ومدرسته ومعهدته وكليته بسهولة وبمواصلات تتكلف أقل القليل؟

كان والدها يرفض الكلام في هذا الموضوع على طول الخط. وكان يسمى صاحب البيت " غراب البيت " ما إن يشاهده في الصباح وهو ذاهب إلى عمله، حتى يتوقع الشر في عمله لمجرد أنه اصطحب به. ولو كان يمكنه العودة وعدم الذهاب. ما ذهب.

كان هذا هو موقف السكان الآخرين.

وإن كان الرجل الذي توقف عن الكلام – مؤقتًا – لم يعرف اليأس طريقه إلى قلبه. بدليل أنه استأنف الكلام الذي توقف منذ سنوات. وكأنه يتكلم فيه بالأمس فقط.

إلى أن أتى له الزلزال. وكأنه هو الذي صنعه. وكأنه هو الذي صلى وصام حتى يقع الزلزال. ويصبح على السكان أن يغادروا؛ لأنه أصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل البقاء في البيت.

بدون تفكير وافقت الأنسة نجيبة على تحرير عقد لها في برج الأحلام الآتي من الغيب. بينما توزع موقف باقي السكان، بين من يرغب في كتابة عقد. ومن يناقش مسألة التعويض. كم؟ وكيف؟ ومتى يدفع؟!

كان بعضهم يسأل عن فترة البناء. كم تطول؟ رد صاحب البيت إن هذا الأمر يخرج من يده. حسب التساهيل والظروف ونحن نسمع كل يوم عن أزمة العمال. البناء وعمال المحارة والمبيض والمبلط وعمال القيشاني والسباك. قال بالعربي الفصيح لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وهو عليه بالدفع. أما الإنجاز فتلك مسألة أخرى.

تكلّموا معه عن الشقق الجديدة. هل ستكون إيجارا؟ وبدلاً من أن يقول إن الإيجار راحت عليه. قال ربنا يسهل. وهل سيكون الإيجار مثل إيجار شققهم القديمة؟ قال إنه يتمنى ذلك من كل قلبه. ويتمنى أن تمكنه الظروف من تنفيذه. أم

سيكون هناك نظاما جديدا؟ هو التملك القاسي الذي لم يعد  
سواء في مصر. والذي لا يقدرّون عليه. وهل ستكون الشقق  
الجديدة في نفس وسع الشقق القديمة. المبنية في أيام الرخاء؟  
قال لهم إن الشقق الواسعة تكون متعبة في تنظيفها.  
ومع هذا سيطلعهم على الرسومات - في اجتماع مثل هذا -  
قبل البدء في التنفيذ. أما النظام. تأجير أو تملك؟ وإيجار  
بكم؟ وتمليك بكم؟ فكل هذه الأمور خاضعة للتفاوض. وقابلة  
للأخذ والعطاء. وهو لن يفعل ما يرفضونه. إنهم أهل.  
والعشرة لا تهون سوى على ابن الحرام.

كان الرجل يحاول أن يكلفتهم في الإجابات. يقول  
كلاما ليس له معاني محددة. كلام من الصعب الإمساك به  
عند اللزوم. فرصة وأنت له. كان يرد على هذا بكلمة وعلى  
ذاك بكلمة أخرى وهو يحاول أن ينهي الموقف بأسرع ما  
يمكن.

سأله أحد السكان. هل معه فلوس في التو واللحظة؟  
كان السائل يفكر من قبل في الذهاب إلى المدن الجديدة.  
اقترب سن معاشه. لماذا يهجون بعد الإحالة على المعاش؟  
عليه أن يبحث عن مكان هادئ يعيش فيه أيامه الباقية.

وقريته بعيدة. ولم يبق له فيها ولا حتى القبر. وجاء الزلزال ليحسم ترده. ليس هناك سوى الرحيل إلى المدن الجديدة. فأين هي الفلوس قبل السؤال عن قيمتها؟!.

قال صاحب البيت. إنه ليست معه فلوس. هل كان يعرف موعد الزلزال مسبقاً؟ هل كان على موعد معه؟ حتى يحضر فلوسه في جيبه. استدرك قائلاً: إنه ليس استغلالياً. ولا انتهازياً. إذا كانت أجهزة الدولة نفسها بجلالة قدرها. قد عجزت عن التنبؤ به. وهو نفسه لم ير □ في أحلامه ولا في كوابيسه هذا الذي جرى. فكيف ستكون معه الفلوس وأين يشيلها؟ إنه ليست عنده خزنة في شفته. كل ما معه عبارة عن شيكات. ولأن رصيده لا يسمح بتعويض هذا العدد الكبير مرة واحدة. سيكتب شيكات بتواريخ مختلفة. يقصد تواريخ صرف واستحقاق متباعدة.

كان الاستمرار في الصمت مستحيلاً كان لا بد من الكلام. تقدمت من ابنتي التي لم تصافحني. سألتها: ماذا ستفعل؟! تجاهلت أنني شاهدها. قالت إنها توافق على تحرير عقد في البرج الجديد. مع أن الجميع يعلم أن هذا الرجل الذي يأكل مال النبي. ينوي بعد هدم البيت. عرض الأرض للبيع.

وحكاية العقود نصب في نصب. ومن سيرر له عقدا. يبيله ويشرب ميته.

أخذتني ابنتي على جنب. وقالت إنها رحبت بفكرة عقد بشقة جديدة في البرج الجديد. الذي سيكون من مائة دور. وفي الدور أربع شقق تصل إلى ست. أربعمائة شقة. وقد تكون ستمائة، تتوقع وتحلم أن تهل على البيت الجديد. تقصد البرج الجديد. البيت راحت عليه. وراحت أيامه. من أربعمائة إلى ستمائة عائلة جديدة. حيث تهل على البرج. وجوه جديدة.

ويا ترى ويا عالم!؟

صحت فيها بصوت عالٍ. لدرجة أن باقي السكان استمعوا إليّ رغم حدة النقاش. سألتها: هل هذه الشقة ملكها وحدها؟ هل من حقها أن تتصرف فيها؟ إنها تعيش فيها كأمر واقع وبموافقة أشقائها. لكن هذه الشقة يرث فيها كل أشقائها. لقد تركوها لها. بشرط أن تتزوج فيها وتؤسس أسرة. وتظل بيت العائلة لكل من يبحث عن بيت العائلة. إذا تعرض لضيق أو لكرب.

ولكن هذا الزواج لم يتم. وبيت العائلة القديم. مازال هو الحقيقة المؤكدة. فيه بقايا عشنا القديم. ومن حق أي فرد من العائلة أن يعود في كلامه وأن يرجع إليه بصرف النظر إن كانت قد وقعت له أزمة أم لا.

أكثر من هذا. طلب أي واحد لنصيبه في الشقة. حق لا يمكن مناقشته فيه. وحكاية العقد الجديد في برج الأحلام الجديد الذي في علم الغيب. ويا ترى من يعيش حتى يتم الانتهاء من البناء الذي قد يستغرق سنوات؟ هذا إن كان الرجل صادقاً في نية البناء. وإن كانت معه الإمكانيات.

هل نسيت الأنسة نجبية كلام هذا الرجل النصاب عن نيته في بيع الأرض؟ ووضع الثمن في البنك ثم يعيش هو والأبناء والأحفاد من ريعه. ألم يقل هذا الكلام أكثر من مرة عياناً وبيئاً وعلى رءوس الشهود؟ ما الذي غيره؟ من أين يأتي الصلاح للنفوس بعد أن يفسد حالها؟ وهل ينصلح الذي ينكسر؟!.

إن كان في الأمر نصب. ستكون مصيبة. وإن كانت هناك نية تسليم الشقة الجديدة. " موت يا حمار " فإن تسليمها سيصبح موالاً. ثم نصل إلى مشكلة نصيب كل واحد من

أشقائها في الشقة المستحيلة. إنها نفس المصيبة من أول  
وجديد. وكل من يعاني من مشكلة في حياته.

ومن منهم لا يعاني؟ سيعتبر أن الشقة الجديدة أتت  
لتحل له مشكلته وسيرجع الكل في حكاية التنازل عن الشقة  
لها. وهو تنازل شفوي. هذا إن أخرجت نفسي من  
الموضوع؛ فأنا أيضا لي نصيبي.

كانت نجبية تسمعي وتوافق بهزة من رأسها. بدا لي أنها  
توافقني والسلام. أي تأخذني على قد عقلي. أهو كلام  
ابن عم حديث. لن يغيرها هذا الاستماع إليه. هل هي عادة  
الآنسة نجبية أم ستشترىها؟ تسمع كل ما يقال ولكن ما في  
ذهنها تنفذه في النهاية ومحروق الكلام. والذين يقولون  
الكلام. ما دامت ليست هناك فائدة من الكلام مع هذه البنت  
لأتكلم مع باقي الجيران. أما نجبية فلها إخوة كبار يشكمونها  
ويمنعونها. توقيعها على العقد باطل.. ويمكن الرجوع فيه  
بسهولة.

يجب علا صوتي أكثر وأنا أوجه كلامي لباقي السكان.  
قلت لهم إن البلد فيها نظام، وإن هناك بلدية هي التي  
أن تقول: يهدم البيت أم يبقى؟ صاحت نجبية في وجهي قائلة:

البداية راحت عليها. فيه الحي يا ماما أنتي مش دريانة واللا  
إيه يا نينة؟.

رفعت يدي. كدت أن أطمها على وجهها. لم تعجبني  
طريقة البننت في الكلام كانت عيناها تندب فيهما رصاصة.  
وحركات يديها فيها تزيد بجاجة وخروج على المؤلف. كما  
لو كانت البننت لم تجد من يرببها ومن يملأ عينها بعد رحيل  
والدها وسفر شقيقها الكبير. مع أنني لا أحب أن أقول إنها  
أكبر منه؛ حتى لا أجعل بختها يميل أكثر مما هو مائل.

عدت أوجه كلامي إلى الواقفين: أعرف أنني بذلك  
أخطئ كان لا بد من السلام عليهم أولاً. إنهم جيران العمر.  
وبعد السلام أهني كل منهم بسلامته من الزلزال. وأسأل عن  
الأولاد: أين هم؟ منها الله نجبية. ما فعلته هو الذي جعل الدم  
يغلي في عروقي. وما دمت قد بدأت الكلام مع السكان. ليس  
أمامي سوى الاستمرار هدفي صالحهم، والسلام يمكن أن  
يؤجل إلى ما بعد.

قلت لهم إن مجلس الحي هو الذي يمكنه أن يقرر إن كانت  
هذا الشقق صالحة أم راحت عليها؟ وهل الزلزال

أصابها بصورة تجعل السكن فيها خطر؟ أم أنهم يمكنهم  
الاستمرار فيها؟

إن صاحب الملك منذ أن ورث البيت عن أهله، هو  
لا يكف ولا يتعب من الكلام عن ضرورة هدم البيت. كان  
يتعامل معهم باعتبارهم ليسوا سكاناً. بل لوصفا يسرقونه  
تحت سمعه وبصره. بعقود محررة بموجب قوانين لا بد من  
تغييرها. هل كان يسأل أحد منكم عن إيجار في أول الشهر؟!  
إن ذلك ليس كرما منه. ولكنه كان يحلم أن يتوقف ساكن عن  
الدفع، حتى ينكسر عليه مبلغ لا يستطيع أن يدفعه؛ ويستصدر  
أمرا بطرده. ذلك أن الملائيم التي تدفع على أنها إيجار أكبر  
دليل على السرقة. فالمبلغ لا يتناسب مع أسعار هذه الأيام،  
فضلاً عن الموقع والمكان ومساحة الشقة.

كان يدعو في الليل والنهار أن يصحو فلا يجد  
البيت. وعندما كان يكتشف أنه قد يروح في داهية مع السكان  
إن استجابات السماء لدعائه. كان يعدل من دعائه ويقول: إنه  
من الأفضل أن يكون على سفر ويعود من سفره ليجد أن  
البيت كوم من الحجارة والتراب والخشب. أي كوم؟ قل هرما

رابعاً يشونه ويعرض الأتقاض للبيع أولاً. ثم يبيع الأرض بعد ذلك بالشيء الفلاني.

صحت فيهم: من قال لكم إن مصاص الدماء ينوي بناء برج ولا حتى عشة؟ إنه يقوم بعملية تسليك الفلوس - البناءون يعد لهم مكان في مصر - ويضعها في البنك ثم يلبس جلابية بيضاء وطاقيّة بيضاء برفر ف من نفس قماش الجلابية. ويضع قدميه في بلغة بيضاء سوقي، ويمسك في يمانه سبحة بيضاء، ويركب سيارة بيضاء، ويتزوج من امرأة بيضاء، ويحاول أن ينجب منها بنتاً بيضاء، ويبحث عن شغالة بيضاء، وتصبح له صديقه بيضاء.

حياة كلها أبيض في أبيض. ليس مهما أنها تكونت من دماء السكان. فهذا الأمر سيحاول إخفاءه في كل وقت. المهم عنده هو اللون الذي سيشاهده الناس المهم هو الفاترينة، أما ما في الداخل فمن قال إنه مهم؟ ويجلس كل صباح على مقهى أبيض وفي المساء يبحث عن مقهى آخر أبيض. يتحرك في عالم من البياض: لون النقاء والطهر والحب.

ويصبح مثل العواظلية الجدد. أو النهابين الجدد. من محدثي النعمة الجدد. يعيش على ريع المبلغ الذي سيقبضه

من ثمن أرض البيت. إنه حلمه القديم تجدد اليوم. كان يتكلم عنه ليل نهار. حتى قبل أن أعزل مع زوجي. ونحن نستمتع إلى هذا الكلام منه. حتى تعبنا من مجرد الاستماع إليه وهو لم يتعب من الكلام.

ناشدتهم أن يرفضوا. أن يقولوا لا لهذا الرجل الجشع. وأن يبقوا هنا حتى تحضر لجنة التنظيم من الحي. وتكشف على البيت، وتقول لهم هل يبقى كل منهم في الشقة أو يعزل منها. وإن كان البيت لم يعد صالحا للسكن فيه. فأمام رجال التنظيم أن يقوموا بعمل تنكيس له أو عمرة، أو أن يصلبوه فوق عواميد من أجل إصلاحه، ويسألوا عن مصير الشقق في هذه الحالة.

والدولة ستوفر للسكان الذين سيتركون شققهم بسبب ضرورات التنكيس شققًا بديلة. وذلك إلى حين إصلاح البيت ثم يعودون إليه بعد الإصلاح.

من هو المجنون الذي يترك مكان مثل هذا؟ شقة بالقرب من النيل؟ شقة ترى النيل؟ مثلما يقولون في إعلانات تنشر في الصحف، من يضحى بها حتى من أجل شقة في برج الأحلام؟

لم تبد عليهم ردود فعل قوية وفورية ومباشرة. كان السكان عيّنًا في الجنة والأخرى في النار، قلوبهم معي ولكن عقولهم مع ما يقوله صاحب البيت. لم ينطق واحد لكي يقول إنهم موافقون على ما سمعوه أو أنهم يرفضونه. مساكين. لم الحيرة؟ مع أن الحق بين والباطل بين. إن المصلحة واضحة، وما يضر في وضوح الشمس.

تركهم صاحب البيت واتجه إليّ عرفني، ربما عرفني منذ وصولي رفض أن يسلم علي، سألني.. أي ربح رمتك علينا؟ كنا قد استرحنا منك بعد سفرك إلى البلد.

أرحت واسترحت، ماذا أتى بك؟ لم يكن ينقصنا سوى وجودك. الآن اكتملت الأمور.

شخطت فيه. جئت لأطمئن على شقتنا وعلى ابنتي.

لا يسأل الإنسان عندما يقرر العودة إلى بيته، لم عاد إليه؟ فوجئت بأن نجيبة هي التي ردت عليّ هذه المرة، قالت لي لست في حاجة لأن يطمئن عليّ أحد اتركينا

نقرر مصير

حياتنا كما نريد.

يصفق اللص الكبير بيديه، ويقول مثل الحاوي، بعد أن تحول السكان إلى دائرة حوله: اتفرج يا سلام. الابنة لا تريد الاستماع إلى كلام الأم المجنونة.

ابتعدت عنه قليلا، جلست على السور الذي طالما جلست عليه في الزمان الخالي. شعرت بتعب مفاجئ، تساءلت، كان السؤال حادا ومدببا مثل إبرة انغرزت في نون عيني.. ماذا جرى لابنتي؟ هل جنت؟ هل أصابها خلل ما؟ إنها تتصرف فيما لا تملكه. وتقرر قرارا. عليها أن تعود إلى إختها قبل أن تفكر فيه. فهي لا تملك أن تحرر عقدا بشقة جديدة، ولا أن تتنازل عن الشقة القديمة.

لقد حضرت بالصدفة. لم تكن تعرف أنني في الطريق إليها. وهي لم تفكر في أخذ رأيي فيما هي مقدمة عليه. ماذا تفعل هذه البنت المجنونة؟ سنها ليس صغيرا ولكنها ستظل بنت بالنسبة لي حتى لو أصبحت جدة.

بدأت أصواتهم تغيب عني. تبتعد عن أذني. ولم أعد أستمع إليها واضحة. يخيل إلي أن صاحب البيت قرر أن ينهي الكلام الجماعي معهم. وأن يبدأ مساومات فردية مع كل ساكن على حدة. فهمت هذا بالنظر وليس بالاستماع. بدأ

بأضعف الحلقات. نجبية ابنتي. التي أعاملها كما لو كانت شقيقتي. أليست بكريتي؟!

أخذها بعيدا. وبدأ يتكلم معها. كان الرجل يتكلم ونجبية تحرك رأسها دلالة على الموافقة، لم تناقشه، كانت تكتفي بالاستماع. تبدو موافقة. فكرت في القيام من مكاني والذهاب إليها لكي أتكلم معها. أن أقول لها منبهة، إن ما تفعل هو الخطر بعينه. وإن الصواب هو الانتظار والارتباط مع باقي السكان. ولكن لم أجد في نفسي القدرة على القيام، ولا الرغبة في الكلام معها.

ناديت على ابن البواب. وطلبت منه شربة ماء. كان البواب وزوجته وأبناؤه يقفون في ركن بعيد. وهم يرون مصير حياتهم ومستقبلهم يتحدد. إن وافق السكان على البيع وهدم البيت، ليس أمامهم سوى الشارع. وإن تمسك بعض السكان وظل البيت قائما ومفتوحا وعمرا بسلامة. ترن فيه أصواتهم، سيظلون يعيشون في الغرفة بمنافعها المبنية خلف الحديقة وراء البيت، منذ سنوات من عمر البيت نفسه.

كان البواب يومها شابا صغيرا أعزب. في هذه الغرفة تزوج وتحت سقفها استقبل أبناءه. كان البيت وجه

خير عليه. شاف حظه وهو يعمل فيه. كان يتصرف كما لو كان واحدا من أهل البيت. ولكن صاحب البيت، الرجل الكبير رفض أن يحرر له عقد إيجار بالغرفة. قال إن ذلك ينقله من مجرد بواب إلى ساكن وصاحب سكن. وإن وقعت الفأس في الرأس لن يضمن احد إعادته مرة أخرى إلى عمله كبواب.

وبعد أن مات صاحب البيت الكبير، فإن أولاده أصروا على نفس الموقف، وها هو يقف. لا يعرف ما هو مصيره. جرى البواب وزوجته والأولاد للسلام عليها. رأت في وجوههم لهفة من وجد من ينقذه في اللحظة الأخيرة، طلب منها البواب إلا تفرط في الشقة. ألا تستجيب لكلام هذا اليهودي. الذي يحول المحنة إلى مكسب خاص به. لم يتعظ مما جرى. لم يجد فيه سوى مصلحته وما يمكن أن يعود عليه منه. لقد كان ينتظر مثل هذا اليوم منذ زمن بعيد.

هكذا قال لي البواب وهو يوشك أن يبكي. من الذي يجري أمامه. شكالي من سلوك ابنتي. قال لي إن السكنينة سرقتها، وإنها لا تعرف مصلحتها. وإن الرجل يضحك عليها. ولن يعطيها الورقة. وإن أعطاها لها، لن يكون أمامها

سوى وضعها في الماء وشربه. على ذكر الماء والشرب  
أحسست بالعطش. كيف نسيت عطشي؟! دفع البواب ابنه  
وطلب منه أن يحضر لي الماء. قبل أن أغضض عيني جرى  
الولد وعاد، قال لوالده وليس لي. إن المياه مقطوعة. أخذ  
كوبا وجرى يبحث عن المياه في أي مقهى أو مطعم أو محل  
قريب. أو من حنفية الحريق التي لا تنقطع المياه منها، عندما  
تنقطع عن كل البيوت.

ازداد إحساسي بالعطش عندما قيل أمامي إن المياه  
مقطوعة ليتني ما تذكرت العطش. كان يمكنني نسيان حكاية  
الشر والمياه يوما. الآن من المستحيل عليّ نسيان العطش  
والشراب والمياه والارتواء؛ وصل بي العطش إلى درجة من  
الصعب وصفها.

لكن الولد عاد كما ذهب. يقول إن المياه كلها  
مقطوعة وإن الحل أن يشتري لي زجاجة مياه معدنية من  
السوبر ماركت، شاهدها مرصوفة في الثلجة والثلج يحيط  
بها. والزجاجات مغبشة من كثرة البرد. أفتح حقيبتني، أخرج  
منها جنيها ليشتري زجاجة والباقي أتركه له. هم هكذا

البوابون وأولادهم. كل كلمة وكل حركة لا بد من دفع مقابل لها. لم أنس هذا منذ أن كنت أعيش هنا.

أعاد الولد الجنيه لي. قال لي إن الزجاجة الواحدة ثمنها أكثر من جنيه، طلب منه والده أن يشتري لي زجاجة صغيرة نصف لتر، فرد عليه الولد إنها لن تكفيني، فضلاً عن أن الزجاجات الصغيرة لا وجود لها. وهكذا أخرجت الجنيه الثاني وأنا غاضبة. كم جنيتها في جيبي حتى أبعثرها بهذه الطريقة؟ عشت حتى أرى أن الماء يباع. من كان يتصور هذا؟

لقد رحم الله زوجي؛ لأنه أخذه قبل أن يرى ما أراه. هل يعرف البواب كم جنيتها أحصل عليها هي معاش المرحوم الغالي؟ والذين قرروا نصيبي من المعاش الذي يشاركني فيه بعض أبنائه، لم يدركوا أنني سأشتري الماء ضمن ما أشتريه.

ماء ثمنه أعلى من ثمن الحليب. ماء أعلى من المياه الغازية وما أكثر أنواعها.. ياه. لم أكن أتصور أن الأمور وصلت في بر مصر إلى هذا الحد؟ زمان عندما كنت أعيش هنا. كانت شربة الماء ثواب. والأزيار كانت تملأ مداخل

البيوت، وتحت الأشجار المزروعة على الأرصفة. وفي  
الحدائق العامة حتى شط النيل.

كل بيت كان أهله يقيمون سبيدًا ليقولون إن تقديم  
المياه لعابر السبيل ثواب ما بعده ثواب، كل قطرة مياه نقدمها  
لعطشان في الدنيا تقابلها سبع قطرات، يجدها الإنسان حتى  
لو كان في جهنم الحمراء.

جفت الرحمة من القلوب. وتراجعت الإنسانية من  
الصدور.. وعلني أن أشتري الماء.. رغم قرب النيل مني.  
أقول ولكن لنفسي عشنا وشفنا، لكن الولد قال لي وهو  
يخطف الجنيهين إنها مياه معدنية تعالج الناس من بعض  
أمراضهم وأوجاعهم. وإنها مياه لم تحدث من قبل. إنها  
حكاية.

بعد أن يحضر لي المياه وأشرب وأروي عطشي  
الذي لن تزويه كل مياه الدنيا. سأعطي الولد قليلاً منها؛ لأنه  
من الواضح أنه يراها فقط. سمع عنها ولم يشربها، لم تجر  
له في زور.

كانت نجبية تبتعد عني. لا أدري هل كانت تتعمد ذلك أم أنها الظروف. من المفروض أنني ضيفة عندها. وأني غريبة. وأني جئت من أجل الاطمئنان عليها، كنت أتوقع ترحيبا منها بي أكثر من هذا. وهل رحبت بي أصلاً. لقد تقابلنا كالغرباء، ثم نسيت أنني هنا، مع أنها كان من المفروض أن تعزم عليّ بشيء، أي شيء.

كنت أتصور أن نتقاسم معا هذا الوضع الغريب الذي نحن فيه، ولكنها أخذها موضوع البرج الجديد حتى من نفسها. وأنساها أنني هنا. بدت لي نجبية غريبة عني، وليست ابنة بطني، الحقيقة أنني ندمت؛ لأنني بدأت بها. ألم يكن من الأولى البدء بأحد الأولاد الآخرين؟!

عندما وقف الأتوبيس أمامي في باب الحديد، قلت لنفسي إن البدء من بيوت العائلة فال حسن. من يدريني ربما كانوا قد ذهبوا إلى بيت العائلة. البيت الذي تربوا فيه. وعاشوا تحت سقفه. وقد أقابلهم في البيت وأستريح من عناء اللف والجري. الذي عليّ القيام به. في مدينة واسعة. مترامية الأطراف.

قد تحدث المعجزة، ويلتقون جميعا بين جدرانهم وتحت سقفه. الجدران التي شاهدتهم وهم قطعاً من اللحم الأحمر. حضرت ولكني لم أجد ابنتي، ولا الشقة التي عشت فيها. ولا المكان الذي كنت أعتبر أن ابنتي تعيش فيه بشكل عابر، حتى تحل مشكلتها وتخرج من أزمته.

مسكينة نجبية. كيف جمع والدها بينها وبين نجيب في الاسم؟ لقد جاءت عاطلة من الجمال. لم تكمل تعليمها مع شقيقاتها البنات وأشقائها من الصبيان. عندما جاء العرسان إلى البنت الأصغر منها. قال أبوها: لا بد من جواز الكبيرة أولاً. وأنا التي تحالفت عليه. ألا يميل بخت البنت، وأن تلك هي إرادة الله. كان والدها يفكر في حكاياتها. وكأنه يلوم نفسه؛ لأنه لم يعلمها. سأستمع إلى كلامها وأخرجها من المدارس. كان يقول إنه كان لا بد من علامتها حتى لو كان ذلك بالقوة.

أخوتها ألقوا عليّ اللوم في عدم زواجها. قالوا لو كانت أمانة تختلط بالجيران وسكان الحي لتزوجت نجبية من زمان، أقلّ جمالاً منها ويتزوجن. أقلّ جمالاً ومعهن صبيان وبنات.. الحلاوة حلاوة الطبع. ونجبية دمه خفيف، ولكن

المشكلة أن طبعها لا يعرف إلا بالعشرة. ونحن عائلة ضد الاختلاط، الأب براوي، والأم انطوائية.

عندما التحق إخوتها بالوظائف، قالوا لو أنها اشتغلت ل جاء العرسان وراءها. أولاً؛ لأن لها دخلاً. والأهم أن الوظيفة أكبر خاطبة، وهكذا لم تفعل سوى الانتظار. كنت أقول لأبيها: علينا أن نبحث لها عن عريس. كان يقول لي مشكلتها أنها جاءت بعد زمان الخاطبة.

إن كان سن الستين هو الجرح الذي تقيح في أعماق زوجي دون أن أدري. فإن سن الخمسين كان المأساة التي هزت ابنتي البكرية دون أن أخذ بالي. عندما كانت تمشي معي. كانوا يقولون عنا أختين، وفي بعض الأحيان كانوا يقولون عني أنا الأخت الصغرى. وكنا نحول الأمر إلى نكتة ونضحك. كانت تقول إنها الأخت الكبرى لي. وكانت تحكي أن الفارق الوحيد بيننا هو أنني خُفّت، شجرة وطرحت وأثمرت أكثر من مرة. أما هي فتقول عن نفسها أن خبيتها دكر.

كانوا يقولون: إن سن الخمسين هي السن التي تفتتح فيها حياة الإنسان على احتمالات لا حدود لها، تختلف عما

سبقها. ولكنها كانت خاتمة المطاف. ونهاية العمر لابنتي.  
أكثر من هذا كانت بداية النزول إلى منحدر العمر الأخير.  
أصبحت نجبية مثل حصاة وقعت من فوق الجبل. وأصبح  
من المستحيل وقف تدهورها. كان الاستمرار أسهل شيء  
بالنسبة لها. أما التوقف – حتى إن قدرت عليه – فقد أصبح  
مستحيلاً

شربت الماء الذي أحضره ابن البواب. كان ما  
شربته أقل من النصف. فكرت في الاحتفاظ بالزجاجة معي.  
أواجه بها احتمالات يوم لا أعرف عنه أي شيء ولكن  
نظرات الولد ابن البواب كانت تصعد وتهبط مع تفاحة آدم  
وهي تصعد وتهبط في زوري.. أعطيته ما بقي من الماء.  
تعامل معه كما لو كان دواء. أخذ قطرة صغيرة وبدأ  
يتذوقها. مسكين. وهل هناك أحلى من ماء النيل؟

كنت أستعد للمشي وأنا أفكر في حالها. قبل هذا اليوم  
كنت أقول عنها إن بختها مائل. وها هو البخت المائل أصبح  
يسكن في البيت المائل "ما جمع إلا ما وفق".

هذه البنت لها أخوة رجال. الرجل العاقل فيهم غير  
موجود. الباقون فيهم الكفاية. سيتصرفون معها. سأحكي لهم

ما جرى وما حصل. لا فائدة من محاولاتي أنا معها. أما صاحب البيت فلا بد من تحرك أخوتها ضده. وعندما أعود إلى البلد سأخرج عقد الإيجار الذي حرره والد صاحب البيت باسم المرحوم، ربما احتجناه في الأيام القادمة.. من يدري؟!.

.. كان مشوارها الأول إلى بيت المنيل هو المشوار الوحيد الذي قامت به من الذاكرة، تعرف المكان جيدا، اسم الشارع، ورقم البيت، والعلامات التي يمكن أن تقودها إليه. محفورة في الأعماق بعدد السنوات التي عاشتها فيه. أما باقي المشاوير فكانت تعتمد على نوتة معها.

فتحت حقيبة يدها. أخرجت النوتة. ستبدأ قراءة العناوين. انتهت الرحلة التي من الذاكرة. ولا بد من دليل. والدليل هو النوتة الصغيرة. أهم ما في حياتها. تفتح النوتة. تحاول القراءة. تخرج النظارة الطبية. نظارة القراءة. وتلبسها. أول مرة تضعها على عينيها في الشارع. نظارة على عيني امرأة. يا عيب الشوم. تلبسها في البيت نعم؟ ولكن ليس في حضور أحد من الغرباء؟

تعاود قراءة العنوان بصوت عالٍ هذه المرة. السيدة زينب. القاهرة، ٥٦٢ شارع بورسعيد، تطوي النوتة، تشيلها مكانها. تقول بصوت سمعته جيدا: استعنا على الشقا بالله. تدعو وهي تنظر إلى السماء: اللهم أعني على ما أنا مقبل

عليه. فكن لي خير المولى وخير النصير أمين يا رب العالمين.

فكرت في العودة إلى بيت العائلة؛ لكي تسأل ابنتها نجية عن أشقائها وشقيقتها، يا حسرتي، تسألها عن شقيقتها الوحيدة فالثانية ليست في مصر. ربما تعرف أخبارهم منها. يطمئن قلبها الملهوف على الأبناء تسمع ما يمكن أن يكون تصبيرة قبل أن تصل إليهم. قد يحضر أحدهم ويأخذها بدلا م البهدلة التي ستعرض لها. منظر الابنة الواقفة في حديقة البيت جعلها لا تجرؤ على العودة إليها. قالت لنفسها لو فكرت أن لها أخوة. ما كان هذا هو حالها.

تركتم الست محروسة عبد الحي الحلواني. ومشيت دون أن يشعر بها أحد من الواقفين. لم تمسك فيها ابنتها. ولم تعزم عليها أن تبقى معها على الخير والشر معا. الوحيد الذي اقترب منها كان البواب، وداعها، وكان بجواره ابنه سعيدا بالمياه التي في يده.

هل أخطأت بتركها ابنتها واقفة في الشارع؟!!

وهل كانت تملك غير هذا؟! سألها البواب بلهفة  
وجزع: ستتركهم لمين؟ بقاؤها كان صمام أمان لهم ضد  
فكرة هدم البيت. لو بقيت لوقفت الأمور عند الحد الذي  
وصلت إليه، لم تكن عندها رغبة في البقاء. وراءها مشاوير  
كثيرة عليها القيام بها.

أول القصيدة كفر. بداية الرحلة لا تشجعها على  
إتمامها والقيام بباقيها. لكن لا مفر. أنت وعليها أن تكمل  
مشوارها، مازال هناك أبناء آخرين لا بد من الاطمئنان  
عليهم، فكرت: هل ستعيش نجبية في هذه الحديقة إلى الأبد؟  
وهل سيضحك عليها صاحب البيت؟ كان والدها.. يقول عنه  
أبو الكباير لاستعداده أن يفعل أي شيء. وكل شيء، طالما  
أن هناك مصلحة. هل سيبيع لها الوهم والخيال؟ ويؤجر لها  
الترام؟ إنها تبدو مستعدة لأن يضحك عليها أي إنسان؛ جريا  
وراء السراب الذي يملأ خيالها.

فكرت الست محروسة في العودة إلى الأنسة نجبية.  
ولكن تعود لمن؟ البنيت قالت لها بصريح العبارة. لا دخل لها  
فيما لا يعنيها. طلبت منها ألا تحشر نفسها في مثل هذه

الأمر. وجعلت الناس يضحكون عليها.. لو عادت لن تسمع منها كلمة واحدة تبل الريق.

أختها هم الذين سيمنعونها من التصرف في طوبة واحدة من طوب الشقة. والتوقيع على أي ورق للحرامي صاحب الملك. ثم إن الشقة مازالت باسم الأب. لم يتم التصرف في التركة. المعاش فقط هو الذي جرى تقسيمه على من يستحقونه. هي تتصرف فيما لا تملكه. هذا ما جرى. أي تصرف من حق الرجل الكبير الذي مات وانتقل إلى ورثته. ولا بد من إعلان وراثته يحدد نصيب كل منهم في الشقة.

تراجعت عن فكرة ترك الشقة بما فيها لنجبية. كنصيب لها، باعتبار أنها الوحيدة في البنات التي مال بختها، هذا خطر، لو تركوها لها أسلمتها للرجال بدورها. ومن سيلهف الشقة سيضحك عليها. وتقع نجبية في قرابيزها.

فكرت أن تعود لها. وتخبرها بهذه الفكرة الجديدة. ولكنها كانت متعبة، وكانت تريد مكانًا من أجل الجلوس فيه. تخلع حذاءها وشرابها.

وتقلع البالطو الأسود الذي تلبسه في هذا الوقت الذي ليس باردا من السنة. وأن تفك الطرحة السوداء. التي تضعها على رأسها. وأن تجلس وأن تمدد طولها في مكان فسيح.

كانت تتمنى أن تفعل هذا عند ابنتها، وكانت تحلم لو أن تليفونات مصر الداخلية توصل الناس ببعضهم؛ لتطمئن على باقي الأخوات من عندها بدلا من اللفة الجهنمية. التي عليها القيام بها، لكن ابنتها الشعنونة كانت قد اقتربت من حافة الجنون. ولم يعد الكلام معها مجديا. ولا أن يجعلها تتواصل معها.

حتى فكرة الصعود إلى الشقة، بدت مستحيلة، لم تجرؤ حتى أن تفكر فيها. الكل في الحديقة. ويقولون إن أصغر هزة ستجعل البيت كومة من التراب.

وقفت عند رأس الشارع. نسيت أنها استخرجت عنوان ابنها القاضي الذي يسكن في السيدة زينب. كيف ذهب ضميرها إليه؟ سألت أحد الواقفين. أيهما أقرب تل العقارب أم السيدة زينب؟ طلب منها أن تسأل غيره. ذلك أنه غريب مثلها عن البلد قالوا لها إن تل العقارب في الطريق إلى السيدة. هو أولاً. وهي بعده. القلب وما يريد. القلب له أحكام

لا تسيطر عليها. إذن الدور على ابنها المسكين. الذي وقع من قعر القفة. يعيش في مكان قريب من بيت العائلة. ضحكت في سرها وهي تقول لنفسها بيت العائلة. الذي يجب أن يظل مفتوحا للجميع: أين هو البيت؟!

أوشكت أن تتساءل: وأين هي العائلة؟ ولكنها بلعت السؤال. كتمته،؛ لأنها لم تشأ أن تطل على الجحيم القادم. وهي في هذا الوقت المبكر من رحلتها.

وقفت تفكر أي المواصلات تركب؟ قالت لنفسها من المتعوس إلى خايب الرجا. يا قلبي لا تحزن. ليس بعد الظلم كفر. إن كانت نجبية لم يظلمها أحد. فهل يمكن قول هذا عن ابنها الذي تذهب إليه بعد قليل؟ إن كانت نجبية قد ظلمت نفسها أو ظلمها قبحها. لا إن كلمة القبح أكبر من ثقيلة. لتقل ظلمها عدم جمالها. فإن هذا لم يحدث بالنسبة لابنها. الذي تفكر في الذهاب إليه لأول مرة. إن كان شكل نجبية خلقة ربنا ولا اعتراض على ذلك. فإن جمال الروح الذي كان يتحدث عنه أبوها من الممكن أن يعوض جمال البدن. الذي حرمت منه ابنتها البكرية.

سألت نفسها، ومن المسئول؟ ذلك أن الأبناء الآخرين لم يكن لهم دور في الأمر، فكلهم جاءوا بعدها. سألت عن المواصلة التي يمكن أن تذهب بها إلى تل العقارب الجواب يبدو من عنوانه. والذي يسأل لا يتوه في مدينة تبدو مزدحمة بكل هذا العدد من خلق الله.

الذي سألته: نظر لها من فوق لتحت. قاسها بنظراته. وقبل أن تبدي استغرابها من نظراته. قال لها ستمشين كثيرا. وأنت ست كجارة. الأتوبيس الوحيد الذي يمكن أن تركبه يوصلها إلى شارع قصر العيني. ثم تمشي على قدميها من مستشفى أبي الريش للأطفال إلى تل العقارب..

- خذي تاكسي يا أمي.

- بكم؟!!

نظر لها مرة أخرى:

- إنت وحظك.

شرح لها. إنه لا توجد في هذه البلاد قواعد. عدادات التاكسي أصبحت للزينة. ديكورات معلقة فوق تابلوهات السيارات. ثمة اتفاق ضمني بين الجميع. على أنها لا تعمل.

قال لها: إن وجدت تاكسيا يركب فيه راكب واحد. ربما كان سائقه من النوع الذي قد يرق قلبه لحالتها. فتركب معه مشوارها لا يتعدى الجنيه بالعداد. ولكن اعلمي حسابك إن الرقم قد يصل إلى الخمسة جنيهات كحد أدنى.

حسبت في عقل بالها المبلغ الذي معها، أدركت أن أمامها مشاوير كثيرة. عليها القيام بها. المشوار طويل طويل. وعليها أن تقتصد في فلوسها. لو كان المشوار واضحا في ذهنها أو أنها قامت به من قبل لعرفت رأسها من رجليها. ثم إن هذه الفلوس لا بد وأن تكفيها في رحلة العودة على البلد. ومصاريف الأيام الباقية من الشهر. وهي أكثر من النصف.

انتظرت طويلاً حتى جاء الأتوبيس. الذي أوصاها الشاب أن تركبه حتى شارع القصر العيني. جاء الأتوبيس نصف مزدحم ونصف خالٍ. ركبته، كان الكمساري يتكلم مع السائق. وكان الصعود من الباب الأمامي، والنزول من الباب الخلفي، طلب منها الأجرة قبل أن يسمع كلامها. سألته عن ثمن التذكرة سألتها: هل تركب الأتوبيس لأول مرة؟

قال السائق ساخرا: ربما نزلت من المريخ ساعة الزلزال. قالت: إنها لم تتركب أتوبيسا منذ سنوات. نظر إليها باستغراب.

قال لها الكمساري: الأجرة ٥٣ قرشًا. انشرخ وجهها من الدهشة بلعت ريقها وهي تقول: كم تغيرت يا مصر؟! عموما هي لم تغب يوما وليلة فقط. غابت أطول ما ينبغي. ولأن فلوسها كلها مجمدة. ليست من أهل مصر حتى تفك فلوسها بدلا من الضحك عليها بحكاية الباقي. دفعت جنيها. كل ما معها جنيهاات. من المؤكد أن أزمة الفكة التي كانت في مصر عندما عزلوا منها إلى البلد ليست مستمرة حتى هذه اللحظة.

فوجئت بالكمساري يكتب لها الباقي على ظهر التذكرة. تجاهلت ما يقوم به. وسألته عن الباقي. فأخرج لها جيوبه ويده كانت كلها جنيهاات. قال لها إن هذا المشوار هو الأول في وريدته. سألته عن مصير الباقي قال لها إن توفر الباقي قبل نزولها. سيعطيه لها. وإن نزلت قبل توفره؟! هي التي سألت. قال لها. تذهب إليه في أول الخط. أو في آخره.

وأمامها ثماني ساعات هي وقت الوردية. وسيعطيها الباقي بموجب توقيعه لها على التذكرة.

قال لها السائق: الذي يبدو أنه يقسم البواقي مع الكمساري. إن هذه التذكرة من لحظة نزولها. تعد إيصالاً على الهيئة تطالب بقيمة المبلغ المدون فيها وهو ٥٦ قرشاً. لم تعلق بكلمة واحدة.

كانت ترغب في سؤالهما. قبل حكاية ثمن التذكرة هذه. عن المحطة التي ستنزل فيها. قالت لهما إنها تريد النزول عند مستشفى أبي الريش قال لها السائق. إنه ليست له محطة بالقرب منها.. ومع هذا سيحاول أن ينزلها في مكان تمشي منه أقل القليل. سألت بلهفة عن هذه المسافة. قال في صوت واحد: محطة أتوبيس. سألتها الكمساري عن المكان الذي ستذهب إليه بعد ذلك. انكسفت من قول تل العقارب. فقالت إن المكان قريب من مستشفى أبي الريش. مع أنها لم تكن تعرف موقعه من المستشفى.

ليس بعد الظلم كفر. هل معقول أن هذه هي المرة الأولى التي تذهب فيها إلى ابنها؟ ودليلها الوحيد ورقة فيها العنوان الذي نقلته من ورقة فيها إلى النوتة التي لا تفارقها.

فعلا، لقد ظلموا هذا الابن كثيرا. في آخر مرة رآها فيها قال لها. في كل عائلة. لا بد من شخص يقوم بدور المظلوم. وأنا قررت القيام بهذا الدور. وأنا سعيد به. إنه الدور الذي لبسني ولبسته وتعايشت معه. المشكلة أن لكل مظلوم ظالما واحدا. ولكن لي أكثر من ظالم. كلهم ظلموني. كلكم ظلمتوني. وأنا قبلت دور المظلوم وسأمثله حتى نهاية النهايات.

حاله وهي في الأتوبيس فكرت في حال ابنها. المشكلة أنها تفكر في وقت لم يعد متاحا فيه إنصافه. أو أن تعدل المايل. نسيت أن تحضر معها خريطة لمدينة مصر أو القاهرة، كما يسميها أولاد البنادر الذين يعيشون فيها. وأن تحدد بقلم أحمر أماكن أولادها. حتى ترسم خطة سيرها. ولكن يبدو أن خطة السير تتم بشكل معقول بدون خريطة.

عندما نادى عليها الكمساري والسائق معا. وطلبا منها الاستعداد للنزول في المحطة بعد القادمة. كانت قد مرت على محطتين. والباقي محطتان. أربع محطات لهف فيها الكمساري جنيها. كل محطة بربع جنيه، لو كان حيلها لم ينهد. ولو كانت ما تزال قادرة على المشي. لسارت على

قدميها ولوفرت الجنيه لوقت صعب لا بد وأنه قادم خلال هذا اليوم.

مسكين يا نادر عملت سمكري سيارات. يشعر إختوك بالعار منك. يتيرون منك. الصبيان قبل البنات. يحاولون التعامل معك. كما لو أنك لم توجد. ما ذنبك؟! ما جريمته؟! لم تكن تحب العلام من يومك. رفضت فكرة العلام في المدارس والكليات والمعاهد. قلت إن العلام الحقيقي في دنيا الله الواسعة. في مدرسة الله التي لا تحصل رسوما، ولا تعقد امتحانا ٍتولا تعطي شهاداتٍ في نهاية المطاف. عمل الممكن وعمل المستحيل حتى لا يكمل تعليمه. حاولوا معه. وأخلوا ذنبهم منه. أرضوا ربهم، ولم يظلموه في مسألة العلام.

واقفوه على ترك المدرسة من كثرة الغرامات التي كان مطلوب دفعها. لكنه بكى وأقسم لوالده إن مستقبله في عدم العلام. وإنه لم يخلق لمذاكرة. وإن مخه لا يستطيع التعامل مع الورق والقلم والمذاكرة. وإنهم لو تركوه يبدأ مشروعا جديدا كان ذلك أفضل له.

كان وحده – ألف رحمة ونور عليه – لا يحب الظلم. ولم يكن يحب أن يوصف بأنه ظالم. وكان يرى في إخراج نادر من العلام ظلماً كبيراً له. إنه ليس ابن البطة السوداء. هو ابن تسعة مثلهم. لم يرضع من لبن الحمير. فلم يكون أقل؟

ومع هذا كان نادر رأسه وألف سيف. أنه لن يجلس على التختة في الفصل. آخر مرة حضر إلينا فيها. في حياة أبيه. قبل وفاته. طلب من والده مبلغاً من المال مقابل عدم تعليمه. كان يتكلم بطريقة منطقية ولكن من يستطيع أن ينفذ له المنطق الذي يتكلم عنه؟.

يريد قال إنه لو أخذ حقه في التعليم مثلما حصل عليه أشقاؤه الآخرون، لأخذ مبلغاً كبيراً من المال. إنه لا سوى تعويض مالي بسيط. مقابل حرمانه من التعليم. يرغب في أن يحصل على حقه ناشف. فلوس. ومرة واحدة. وهم أخذوه شهادات ووجاهة ومراكز اجتماعية ولكن فلوسه يوم أن يحصل عليها وينفقها. لن تبقى حتى نكراها.

كان يقول إنه لو أخذ المبلغ الذي يطلبه. فهم الذين كسبوا وليس هو. وافقه أبوه على المبدأ. رغم أن نادر هو

الذي رفض التعليم. والده كان نفسه أن يعلمه. كان يتمنى أن يقول إنه ترك أولاده كلهم متعلمين. الكل تخرجوا من الجامعات. حصلوا على الشهادة العالية. كان هذا هو حلمه. كان يريد أن يفعل من خلالهم. ما لم يتمكن من فعله في حياته. ومع ذلك. فإن نادر هو الذي هو الذي رفض.

قال له أبوه. حتى وإن كان ذلك من حقا. فمن أين تأتي بالمبلغ المطلوب نادر هو الذي قال: إخوتي الذين تعلموا يدفعون لمن لم يتعلم. حتى وإن كان هو الذي رفض. قال له أبوه إنه سيعرض الأمر عليهم في أول فرصة قادمة يجتمع فيها شملهم.

عندما أتوا. وكان يوم عيد. وتعهد نادر أن يتغيب في هذا اليوم عن الحضور؛ حتى يعطيهم حرية الكلام والأخذ والعطاء في غيابه. بعيدا عن الإحراج. واضطرارهم إلى قول أمور لا ينوون تنفيذها. كنوع من المجاملة.

ما إن عرض أبوهم عليهم الفكرة. حتى ثاروا. رفضوا. قالوا كلمات كان والدهم يسمعها لأول مرة تقال بين أشقاء. بعضهم قال: إن ما فعله نادر ابتزاز وقال آخر: شغل نصابين. والثالث قال: مبدأ خطير ومرفوض. لو قررناه لن

ننتهي من هذه الحكاية. إن الفرص لا تأتي للناس. ولكن تؤخذ. ونادر رفض فرصة تعليمه. ماذا سنفعل له؟ وعلى أي أساس ستحسب المبلغ الذي كان سيتكلفه نادر في تعليمه؟ هل على حساب التعليم الحكومي؟ في هذه الحالة ليس له سوى ملايين. أم في التعليم الخاص؟ وهذا سيضاعف المبلغ المطلوب له أكثر من مرة. ولكن من في العائلة وضع قدميه في التعليم الخاص؟ أم على حساب التعليم الاستثماري الجديد؟ تعليم الخمس نجوم. وفي هذا ظلم للأخريين. الذين تعلموا في الحكومة. إن المسألة صعبة. ولا بد من صرف النظر عنها.

حاول والدهم إقناعهم. كان يرى في هذه المشكلة والكلام عنها. بداية شق الأسرة. وتفتيتها وضرب تماسكها. الأسرة التي أفنى عمره وهو يكونها. كان يقول عنها العزوة. ورفض كل ما كان يقال عن تنظيم الأسرة. كان يقول إن الولد الذي يأتي إلى الدنيا يحضر ومعه رزقه. كانوا يصرفون علاوات مع كل طفل.

وكان يقول عن كل مولود جديد إنه أتى ومعه ما سنصرفه عليه. كان يقول إنه سيمضي من الدنيا وهو مطمئن أنه جمع هذه الأسرة على الحب والمودة.

كان يتكلم كثيرا. عن أنه سيموت وهو على الحميد المجيد، لا يملك من الدنيا سوى البيت الذي اشتراه في البلد، والشقة التي تعيش فيها نجبية في مصر. والقبر الذي امتلكه للعائلة في جبانات البلد. كان يقول إن كثرة الطين. وكبر الميراث وثقله تشتت الأبناء. كان يقول لزوجته. إن أول جريمة وقعت على الأرض كان شقيق يقتل شقيقه. وكانت محروسة تستبشع هذا. كانت تطلب منه أن يستغفر. وألا يلوث لسانه بمثل هذا الكلام. وألا يدوش به سمعها.

شقيق يقتل شقيقه؟! إن هذا قد يحدث. ولكن مع الأيام الأخيرة للدنيا، قبل يوم القيامة بساعات. كان والدهم يقول: الفقر حشمة والعز بهدلة. وإنه سيموت مطمئنا لأنه مات فقيرا، ولأن الفقر جعل أبناءه يحبون بعضهم؛ لأنه لم يترك ما يتعاركون حوله. وما يختلفون بشأنه وما يقيمون المشاكل الكبيرة بسبب توزيعه.

مستوى لكن يوم أن أتى إليه نادر وعرض عليه فكرة دفع تعويض تعليمه لكي يبدأ مشروعا. حتى يعيش في أشقائه. ولا يستعرون منه. ويصبح جزءا منهم. هل يرضي إخوته أن يتركوه يعيش في تل العقارب؟! هل يرضون أن يعيشوا معا في زمان واحد؟ وفي بلد واحد؟ ولم يدخل بيته واحد من أشقائه. ولا حتى أمه أو أبيه؟ أليس هذا ظلما؟!

قبل أن يعرض والدهم الأمر عليهم. كان يدرك أنهم سيرفضون. كان أمه في موافقتهم ضعيفا. وفي الليلة السابقة على عرض الأمر على أبنائه. فكر كثيرا في أن يفعل أي شيء. إلا اللجوء إلى أبنائه. لو لم يكن ينوي أن يستبدل جزءا من معاشه من أجل بيت البلد والقبر. لاستبدله من أجل نادر. وأعطاه المبلغ. فكر أن يستبدل جزءا ثانيا. ولكنه خاف أن يقل المعاش لدرجة لا يقوم بطلباته مع الحاجة. لو كان عنده ما يمكن أن يبيعه لباعه بدون تفكير.

نظر ليلتها إلى يدي زوجته وإلى صدرها. ليس من باب تذكر الإعجاب الذي كان. ولكن بحثا عن مصاع. ربما نسيه هو ونسيته العائلة معهما. حتى لو كانت قطعة ذهب

واحدة. يمكن بيعها ويجمع عليه مبلغًا من المال. ويعطيه نادر بدلاً من عرض الأمر على الأبناء.

فكر في السلف. أن يستدين مبلغًا. من المال. يمكنه أن يسدده. دون إرهاق ومتاعب. كانت المرة الأولى التي يفكر فيها في السلف.. مع أنه كان يقول دائما. إن الدين ذل بالنهار وهم بالليل. وكان يقول إننا من الأفضل أن نمد لحافنا على قد أقدامنا. بدلا من مد اليد للآخرين من أجل الفسخرة الكدابة.

لم يكن هناك بد من عرض الأمر عليهم. اختار أخف الكلمات واختصر كثيرا من التفاصيل. وابتعد عن كل ما يمكن أن يهدم الحكاية. قبل أن يصل إلى منتصف الحكاية رفضوا. أعاد الأمر عليهم ثلاث مرات ورفضوا. أو شك أن يتحايل عليهم. كأن يقول لهم إن هذا المبلغ من المال من أجله هو وليس من أجل نادر، لكن رفضهم كان نهائيا وكلامهم لم تكن فيه رجعة.

لم يشأ الاقتراب من شقة المنيل فهي موضوع مؤجل؛ وهو كان سعيدا - من جانبه - لأن نادر لم يتكلم عن الشقة. لا بالتصريح ولا بالتلميح. وأن الأبناء لم يتكلموا عن

فكرة أخذ الشقة من أختهم. تركوها - مؤقتًا - لها. ربما كانت مهرها لمن سيتزوجها، وتحل مشكلتها؛ لأن حياتها وحدانية. فردانية، في المدينة الكبيرة. كانت تكوي القلوب.

جاء نادر أباه يسأل عن النتيجة. حاول أبوه أن يؤجل الإجابة. أن يسأل، أن يماطل. أن يمد الحبال إلى ما بعد. طلب منه أن يعطيه مهلة؛ ليعرض الأمر على إخوته. لعل وعسى. ففهم أن الحكاية انتهت وأن أخوته رفضوا فكرة الدفع.

رفض نادر بدوره فكرة التأجيل. قال إن الأمر قد يحتاج أكثر من سنة. حتى يجتمع الشمل مرة أخرى. فهم الحدوتة دونما كلمات. قبل أن يترك أباه وأمه ويمشي. كرر معزوفته عن الظلم الذي وقع عليه. وعن المصيبة التي حاقت به. وعما جرى له منهما. وقال إنه لن يأتي بعد ذلك أبداً.

قال إن الظلم الذي وقع عليه. كان من أقرب الناس إليه، من أكثرهم حناذًا. الحنان المفترض. أقسم إنه سيغير اسمه ليصبح مظلوماً. سيقوم بعمل إجراءات تغيير الاسم. إن كان من حقه تغيير اسمه. فهل من حقه أن يغير أسماء أشقائه

وأباه وأمه؟ كل منهم لا بد وأن يحمل اسم ظالم. إن كان ذكرا سيحمل اسم ظالم. وظالمة إن كانت امرأة. إنه يعرف أن في العائلة أكثر من رجل وأكثر من امرأة. وفي هذه الحالة سيكون أبوه ظالم الأول. وأمه ظالمة الأولى. ويجري ترتيب باقي العائلة. أخوه الأكبر يصبح ظالم الثاني. وأخته الكبرى ظالمة الثانية وهكذا. حاول أن يخفف من وقع الكلام عندما قال: الملوك يفعلون هكذا. ونحن ملوك الفقير.

بعد الثورة والهيجان. عاد إلى هيوئه. هكذا كانت عادته. يصفو بنفس سرعة الفوران، وربما كان ذلك أسرع. بعد أن هدأ أعطى أمه عنوان بيته، وقال لها من يضمن الدنيا؟ إنه يترك لها العنوان. قال إنه يعرف أن أحدا لن يفكر في زيارته. لكنه يتركه والسلام.

من يدري؟! ربما وجدوا لقية في قلب أحد جدران شقة المنيل. قد يمتلك أحد إخوته سيارة ويحتاج لسمكرتها. وهو أولى من الغريب. وأحن من الذي لا يعرفونه. لم يأخذوا كلامه على محمل الجد. لا بد وأنه يهزر.

كان آخر ما لاحظت محروسة في ابنها نادر. دمع في عينيه. ظلت معلقة. لم تنزل. وانحناءة في ظهره. وهو

يمشي مبتعدا عنها وعن أبيه. وبعد أن أصبح بعيدا عنهما.  
وقف ولوح لها تلويحة وداع لا تدري محروسة لمن؟ لها؟ أم  
لوالده؟ أو للهواء؟!

بلغهم - بعد ذلك - أنه عمل سمكيا للسيارات، إذن  
فقد كان كلامه عن مهنة السمكرة حقيقيا. فاعتصر الحزن  
قلب أمه عليه. وشعرت بألم في معدتها. وإن كانت لم تدرك  
لم؟ ما الضرر في أن يكون سمكيا وشريفا؟ ثم توالى  
الأخبار السيئة. عرفوا أنه تزوج من امرأة " مشى ولا بد"  
امرأة من النوع البطال. قالوا راقصة. أكدوا أنها من عوالم  
شارع محمد علي.

لم يشرك أهله في موضوع زواجه. ولا عمله ولا  
مشروعات حياته. انقطعت صلته بهم. وتباعدت أخباره. وإن  
كان قد ظل له وجود في حياتهم. كأن يقول أحد أشقائه إنه  
شاهده في ميدان التحرير صدفة، وشقيق آخر يقسم إنه خطب في  
شخص في ميدان العتبة الخضراء. اتضح له بعد الخبطة  
أنه شقيقه نادر، وأنه سلم عليه. وسأله عن حاله وحال  
العائلة. وعرف منه أنه أصبح أبا. لم تكن أخباره كلها مما

يمكن أن يسر القلب، ويطمئن النفس، ولكنها كانت أخبار والسلام.

لكن أمه كانت تبدو سعيدة في كل مرة تهف عليها فيها سيرته. لسبب أنه مازال على وجه الدنيا. وأنه يحيا. ليس مهما. إن كان يحيا بشكل جيد أو بصورة تعيسة، وربما كانت أموره مائلة، لكنها كانت تحلم أن تتصلح ذات يوم.

كان لدى محروسة. إيمان صوفي ويقين مطلق، أن كل الأمور المعوجة ستصلح. ولكن السؤال كان: ومتى يأتي هذا اليوم؟! ومتى تصل العائلة إليه؟ وأين؟ وكيف يرونه؟ وهل يمتد بهم الأجل حتى يعيشوا لحظة منه؟ تلك كلها كانت أمورا قابلة للتأجيل من وجهة نظرها. لكن المهم أن هذا اليوم في الطريق إليهم.

نزلت من الأتوبيس. سألت عن مستشفى أبي الريش. أشاروا لها على مبنى كبير. وقالوا ها هي. كانت المستشفى قريبة، وإن كانت هي قد رأتها بعيدة، أبعد مما يتصورون. جهدها هو الذي صور لها المستشفى كما لو كانت على مدد الشوف. استطاعت أن ترى المستشفى طشاش. ليس بسبب البعد؛ ولكن لضعف البصر والجهد والتعب.

عليها أن تصل إلى المستشفى وتسال عن تل  
العقارب ثم تبدأ في البحث عن العنوان المدون معها. فهل  
يكتب لها رؤية ابنها بعد كل هذا العناء؟ مشيت كثيرا كم كان  
المشي متعة في الزمان الذي مضى. قبل أن يولي الشباب  
ولا يترك لها سوى الحسرات. استراحت أكثر من مرة في  
الطريق. لم تكن هناك أماكن يمكنها أن تستريح فيها. كانت  
تجلس على

التلطور. تنظف مساحة بسيطة تجلس عليها. وتمد  
قدميها أمامها.

كانت في سباق مع الوقت. تريد أن تستريح حتى  
تغفو. ولو في الشارع. كانت متعبة. ومتى لم تكن متعبة؟!  
منذ أن جاءت إلى الدنيا لم يمر عليها يوم خلا من الجري في  
الشوارع والشحطة والبعثرة كانت تعتبر أن كل ما جرى  
لها كوم. ولكن هذا اليوم كوم آخر. ربما يفوق كل ما وقع لها  
من قبل.

تساءلت: وهل إن جلست ستستريح؟! تعرف مقدا  
أنه لا راحة لإنسان في شارع. ولا حتى في بيت أقرب  
الناس إليه. لماذا لم تبق هناك؟ ومن يرد الاطمئنان عليها

يحضر إليها؟ لماذا فكرت في القيام بهذه الرحلة الجهنمية؟  
أشيطان أوحى لها بالفكرة؟ ووز عقلها عليها؟ ودفعها إليها؟  
رحلة بلا نهاية. غلطة؟! نعم. ولكن ليس أمامها سوى  
إكمالها. مادامت قد ذهبت إلى نجبية. لا بد من الذهاب إلى  
الباقيين. وما ذنب نادر بالذات حتى تظلمه في هذا اليوم؟ الذي  
أصاب الجميع الفرع فيه على أنفسهم وأهلهم. وحتى  
معارفهم.. لا بد من الذهاب إليه.

ثلاث مرات فكرت فيها في عدم إكمال مشوارها.  
والعودة من منتصف الطريق. كانت تدرك في كل مرة أن  
الصعب هو الذي ما قامت به. وأن السهل هو ما ينتظرها.  
وأن العودة أصعب من الاستمرار.

ربما عندما تصل إليه، يوصلها إلى بيت شقيقه التي  
ستزوره بعده. ولا يتركها وحدانية. ربما يمسك فيها لكي  
تبيت عنده. ولا يعزم عليه عزومة مراكبية للبقاء. ربما تجد  
أن حاله انصلحت فتسعد وتخرج من عنده مجبورة الخاطر.  
ويتبدد إحساسها بالتعب ويزول. وتستريح يكفيها أن تجده  
مبسوطا.

وصلت إلى أول تل العقارب. كأنها قلبت صفحة في جريدة أو مجلة أو كتاب. بلد أخرى غير البلد التي كانت فيها. أقل من اللحظة وأبسط من الثانية. كيف تتجاوز البيوت الفاخرة والبيوت البائسة ويتداخلان بهذه الصورة؟ الشوارع المسفلتة والشوارع التي من التراب. والهواء المكون من الذباب والعفاشة. والهواء المحمل برائحة ماء النيل والمعطر بالورد البلدي والياسمين. الذي كانت تشمه من دقائق قليلة.

نقطة موجعة ومؤلمة. وجدت نفسها في حي من الغبار والوحل. الأطفال وجوههم كتل من الذباب المتحرك. وجوه من الوحل. أخرجت النوتة التي معها. دليلها العائلي. عناوين عمرها العاطفية، سكتها التي في القلب إلى أهلها وناسها. قرأت العنوان وسألت الناس عنه.

تحركت من شارع إلى شارع. ومن شبه شارع إلى حارة. ومن حارة إلى عطفة إلى شيء من الصعب تسميته. كانت تقول كل هذا تزوير. لا الشارع شارع ولا الحارة حارة، ولا العطفة عطفة. لا بد من البحث عن الأسماء الحقيقية لما تشاهده ولما تراه.

كان الأطفال الذين حولها يتزايد عددهم ويمشون معها؛ لأنه لا يوجد عندهم ما يقومون به. وشكلها كان غريباً. والعنوان في يدها يقول إنها ربما كانت آتية من كوكب آخر. وملابسها السوداء التي لم تغيرها منذ موت المرحوم. كانت تبدو فخيمة في وسط البؤس الذي كان يحيط بالناس والأولاد والأشياء والمكان.

حفاة، عراة، على وجوههم عماص. وشعر مجلّد من الوساخة والقذارة. والملابس فوق أجسادهم تاهت ألوانها الأصلية. وأصبحت كلها أقرب إلى لون التراب والأطفال يحيون بألفة وسط كل هذا البؤس الذي يعيشون بداخله. لا يشعرون أن ثمة ما يستوجب التغيير في حياتهم.

كانت تمشي في وسطهم تمنى نفسها أن نادر لا يمكن أن يعيش هنا. إما أن هناك خطأ. أو أن هذه المزبلة تصل ما بين الحيين. معبر بين شاطئ للنيل. وشاطئ آخر للنيل. من الناحية الأخرى، لا يمكن أن يعيش خلفتها وابن بطنها وتربيتها هنا، مهما كانت ظروفه صعبة وتعيّسة.

كانت تمنى نفسها بذلك. وتتمنى لو أنه كان صحيحاً، وكانت تتوقع في كل لحظة مفاجأة من نوع ما. تؤكد لها أن

نادر لا يقبل أن يعيش هنا. لم تربه على ذلك ووالده لم يغرس بداخله ما يمكن أن يجعله يطيق البقاء في هذا المكان.

ما إن رأت سيارات كثيرة. يعمل فيها صناعية. حتى توجست وخاف. من احتمال أن نادر ربما كان يعمل هنا. ألم يقولوا عنه إنه سمكري سيارات؟ المؤكد أنه يعمل في ورشة لا يمتلكها. ألم يحلفوا لها إن رزقه يوم بيوم. وإنه لو بقي يوماً في البيت لما وجد ما يعيش به. وما يعيش في الدنيا. وإنه.. وإنه.. حتى اللحظة التي اقتربوا فيها من باب البيت. كانت تمنى نفسها بأنها لن تجد نادر. ألا يتكلمون عن تشابه الأسماء؟ ربما. قد يكون نادر آخر موجود في المكان يحمل نفس الاسم. وربما نفس الاسم. وربما نفس الشبه. ألا يقولون إن الله سبحانه وتعالى يخلق من الشبه أربعين؟ قد يكون هناك أربعين شخصاً يحملون اسم نادر وربما شبيهه.

لا بد وأن هناك مفاجأة في انتظارها عندما تقف على باب البيت. ويخرج من الداخل من يعتذر أن هناك خطأ أو تشابه في الاسم. هذا هو الحل الذي يريحتها.

أما لو وجدت نادر فإلى أين ستهرب من ضميرها؟! وإلى من؟! كيف ستبرر ما فعله به الذين أوصلوه إلى هنا؟

هو مسئول؟! نعم لكنهم يتحملون من المسئولية ما هو أكثر منه.

كان الأولاد يسألونها عنه وعن صفاته. قالت لهم اسمه بالكامل. نادر نجم الدين النجومي. لكن يبدو أن الأسماء لم تصل إليهم. سألوا عن شغلانته. خجلت أن تقول لهم سمكري سيارات. فسألوا عن ملابسه وصفاته وأوقات خروجه.

لاحظت أن طفلاً يهمس لطفل. حاولت أن تستمع لما يقوله. كان يحكي له. إن زوجته – لا بد وأنه يقصد زوجة ابنها – يقولون عنها في الحقة " هشك بشك" ورغم أنها استبعدت أو استبشعت معنى الكلمة. إلا أنها انغرست في لحمها. لم تشأ أن تفتح كلاماً مع هؤلاء الأولاد عن ابنها وعن زوجته. تفضل أن تسأله بنفسه وأن تستمع إلى الإجابة منه. فهي تعرف – منذ أن كانت تعيش في مصر – ما يمكن أن يقوله الجيران عن الجيران. زوجته هشك بشك؟ من كان يتصور هذا؟ من كان يتوقعه؟!

كانوا يتكلمون متسائلين عن أبناء له لم تسمع عنهم، ولم تعرفهم، ولم ترهم. هل خلف نادر دون أن تعرف؟ أحد أشقائه قال إنه أصبح أبا ولكنها كانت تتصور أنه يهرج.

أو يخلط الأمانى بحقائق الواقع. إذا كان قد تزوج من وراء ظهورهم. فهل هناك مبرر لأن يعرفهم أنه أنجب؟ كم كانوا بعيدين عنه. وكم كان هو أيضا بعيدا عنهم؟

بالقرب من البيت الذي أوقفوها عنده على أن بيت ابنها. لم تكن قادرة على أن ترى جيدا ما حولها. كانت تفكر في الحال الذي تركوه عليه. والحال الذي وصل إليه. هل من قلة البيوت عندهم يعيش ابنها هنا؟ هي تعيش في بيت لوحدها. تجري فيه الخيل. لا تجيب آخره، تحتاج من يؤنس وحشتها، ويبدد وحدتها، ومن يقضي معها نهاراتها الطويلة. وأخته تلهو وتعبث وتوشك أن تببع شقة واسعة. وتعيش فيها لوحدها.

كيف كانوا ينامون ويأتيهم النوم ويحلمون في الليل ويصحون مع الفجر. ونادر يمر بهذه الظروف؟ مصيبة. والأكثر أنها تكتشف الحكاية. ولكن بعد فوات الأوان.

.. وقعت الفأس في الرأس. حلت المصيبة. أوقفوني أمام بيت. القول إنه بيت يعد كذبا مفضوحا. لم يكن بيتا. كان كشكا خشيبا. وحوله أكشاك من الخشب. وكل كشك دور واحد.

الحسنة الوحيدة لهذا الكشك أن الزلزال لم يؤثر عليه. ربما كان أصحاب العمارات يحسدون سكانه. ربما كانوا يبحثون عن مثله؛ لكي يعيشوا فيه. فماذا سيفعل الزلزال لمثل هذا الكشك؟!

هل أعود من حيث أتيت؟ حدث ما تمنيت أن يكون وهما. أصبح واقعا ما توقعت أن يكون كابوسا. ثم من الذي يدريني إن الذي بالداخل هو نادر؟ حتى وأنا على الباب كان ثمة أمل ألا يكون هو. كان الأطفال يواصلون الخبط والزرع على الباب. لا يوجد جرس. ويبدو أن الخبط هو اللغة الوحيدة. وهل من المعقول أن يكون ثمة تيار كهربائي أو مياه في هذا الكشك؟!

مضى وقت طويل. قبل فتح الباب. خرجت لنا من ورائه امرأة. خارجة لتوها من نوم طويل. نوم كالموت. تنام ووجهها مغطى بالأحمر والأصفر والأبيض والأخضر. وجهه كالكرنفال، كان النوم يطل من عينيها. شعرها الأصفر الأقرب إلى اللون الناري كان منكوشًا.

كانت تلبس قميص نوم على اللحم. عندما نظرت في وجهها. كان الانطباع الأول. كما لو كانت امرأة عجوزا في السبعين، مع أنها ربما لم تصل إلى الأربعين بعد. تتأببت أكثر من مرة. كانت من ذلك النوع من الناس الذي يقضي عمره، وهو لم يشبع من النوم. جوعه الأساسي يكون للنوم.

ما يبدو من جسمها أكثر مما يستتره القميص. كان مفصلاً من قماش رمش عين الحبيب. أطلت من الباب وهي على هذا الحال. فركت عينيها. كان وجود الأحمر والأصفر والأخضر على وجهها. وهي صاحبة من النوم. يدل على أنه كان كثيفًا قبل أن تنام. هل تضع لزوجها كيلو ألوان على وجهها في البيت؟!

عندما وقع بصري عليها. تذكرت كلمتي " هشك بشك". ربما كانت من لوازم عملها. نظرت إلي. وتجولت

بنظرتها في الواقفين. في الزحمة التي حولي. كانت تنظر بدون اهتمام. وسألت: لم كل هذا الرزع والخبط على الباب بهذه الطريقة؟ لم يوقظون عباد الله من أحلاها نومة؟!

يشير الأطفال والصبيان والبنات إلي . إلى الحاجة التي تلبس السواد. يقولون لها: جاءكم ضيوف. تضرب صدرها العامر والوافر ضحكت زوجة ابني ضحكة عالية. اكتشفت في لحظة الضحك التي لم تنر وجهها أن في فمها لبانة، وأن ثمة أسنانًا ذهبية متناثرة وسط أسنانها الطبيعية. اللبانة ضخمة تطرّقع بها. بصوت مسموع. سألت نفسي: هل كانت تنام واللبانة في فمها؟! هذه أول مرة أرى فيها هذا الحال. لو حكى لي أحد عنه ما صدقته.

التعارف الأول. اللقاء الأول. السلام الأول. منذ سنوات تم الزواج غير المعلن. وهذا هو اللقاء الأول بين الأم وزوجة الابن. وزوجة الابن اسمها هاجر أمين. اسم فني. وينادونها في البيت نوسة. وفي الشغل يقولون لها ننوسة. زيادة نون. حتى حرف النون تجده هنا. عندما جاءت ابنتهم الأولى. وقرر والدها أن يبدأ اسمها بحرف النون زعلت منه.

قلت: إن في ذلك انحيازا ظالما لحروف اسمه ولكنه أصر على ذلك.

نظرت هاجر إلى حماتها فوجدت امرأة خارجة لتوها من الليل. يبدو أن الليل نسي عباءته السوداء عليها. نظرت محروسة إلى نوسة بعين حماتها. فوجدت امرأة خارجة لتوها من نوم غريب. نوم بالألوان الطبيعية. بالأحمر والأخضر والأصفر. هل من الممكن أن يكون ما يقوله أولاد الحي عنها "هشك بشك" صحيحا؟! عموما عليها أن تنتظر وترى.

سحبتني إلى الداخل. اكتشفت وأنا أمشي وراءها أن في قدميها شبشا له وردة حمراء، وأنها تطرقع به مثل الغوازي في مسلسلات التليفزيون التي لا أفعل شيئا سوى مشاهدتها كل يوم وليلة.

تأخذني إلى الصالة. ترفع الملابس والقوط والأشياء من فوق الكراسي. كل شيء مبعثر، وثمة حالة من الفوضى كما لو كان البيت يسكنه الأواب. لا توجد فيه لمسة تقول إنه يعيش هنا امرأة.

كنت أبحث عما يمكن أن يؤكد لي أن هذا البيت هو بيت ابني. في البلد مليون نادر. وقد يكون في هذه المدينة أكثر من واحد اسمه نادر النجومي. نظرت فوق الحوائط الخشبية. أبحث عن صورة معلقة له. لم أشأ أن أسألها إن كانت زوجة ابني نادر أو أي نادر آخر. قليل من الوقت وتوضح الحقيقة. وحتى لحظة جلوسي في صالة بيته " أقصد كشكه الخشبي " كانت في حبة القلب آمال ألا يكون نادر هذا هو ابني، ولكن متى تتحقق آمالنا وأحلامنا؟!

منظر الصالة جعلني أوشك أن أسألها: وماذا تفعل هي هنا؟ ما دام المكان بهذه الفوضى؟ جلست قلت من الأحسن ألا أبدأ كلامي بالانتقاد الذي يمكن أن يتحول إلى شجار.

عندما مشيت ننوسة أمامي. بدت متناقلة. محنية، كأن السنوات تحني ظهرها وتفقدنا القدرة على أن تفرد طولها. ومع هذا كانت في وجهها قوة امرأة تريد أن تهيمن على كل شيء حولها.

إلى قلت لها هروبا من الصمت الذي فرض نفسه علينا. إنني جنئت من أجل الاطمئنان عليكم، وهل حضوري

بيت ابني يحتاج إلى تبرير أو شرح؟ لم ترد عليّ. حلاوة الروح جعلتني أكمل الجملة، مع أنه من المفروض أن يطمئناهم عليّ.

وهي لم تقل سوى إنها مشغولة في البيت، لم تتكلم عن شغلها معي ونادر في الورشة. التي لم تعد تعمل. صالة ضيقة. ومع هذا تصر أن تضع فيها سفرة، لا بد أن نادر قال لها إن أخيه عنده سفره. وهم ليسوا أحسن منه. السفرة والكراسي حولها. ودولاب من المفروض إنه للفضيات. بلعوا الصالة. لم تبق منها مساحة للمشي. من يتحرك، عليه أن يلف ويدور. ويمشي بجانبه حتى يسلك نفسه في الزحام.

كان أسهل عليّ أن أشد كرسي. وأجلس عليه. بدلاً من اللف والدوران. فضلاً عن أن المشوار أنهكني. رميت الصرة التي في يدي على السفرة وشدت كرسيها وجلست عليه.

لم ترد عليّ. أمسكت بعلبة سجائرها. أين أنت يا نادر؟ كان يقول: إن تدخين المرأة نوع من الاسترجال، وإنه ضد الأنوثة، وكانت تبحث عن عود كبريت، بعد أن أصبحت السجارة بين أصابعها التي احترق آخرها من كثرة التدخين.

لم أر صفار أسنانها وطبقة الدخان التي تغطيها سوى في هذه اللحظة، والعقلة الأخيرة من كل أصبع. والأظافر. مصبوغة بلون بني يثير التقرز في النفس.

عندما لم تجد الكبريت. توقعت أن تدخل المطبخ؛ لكي تشعل ورقة من البوتاجاز. تولع بها السيجارة. ثم ترميها مشتعلة في صفيحة الزبالة. وهي لا تخشى الحريق. الذي يمكن أن يأكل الكشك في أقل من دقيقة. كشك من الخشب ونار مشتعلة. ماذا يمكن أن ننتظر أكثر من هذا؟

فوجئت بها تلم المفرش من فوق السفرة، وتخرج عود كبريت من علبة كبريت بدون شطاطة وتحكه في السفرة حتى يشتعل. منه ولعت السيجارة. ثم رمته على الأرضية قبل أن ينطفئ.

يكن أمامي سوى موقفين لا ثالث لهما. إما إن أدخل في شجار معها. ينتهي بأن أترك البيت وأمشي، أو أن أحاول أن أبدو مثل الأطرش والأهبل في الزفة، أطنش أنا لا آخذ بالي من هذه الأمور، وهذا ما فعلته.

وأنا في الطريق إلى البيت، فكرت أن أسأل عن  
الورشة التي يعمل فيها نادر وأن أمر عليه فيها. قلت لنفسى  
من المستحيل ألا يكون في البيت. في مثل هذا الوقت، الذي  
لم أكن أعرفه أنه ليس بيئًا. إنه مجرد كشك خشبي.

خاب ظني. وظهر فشلي. وعدم قدرتي على التوقع،  
يبدو أن جحيم البقاء خارج البيت في هذا الوقت أسهل من  
العودة إليه، لقد نسيت أو تناسيت كل هذا اللمعان الذي أراه  
في عيني نادر كلما نظرت إليه. دموع جفت. لمعان غريب  
كنت أعتبره دليل جمال العين. ولم أتصور أنها دموع لم تشأ  
النزول.

سألتهما عن نادر. طلبت منها أن ترسل من يخبره  
أننى هنا. اتجهت إلى الباب، نادى على أولادها الذين كانوا  
يلعبون في الشارع. ولم ينتبهوا للضيقة، ولم يعرفوا أنها  
جاءت لهم.

يدخل ثلاثة من الأولاد. ولدان وبنت. الولد الكبير  
نجم الدين. فرحت وحرزنت. ابتسمت وشكشك الدمع عينى إلى  
هنا يصبح الشك نوعا بيديها. توشك أن يتشخل جسمها.

تنظر ناحيتي. وتقول: أول مرة يغلط ضيف ويأتي إلينا.  
تكمل بصوت عالٍ: دي حادثة. أمد له يدي مصافحة.

كنت مازلت أمني نفسي أن يكون في الأمر خطأ  
ما. بل إنني أصبحت أكثر تصميمًا على ذلك. يدي الممدودة  
تطفئ الحماس في وجه المرأة التي من المفترض أن تكون  
زوجة ابني. ولا تدعوني إلى الدخول، أقول إنني والدة نادر،  
وحتى لا يكون في الأمر مجال للخطأ أعدت الاسم. اسم نادر  
بالكامل.

– والدة نادر نجم الدين النجومي.

– أهلاً.

– هل يعيش هنا؟ أم شخص آخر اسمه الأول نادر؟

– صاحب البيت. هو صاحب الاسم الطويل الذي  
نطقت به وهو زوجي ووالد أطفالي.

ولأن الشك كان ما يزال يعبث بنفسي. وكان الأمل

مازال قائماً ألا يكون هو.

– لونه مثل العسل والطحينة؟

– تمام.

– عيناہ سوداوان؟!

– فعلاً.

– عنده شامة في كتفه الأيسر؟

قالت لي بطريقة لا تقال أمام الآخرين:

– إن هذه الشامة كانت مفاجأة ليلة الدخلة التي لا أنساها.

سألتها. وهل تعرف أين تعيش عائلته؟ قالت لي: كانوا في المنيل.

كنت أشعر أن الأسئلة قد أتعبتني. وشعرت أنه لا بد وإن الإجابات قد أرهقت المرأة التي صحت من النوم لتوها. ومع هذا سألتها: ماذا تعرف عن أسرته؟

قالت لي وهي تتعمد رفع صوتها. أن له شقيقاً يعمل قاضياً. يقول: حكمت المحكمة. يقف له المخاليق لحظة دخوله قاعة المحكمة. ولا يجلسون إلا بإشارة من يده. وتقول بنفس الصوت العالي. إنهم سمعوا نسبه وأصله وفصله. ولكن أين هم أهله؟ إنهم يستعرون منه، ويخجلون من نسبه إليهم.

تقول لوالدته: الأمانة إنك تعيشين في العزبة لرعاية الأرض التي ورثتها عن المرحوم. سيتحول المشهد لمحاولة للفشر والفشخرة الكدابة. الوقفة أصبحت إعلانات كاذبة عن مستوى لم يصلوا إليه. لو كان ما قالته صحيحا لفتحنا له "أجنس" عربيات جديدة. بدلاً من بهدلة السمكرة، أو على الأقل كانت ورشة السمكرة تصبح ملكه. بدلاً من أن يعمل عند الآخرين.

في هذا الكشك الصغير الذي أراه بأمر عيد أبي يعيش نادر. وهذه المرأة المقصعة التي لو شاهدتها في أي مكان آخر لما نظرت حتى نحوها. هي زوجة ابني، وأنا حماتها.

من الجنون. لقد سمى ابنه على اسم أبيه، يحاول أن يحفظ سلسال الأسماء في العائلة، والبنت اسمها المحروسة، تأكدت منها. محروسة أم المحروسة؟ قالت لي وهي تضغط على الألف واللام: المحروسة. أضاف الألف واللام لاسمي. الذي تعود على النطق به محروسة. كثر خير، عاده العيب. لا أعرف إلى أين يمكنني أن أدير وجهي منه عندما يأتي؟

فعلنا معه ما فعلناه، ولكنه طلع ابن أصول، أكثر مما كنت أتصور عمل بأصله، يبدو أنه أفضل منا دون أن ندرك،

الولد الثاني كان اسمه نجيب، نظرت إلى نفسي كما لو كنت أحلم، الواقع واقع، والهروب منه من رابع المستحيلات.

لكن ربكم والحق، ما أحزنني في الزيارة كثير. ومع هذا أسعدني أمران، الأول أنه ملأ البيت بالأطفال. ثلاثة من الأطفال. لا يمكن أن أطلب من أحد من أبنائي أن يصل إلى رقم الأطفال الذي وصل إليه نادر، كان المرحوم زوجي ينظر إلى الأمر على أنه رسالة، ونادر زرع بيته بالخلفة، الولد سر أبيه، قد يعكر صفوي أن أمهم هشك بشك، ولكن الابن ينسب لأبيه. قد أكون متحاملة عليها ومعني بعض الحق، نحن بشر. أوجع قلبي لحد الألم أنها لم ترحب بي، ولم تعاملني بود، ولم تقدم لي شيئاً.

الأمر الثاني الذي أسعد قلبي. إن نادر كان حريصاً على أن يرش أسماءنا على خلفته. صبيان وبنات. سمي الأول على اسم أبيه. والبنت على اسمي، والثالث على اسم شقيقه القاضي، يبدو أننا لم نتمكن من رؤية نادر جيداً، لم نحدق فيه وننظر إليه بالقدر الكافي، أهملناه ولم نر كم نادر يتصرف بشكل نادر.

لقاء فاتر؟! ربما لقاء يخلو من الترحيب؟! جائز. بعد أن تأكدت أن هذا هو بيت ابني. كان علي □ أن أتقبل الأمر ولا أرفضه. ولا أحزن عليه. وأن أتكيف معه. إن الأم التي لا تعرف المكان الذي يعيش فيه ابنها لا يمكن أن تعد أما. إحساس الأم لا يكذب، وقد قال لي إحساسي: إن نادر هنا.

كله يهون أمام الاكتشاف، ثلاثة من الأبناء، متى وأين ولدوا؟! ومتى حملت فيهم هذه المرأة؟ كل هذا تم حتى دون أن نعرف، كم يقسو الزمان علينا جميعا.

وننوسة لم تعزني في وفاة حماها. المناسبة كانت بعيدة، والذي يعزي بعد الأوان إنما يجدد الأحزان، فضلت التصامت والتعاضى، لم أشأ تقلب الدفاتر القديمة، وهاجر لم تعزني؛ لأنه عندما حدثت الوفاة ذهب نادر بمفرده. والذي جاء لكي يبلغه بموت أبيه، أبلغه في الورشة ولم يحضر إلى البيت. ونادر لم يفكر في أخذها معه، وهي لم تكن حريصة على أن تذهب للعزاء. في إنسان لا تعرفه، ولا تشعر تجاهه بأي مشاعر، ونادر لم يصل حزنه إلى الذروة التي يمكن أن تعديها.

لا الست محروسة كلمت هاجر عن زواجها من نادر  
وباركت لها. ولا ننوسة عزت حماتها في وفاة زوجها. فالذي  
يبارك بعد سنوات طويلة من الفرح، يبدو كمن يسخر من  
الذين نسوا حتى فرحهم؛ لأنه لا يذكره بفرح مضى، ولا يعيد  
خلق سعادة ولّت. بقدر ما يعترف أمامه أنه لم يشاركه في  
الفرح في حينه، لذلك قررنا معا دونما كلمات، أن تتجاهل  
كلاّ منهما مناسبة الأخرى.

جلستا معا. تحاولان البدء من جديد.

بعد أن قدمت لي الأولاد. اعتذرت لهم ولها؛ لأنني لم  
أحضر معي هدايا. إن ظروف اليوم العصيب هي السبب في  
حضورى منقّضة.

قلت أكثر من مثل شعبي يصف حالي، وقلت إنني  
في نصف هدومي، وإنني مكسوفة، أوشك أن أذوب من  
الخل، كان من المفروض أن أحضر معي هدايا لهم، ولكن  
هذا ما كان.

أخرجت كيس نقودي. فتحته. مررت إصبعي بداخله  
وحاولت رؤية الفلوس قبل إخراجها. أن أحسبها قبل أن  
تخرج أمامهم، فلوس قليلة على الحفاظ عليها.

لا أضمن أن أحدا من أبنائي قد يعطيني أي فلوس،  
ولا أحب أن أذهب إلى أحد منهم وأطلب منه مليما واحدا. قد  
يتصور إن طلب الفلوس هو سبب الزيارة.

علي □ أن تكفيني الفلوس حتى موعد معاش الشهر  
القادم. لا أذكر إن كان في البيت أي فلوس، أم لا. النسيان  
نعمة، أحيانا أنسى فلوسا تقدم لي حلولا سحرية غير متوقعة  
في أوقات الأزمات.

قبضت المعاش منذ يومين. وأمامي شهر وشهير.  
شهر بطوله وعرضه، صباح اليوم كانت ذكرى المرحوم،  
خرجت إلى التراب.

وأنفقت وتصدقت، ودفعت ثمن ترتيل آيات القرآن  
الكريم، خرقة التراب أخذت في وجهها مبلغاً ليس صغيراً.

صحيح أنني أعرف المناسبة سلفاً. وأن هذا التاريخ  
مدون على حبة القلب، لكن المبلغ الذي أخذته أكبر من أي

سنة سابقة. هناك نسبة زيادة كل سنة. لكن زيادة هذه السنة فاقت كل ما عداها.

ثم جاء هذا المشوار الذي لم تعمل له أي حساب. خبطتان في الرأس توجعان. سيقولون عني بخيلة. هذه هي زيارتي الأولى، وكان لا بد من بحتره مبلغ أكبر، ما باليد حيلة، ابني الوحيد الذي يعطيني غير موجود، وأنا أفضل الموت على أن أمد يدي لأحد أبنائي أو إحدى بناتي.

لست بخيلة. ولكني فقط حريصة، ووضعني هو السبب، فالبيت الذي أعيش فيه بمفردي، يعد بيتاً مفتوحاً رغم أنني بذوري فيه. نور ومياه، حليب ومكوى وشاي وبن وسكر وخضار وفاكهة مهما كانت الكميات قليلة. يكفي أن تمد يدك في جيبك، تحاول أن تخرج بها الفلوس. حتى تطير منك كالعصافير التي كانت محبوسة.

في أيامنا التي مضت كانت الفلوس تدفئ الجيوب والمحافظ. ولكن يوجد في أيامنا عداً بين القرش والجيب. وعداء أكثر بين القرش والمحفظه.

أخرجت أقل من القليل من الفلوس. وزعتها على الأولاد. لفت نظري أن الأولاد لم يتمنعوا. لم يقولوا لا. قلت في نفسي أزمة تربية. المشكلة في الأم. كان يجب أن تربيهم وأن تعلمهم الأصول. وأن يرفضوا حتى وإن كانوا في أمس الحاجة. أن يحاولوا إظهار التمتع. على الأقل أمام الغرباء.

ربما لم يعتبروني غريبة. ولم يتعاملوا معي على هذا الأساس، ربما نظروا إليّ بوحشة. قالت لهم إنني جدتهم، أم أبيهم الذي. لم أكمل الجملة. كنت أريد أن أقول. أبوهم الذي لم يعرفني عليهم، أو يحضرهم إليّ. خفت أن أفتح الباب لعاصفة، لا أعرف كيف يمكن الخروج منها.

كيف وقع نادر في هذه الشيطانة؟ وهل أهملت في تربيته؟ هل لم أعرفه الصواب من الخطأ؟ حاولت أن أفعل هذا كثيرا، ولكن من أين أتى الخطأ؟ عاودت النظر إلى جدران الصالة، بحثت عن صورة لوالده. أو لي، أو لأحد من أخوته. أبسط ما كان يمكن أن يفعله. أن يعلق صورة والده، يحيطها إطار أسود بعد وفاته؛ حتى يشاهده الأطفال، ويعرفون أنه جدهم الذي لم يرونه وربما لم يسمعوا عنه. لم تكن في الصالة صورة لهما، نادر وزوجته ليلة زفافهما.

الصورة التقليدية للزوج الجالس. والزوجة التي تقف بجواره. وربما لم يكونا قد تزوجا على سنة الله ورسوله. من أين أتى بهذه الشيطانة التي تبدو بنت شوارع؟ لم تعرف الأصول، كيف وقع فيها؟ قديمًا قالوا أجدع الرجال يقع في أنتن النساء. وهذا ما جرى لابني طيب القلب، وقع في قرايبز هذه الإنسانة التي تبرى منها لسانها.

كان خشب الجدران كالحا. خاليا من أي رسومات فوقه. لم أستبق وأركض نحو المشكلة، لأوجل الأمور. جلست ننوسة أمامي، وضعت ساقًا على ساق، معلنة عن جسد سخي ممتلئ، وكانت تهز قدمها بطريقة عصبية، قالت للأولاد أن ينادونني نينة، كدت أن أشكرها، ولكني بلعت كلامي من جديد.

نظرت إلى زوجة ابني.

– أين نادر؟!!

– في شغله.

لا تحب أن تحضره من عمله، فهو يعمل – إن كانت أمه لا تعرف – باليومية والساعات التي يغييها عن الورشة.

يخصمها منه صاحبها، شخبطت: أين ذهبت الرحمة من قلوب  
الناس؟

دافعت هاجر عن قسوة صاحب الورشة. ولم تتكلم  
عن الظلم الواقع على زوجها. قالت إنه - أي صاحب  
الورشة - لو ترك كل واحد على حل شعره لما تم عمل في  
الورشة وما يفعله من حقه. قلت في سري: كسر الله <sup>تعالى</sup>ك،  
يا ربيبة العوالم.

عدت ألح عليها أن ترسل في طلب نادر، أمرت نجم  
الدين أن يذهب إلى أبيه. وأن يجعله يستأذن خمس دقائق،  
وهذه إشارة منها لي. إن الوقت الذي سيقضيه ابني معنا. لن  
يطول.

لتقل ما تشاء. شغل نسوان أعرفه. عندما يحضر نن  
عيني سيكون لي معه تصرف آخر، هل معقول أن تكون  
الكلمة كلمتها والشورة شورتها؟ مشى الولد، أخذ أخته وأخاه  
معهم، قامت أمهم ورائهم، سمعت همسا وشددا وجذبا وراء  
الباب في الطريقة الصغيرة التي تفتح على الصالة. لا بد  
وأنها تأخذ الفلوس من الأولاد. لن تتركهم يشترتون بها ما  
يرغبون في شرائه. فكرت في القيام والتحرك إلى حيث

يقفون. لكنني لم أحب أن تتحول زيارتي الأولى لبيت ابني إلى مشكلة.

حاولت أن أبدو كما لو كنت لا أعرف، ماذا يتم بالقرب مني. رأيت وأنا جالسة بابا صغيرا، وستارتين من قماش قديم ممزق. تاه لونهما الأصلي، لكنني ماؤت في ستارة منهما بقايا لون أحمر. وفي الستارة الأخرى، أطلال لون رمادي، ترك إشارات باهتة وراءه، خمنت أن الستارة التي كانت حمراء، وفتحت على غرفة النوم. والستارة التي كانت رمادية، تفتح على المطبخ وعفشة المياه. إن كان في هذا الكشك مطبخ ودورة مياه، ولكن ماذا عن الباب الوحيد الذي يطل على الصالة، ولا توجد ستارة عليه؟ هل من المعقول أن يكون في هذا الجحر صالون؟ وإن كان الصالون موجودا. فلماذا لم تفتحه لي؟ ربما عدتني من أهل البيت ولم تعاملني باعتباري ضيفة.

كلما أتى نادر إلينا. في زيارته الخاطفة والقليلة، كان يقول عن المكان الذي يعيش فيه: الشقة، مسكين ابني، مسكين حبة عيني، ماذا رمي به في هذا المكان الموحش

والمقبض؟ أنا لم أر سجنًا في حياتي، ولا أحب أن أراه، ولكن هذا المكان يبدو مثل السجن، وسجانه ننوسة عينه.

سمعتها تقول لأولادها.. عندما أصبحت معهم وراء الباب. وبعد أن انتهت حصة الهمس، قالت لهم بصوت عالٍ: إن البيت لا توجد فيه سوى غرفة واحدة، ينامون فيها خلف خلاف. وإنهم في ليالي الصيف الحارة ينامون في الصالة التي يجلسون فيها بالنهار. فالصيف حصيرته واسعة، كان الهدف من هذه التمثيلية أن أسمع الكلام، أنا المقصودة بالموشح الذي لا مبرر له.

الرسالة واضحة. ولكن هل وصلت؟ لن أسمع رسائل سوى من ابني؟ أما شغل النسوان فلن يصل إلى أذني. كان في كلامها مزيج من الخشونة والقسوة، سأمشي ولكن بعد حضور نادر، دعوت الله ألا تحكم عليّ الظروف بالمشي قبل اختلائي بابني، سأتجنب المرأة التي أمامي، يبدو أنها تخانق ذباب وجهها، والبعد عن التعامل معها غنيمة، كفى الله المؤمنين شر القتال.

كانت عادت ننوسة، بعد أن سربت العيال، وأخذت منهم الفلوس، ووضعتها في صدرها؛ لأن شكله بعد عودتها

يختلف عن شكله عندما قامت وراهم، جلست في مواجهتي. عيناها في عيني، امرأة متوحشة، لم يعلمها أحد الأصول، وابني مشغول بعمله. سمكري سيارات، يذهب إلى عمله من طلوع الشمس، ربما من نجمة الفجرية، من الدقة أن أقول يهرب إلى عمله، يعود منه مهدود الحيل. يكاد يسقط من طوله.

كنت أسمع صوت مضغ لبانتها عالياً. مختلطاً بأصوات آتية من الخارج، كانت الأصوات تتكلم عن الزلزال الذي لم يصل إلى هنا، وأنا في الطريق إلى الكشك، لم أشاهد أي مظاهر، تقول إنه كان هنا زلزال. إنها المرة الأولى التي أسمع فيها من يتكلم عنه.

كانوا يتكلمون في الشارع بشماتة عن بيوت الأغنياء والحرامية، التي تصدعت أو وقعت. يحكون عن الزلزال. كانوا يقصون قصة غريبة عن رجل ذهب يزني بامرأة قبل وقوع الزلزال بدقائق. فماتا معاً. في مطبخ الشقة التي كانا ينويان ممارسة الرذيلة فيها. الموت حدث من هول الهزة. فاجأتها وهما عرايا كما ولدتهما أمهما فماتا، لم يوضح الذي

يقص. لماذا في المطبخ؟ ألم يكن في الشقة غرفة نوم؟! أم أن غرفة النوم تصادف أنها كانت مشغولة؟

كنت أسمع نثقًا من الحكايات. يأتي الصوت من بعيد ثم يقوى عندما يقترب. ويبدأ في الضعف والتلاشي؛ لأن الكشك الذي يقولون عنه بيتًا. مصنوع من الخشب. كنت أجلس وكأني في الشارع، ومن الخروم التي بين الخشب. كان ضوء النهار الرمادي المكون من الغبار المتناثر يتسلل لي.

كنت أوشك أن أرى عبور الناس واضحا، وننوسة لم تتبادل معي كلمة واحدة، قالت كلمة أو كلمتين ترحيبا بي على سبيل المجاملة. لكنها كانت فاترة، لم تترك أي أثر في نفسي، كنت أهدق فيها بتركيز، أما هي فكانت مشغولة بلبانها وبالنظر إلى السقف أو الأرض.

منذ دخولي، لم تدخل ننوسة دورة المياه، حتى تشطف نفسها وتغسل وجهها وتسوي شعرها. وتنظف أسنانها من رائحة النوم؛ لتروق حالها من الأثر الذي يتركه النوم.

أوشكت أن أسألها، كيف تظل نائمة حتى ساعة العصاري. أو ربما المغربية؟ من الذي أعد الإفطار لنادر وعمل الشاي له عندما خرج في الصباح؟ من الذي جهز له الغداء؟ ومن الذي فطّر الأطفال عندما صحوا من النوم متأخرين؟ لا أعرف إن كان الولد الكبير يذهب إلى المدرسة أم لا؟ من الذي سخن الحليب وعمل السندويشات؟ كيف طاوعها قلبها؟ وتركت بيتها مبهدلاً كل هذا الوقت؟

عن نفسي لم يكن من الممكن أن يه إرب النوم ناحية عيني، طالما أن ضوء النهار موجود في الخارج. يتلأأ في الفضاء. كنت ومازلت أصحو من نجمة الفجرية. نادر يعرف هذا؛ لأنه تربى عليه. ورأني أقوم به حتى ترك بيتنا.

أصحو مع أول صياح للديك. في بيتنا القديم بالمنيل، كنت أربي دجاجاً فوق السطوح، تلك هي الميزة الوحيدة للسكن في آخر دور. وكنت حريصة على أن يكون بين الدجاج ديك، وكان الديك يصيح؛ فينشر الفزع والاضطراب بين ديوك الحي كله.

أصحو على صوته. قبل آذان الفجر. أعد الإفطار وأصنع الشاي، وأوقظ نجم من نومه حتى يصلي الفجر

حاضرا. هذا ما كنت أفعله. أنام مع أول الليل. لم أتعود على  
السهر. أستغرب عندما أجد أبنائي يسهرون وقتًا طويلاً، كنت  
أتركهم يسهرون وأنام أنا. فكل جيل عاداته التي تختلف عن  
الجيل الآخر.

أوشكت أن أسأل ننوسة، متى نامت ليلة الأمس؟  
وأين سهرت كل هذا الوقت؟ في هذا المكان الذي يبدو مثل  
الزinzانة؟ تذكرت ما قاله الأولاد الذين أوصلوني إليها "هشك  
بشك" هل تعمل راقصة؟! وإن كانت تعمل في هز الوسط  
والشخلة فلا بد وأن عملها في الليل. تتجول بين الأفراح  
والليالي الملاح. من أول الليل وحتى ظهور نجمة الفجر في  
سما الله العالية.

نادر النادر. كيف ارتضي لنفسه هذا الهوان؟ كيف  
فعلها بعيدا عنا؟ كيف لم يعد إلينا، قبل أن يقدم على هذه الـ  
لعنة؟ تضحك على ابني بالأحمر والأصفر والألوان  
الملعطة. تضعها لنادر ولغيره من مخالقي الله. ربما كانت  
جزءا من عملها. هذا الجسد ضحكت به على نادر.

النداهة خطفت نادر. الجنية طلعت له من تحت  
البحر، عروسة البحر أخذته ولم تعرده. نزلت به إلى سابغ

أرض تحت الأرض. أو سابع سماء فوق السماء. وعاشت  
معه وبه.

احترت. هل يمكن أن أفعل شيئاً لإنقاذ ابني، أو أن  
أوان الإنقاذ قد فات؟!!

جاء نادر وحده. لم يكن معه أبناؤه. نزل سلم عليّ  
بنفس حرارته المعهودة. لم تتغير. الذي تغير فيه كان شكله  
الخارجي. لم يعد ابني شاباً. رأيت شعراً أبيض في فوديه.  
حاولت أن أتذكر آخر مرة رأيت فيه فيها. كيف فاتني ملاحظة  
بياض شعره؟ أنا التي لم يكن يفوتني ملاحظة شيء.

لم يعد نادر شاباً. كما أنه لم يصبح رجلاً بعد. لم يعد  
قادراً على تحمل مسئولية نفسه. منذ أن جاء إلى الدنيا وهو  
في حاجة إلى من يرعاه. ويعرفه الخطأ من الصواب. وكان  
نزقاً متهوراً، لا يرى العواقب ولا يدرك الخواتيم، عندما يبدأ  
أي حكاية ووالده - يرحمه الله - هو الذي قال لهم اتركوه.  
من يريد أن يتعلم العوم. يرمي بنفسه في الماء دون تفكير.  
والخطر والخوف من الغرق خير معلم.

جاء بملابس الشغل. هدموم ممزقة تكشف عن أجزاء  
كثيرة من جسمه ملطخة بألوان كرنفالية ومبقعة بقاذورات  
متداخلة مع بعضها.

يمشي حافيا. ذقنه طويلة. وشعره منكوش. متعب  
لحد الموت. ومع هذا عرفت الابتسامة طريقها إلى شفتيه،  
وأنارت وجهه ضحكة بريئة هي نفس ضحكة نادر الطفل  
الذي ربيته وأعرفه كما أعرف أصابع يدي.

قبل أن يسلم علي، شكر الزلزال الذي كان السبب في  
حضورى. الحضور الذي تأخر سنوات. خمسة؟! عشرة؟!  
خمسة عشر؟! غاب فيها ابني عن عيني.  
وغبت أنا عن فؤاده.

قيال يدي. ثم قبل خدي الأيمن. وخدي الأيسر. ثم  
جبهتي. كان سلامه وقبلاته بحنان حقيقي مهما طرأت عليه  
من تغييرات، سيظل نادر هو نادر.

سألته إن كان قد اطمأن على إخوته. قال لي إنه لم  
يطمئن على أحد. سألتني من الذي يطمئن على من؟! وقبل أن  
أجيبه قال لي وهو يلوح بيده. إنه لا يريد أن يفتح معي  
موضوعات.. عاد ليتساءل: يطمئن على من؟! ولم؟! ثم إنه بعد  
الذي فعلوه معه. لن يطمئن على أحد.

وإنني لا يريد أن تسمع زوجته هذا الكلام، خيّل إليّ فيما بعد إن ذلك ربما كان مطلب زوجته. ألا يذهب إليهم أول من يحضر من العائلة. قبلي لم يأت أحد. وبعدي لن يأتي سريخ ابن يومين. وأنا نفسي لن أفكر في تكرار الزيارة. تكفي من الدست مغرفة واحدة.

بعد أن جلس، قال لي نادر، إن الزلزال فتح الشغل على الرابع أمام أصحاب محلات المفاتيح، استفهمت منه. رغم أن زوجته بدت متأففة من امتداد حبل الكلام. غريب أمر الزلزال. له وجه آخر في كل حي. وأثر مختلف في كل مكان. يبدو متغيراً عن أي مكان كان.

قال لي نادر: معظم سكان العمارات العالية. نزلوا جريا لحظة الزلزال. ونسوا أن يأخذوا معهم مفاتيح شققهم. وبعد أن انتهى الزلزال. عادوا إلى البيوت، اكتشفوا أن الأبواب أغلقت. ولا مفر من إحضار الصنایعية. من محلات المفاتيح، حتى يولفوا لها مفاتيح بدلاً من التي تركوها بالداخل.

يقول: إن صاحب محل مفاتيح السيارات. بدأ العمل من لحظة الزلزال ولم يعد إلى محله، ولن يعود قبل الغد.

قالت له ننوسة: والسيارات التي وقعت عليها البيوت والعمارات. أليست في حاجة إلى سمكرة ودوكو؟ وقبل أن يجيبها، أكدت أن سمكرة السيارات ستكون أكثر من حكاية المفاتيح. كل سيارة كانت تقف في الشارع لحظة الزلزال أصيبت، ولا بد من سمكرة ودوكو.

قال لها: السيارات التي تأثرت من وقوع العمارات، لن يبدأ أصحابها في إصلاحها قبل أيام قادمة، بعد رفع الأنقاض عن السيارات، قالت: السمكري حظه سيء. قليل البخت، لا يروج عمله حتى بعد الزلزال، قال لها: إنه لو أتت كل سيارات البر مهشمة، فالعائد لصاحب الورشة، وإن حلمه أن تكون عنده ورشة خصوصي سيظل مؤجلاً لسنوات قادمة لا يعرف عددها.

غيرت موضوع الكلام، خفت أن يدخل إلى حكاية المطالبة بالمبلغ الذي كان يطلبه: فلوس تعليمه. والتي كان يريدتها؛ كي يبدأ بها مشروعاً. لست في موقف الأخذ والعطاء. لست أنا التي قلت له لا. لو كنت أملك وقتها ما أعطيه له ما ترددت في إعطائه. فتح الكلام لن يؤدي ولن يجيب ولن تكون له نتيجة.

كلما فتح نادر موضوعا للكلام فيه قفلته زوجته ننوسة  
وذكرته بطريقة فظة بأن عليه العودة إلى صاحب  
الورشة؛ خوفًا على اليومية التي يمكن أن تضيع منه.

قال نادر: إن بيته ليس مهدها من الزلزال. يبدأ في  
الكذب علي. عندما يقول إنه اختار البيت من دور واحد،  
ومن الخشب لمواجهة هذا اليوم. كأنه مكشوف عنه الحجاب،  
كان يعرف أن مصر لا بد وأن تتعرض لزلزال أن يسكن في  
بيت من دور واحد، ومصنوع من الخشب. هو الذي خطط  
وليس صدفة ما جرى. ناقص أن يقول لي إنه هو الذي اختار  
هذا المكان، واشترط أن يكون قذرا. منقوعا في الزبالة  
والوساخة والعفاشة. ولن يعدم أن يجد سبب الاختيار وهو  
القرب من مكان عمله.

كذب علي، قال لي: إنهم منعوا مزاولة شغلانة  
السكرة في الأحياء الراقية، النظيفة والجميلة، فأتى إلى هنا  
وسكن بجوار المكان الذي كان مسموحا له بمزاوله عمله  
فيه.

ينسى أو يتناسى أنني أعرف من أخوته أنه بدأ سكنه  
وعاش هنا، ثم جاء العمل. كل ما يقوله لي كذب في كذب.

أكاذيب بيضاء. كأنني راهنته في أول الجلسة ألا يقول في جلسته سوى الأكاذيب. علي □ أن أظهار بأنني أصدقها إلى أن اختلي به، لن أكلمه بطريقة قد تغضبه أمام المرأة الغريبة أبدا. لن أجعلها تفرح فيه، لن أسعدها وهي تسمعني أشتمه. بيني وبينه كلام وحديث عندما نصبح بمفردنا.

سألته زوجته عن مدة الإذن الذي حصل عليه من صاحب الورشة. من أجل السلام على الحاجة؛ حتى لا يتأخر في العودة إليه، ويعاكسه عندما يقبض أجره آخر الأسبوع. لم يجبها. فهم من سؤلها أنها تريد دفعي للمشي بأسرع ما يمكن، رفض الإجابة عليها. بدأ غير راضٍ عن سلوكها.

بدا مغلوبا على أمره. لا يهش ولا ينش. لا يجرو على أن يشيل عينيه في ننوسة فواده التي يعتبر زواجه منها أكبر تضحية يفعلها في حياته. سألت نفسي: متى انكسر نادر؟ متى حدث له ذلك؟ في أي السنوات؟ هل كان هكذا وأنا لا أعرف؟ هل كانت هذه طباعه وأنا لم أدرك؟!

شعرت بعطش حارق. طلبت من ننوسة بق ماء. قامت متأففة. متغاضبة. أحضرت لي كوب ماء بيديها، لم يكن موضوعا على صينية ولم يكن مع الماء فنجان شاي أو

قهوة - وابني - الذي من المفترض أنه رجل البيت - ولم يعزم عليّ بشيء. ولم يأمرها أن تعد لي ما أشربه أو ما أكله. ظلت نوسة واقفة. إلى أن شربت الماء عن آخره. مسحت فمي بظهر يدي. أعدت لها الكوب الذي أخذته ودخلت إلى المطبخ ولم تخرج منه. هكذا فهمت أن الزيارة انتهت. وإن عليّ أن أمشي.

وابني من جانبه. لم يكن عنده لي سوى همبكة الترحيب والقبلات الكثيرة. لم يسألني إن كنت قد أفطرت أو تغديت، ولم يعزم عليّ بالبقاء. العزومة تكون على الغداء وأنا لست غريبة. المفروض أن يطلب مني تناول الطعام في بيته. وأن يكون طلبه حازما وجازما. بل ربما كان أقرب إلى الأمر منه إلى العزومة.

نادر لم يعرض عليّ أن أبقى في بيته معززة مكرمة. ويمر هو على أشقائه للاطمئنان عليهم. لو عرض عليّ هذا لدفعت أجرة عمله في الورشة. وقد خشيت أن أطرح الفكرة؛ خوفاً من زوجته، لأنني لا أعرف كيف سيكون رد فعلها.

ونوسة لم تفعل ما تقوم به زوجة الابن عندما تحضر لها حماتها لأول مرة، لم تطلب مني خلع هدومي، والتحرر

من الجزمة والشراب، ورفع غطاء الرأس. امرأة مع امرأة، ماذا يمكن أن يفرقنا عن بعضنا؟ لم تأخذني من يدي لكي تفرجني على الكشك. الذي يعيشون فيه.

لم تدخلني غرفة النوم. ولم تعزم عليّ بدخول دورة المياه. كنت تواقّة لفرد جسمي على الكنبّة التي في المدخل، وكنت أريد أن أفكّ فيه، ولكنني ترددت أن أطلب هذا منها. فبرود حفاوتها في التعامل معي طرد كل الرغبات التي كان يمكن أن أفكر فيها، لم تجعل البساط أحمديا. وتقول لي يا ماما. سدت كل أبواب التفاهم التي كان يمكن فتحها.

قمت من مكاني. الذي لم أغيره منذ أن جلست عليه. سويت ملابسي، أخذت حقيبتي وقررت المشي. كان عندي الكثير من الكلام الذي أريد قوله لابني. وأسئلتني كانت بلا نهاية. نادى على ننوسة نن عينيه. التي كانت معتصمة في المطبخ حتى أمشي. كي تسلم عليّ. كان يستعجلها. كما لو كان مشيي حلا لمشكلة نزلت من السماء. كان يريد إنهاء الموقف قبل أن أرجع في كلامي.

تباطأت ننوسة وتلكأت. نادى نادر. أول مرة لم ترد. والنداء الثاني لم يصلها، وعند المناداة الثالث أتت. كأنها

تمشي على قشر بيض. تسير كالراقصات، تمشي على أصابع قدميها. اقتربت مني. سلمت عليّ بطراطيف أصابعها.

وهو من جانبه بعد أن تأكد أنني سأمشي. عزم عليّ بطريقة توحى أنني لابد وأن أمشي. وأن يكون ذلك الآن؛ لأنه يجب أن يعود إلى عمله. 'يلى إليّ أنه يقول لنفسه وهو يمشي بجواري "بركة يا جامع". بعد أن أصبحنا في الشارع احترت ماذا أفعل معه؟ هل أطلب منه الجلوس على المقهى حتى أتكلم معه؟ وهل هناك عيب في هذا؟ هل أذهب معه إلى عمله لكي أتكلم معه هناك؟ وقد يسمع زملاؤه ما سأقوله هناك. يا عيب الندامة. أكلمه في شغله، حتى أجعل رقيبته أقصر من السمسة. لن أفعل هذا حتى لو مت بحسرتي إن لم أتكلم معه.

فكرت في الكلام معه ونحن نمشي. كانت الحارة ضيقة والبيوت – أقصد الأكشاك – متقاربة. والناس تجلس أمامها. خشيت إن تكلمت معه في أي موضوع أن يسمعني الناس. أن أفصح ابني، مع أنني كنت أريد بكلامي أن أستره. هل أعريه وأنا أريد أن أضع كل ملابس الدنيا عليه؟

لماذا لا أُوجَل الأمر إلى ما بعد؟ إن كانت كل هذه الصعوبات تحول دون الكلام معه هذه المرة. فقد عرفت قلمي طريقها إلى بيته والحتة التي يسكن فيها. إن كان في العمر بقية سأحضر له فيما بعد. سألت نفسي. أي بعد سأحضر له فيه؟ هل أضمن رؤيته مرة أخرى؟

من جانبي لن أعود إليه. وهو من ناحيته لن يفكر في زيارتي. ربما كان من الأفضل أن يحضر له واحد من إخوته؛ ليتكلم معه في أحواله.

سار معي. مشى بجواري في صمت. كان يريد الصمت. كان يحدق حوله في صمت. كان يشعر بالاكْتفاء عن الكلام، صام عن تحريك لسانه وشفتيه، لم يبق لديه وقت للكلام. من الذي زرع فيه هذه القدرة على التعامل مع نفسه والاستغناء عن الآخرين؟ نادر قطعة من لحمي وقطرة من دمي ولمعة من نور عيني. لكن هذا الذي يمشي بجواري غريب عني.

سألته عن الورشة التي يعمل فيها. قال لي إنها في الناحية الأخرى. فهمت من كلامه أنني يجب أن أطلب منه الوقوف عند هذا الحد، وأن أطلب منه تركي والذهاب إلى

عمله. ما إن طلبت منه أن يروح إلى الورشة حتى بدا كما لو كان قد أنقذ من غرق. وقف. بدا سعيدا؛ لأنني طلبت منه تركي حفاظا على الشغل، حاول أن يعرض عليّ السير معي حتى أركب. وما إن شكرته حتى أشار إلى المكان الذي يمكنني الركوب منه.

لم يسألني إلى أين أذهب؟ وكان آخر ما أحزنني منه وضايقتني ودفعني إلى حافة الرغبة في البكاء. عندما قلت: إنني سأذهب إلى نجيب، قلت: نجيب الدين. هكذا كان المرحوم يحب أن ينطقها. قلت: إنني أريد الاطمئنان على زوجته. سألني: وأين هو؟! كان الرد مشروع دمعة تجولت في عيني. الأخ لا يعرف أن أخاه ليس موجودا في مصر، لم كل هذا البعاد؟ مع أنه قريب من المكان الذي يعيش فيه أخوه. لا يعرف هؤلاء الأولاد أن البعاد جفاء. وأن الجفوة تجفف عروق المحبة. قرب المكان لم يشفع لهما؛ لأنه فرقت بينهما أمور كثيرة. ليس الذي يقرب الأخوة مكان السكن أو الزوجة ولا المستوى الذي يعيش فيه هذا أو ذاك. المشكلة أن كلا منهما أصبح يسير في طريق لن يلتقي مع الطريق الذي يسير فيه الآخر. وربما لن يلتقيا بعد ذلك.

سألته ماذا أركب حتى أصل إلى أخيه. كنت أتصور أنه سيعزم عليّ. أن يوصلني بسيارة من السيارات التي كانت تحت العمل في الورشة، أشقاؤه هم الذين قالوا لي. في كل مرة يقابلونه، يجدونه وقد ركب سيارة مختلفة عن المرة السابقة. سيارات الزبائن التي يسمكها. فالزبون يترك له سيارته لأسبوعين أو ثلاثة أو شهر، وأنه يمتلك كل سيارات الزبائن التي تحت السمكرة.

لم لا يوصلني بسيارة يسمكها ويريحني من عناء المواصلات؟ لم يفعل. كان يمشي معي وأنا أسير بجواره وعينا زوجته مغروستين في ظهرينا. تشاهدنا وترقبنا وترى ما يمكن أن نفعله بعيدا عنها. كان محكوما بغياب زوجته، خائفا من عدم حضورها أكثر من مراعاته لوجودها الثقيل. لا يجرؤ على أن يتصرف أي تصرف بعيدا عنها. يخاف إن وصلني أن تعرف زوجته.

لم تكن عندي مشاعر عدا وحب أو كراهية تجاه ننوسة، لكنني شعرت أن هذه المرأة الغريبة، التي تبدو أكبر من ابني تقاوم الزمن وتحاربه بالألوان والمساحيق. وتستولي عليه خيالات هذا الجسد المرير، لقد سرقتة. نشلته. ونحن

لم ننتبه إلى هذه السرقة. لم نبلغ عنها. ولم نحاول استعادته. أشار إلى نهاية الشارع، وقال لي: إنني يمكن أن أركب الأتوبيس من هذه المحطة. فسألته عن رقمه، قال لي: إن أي أتوبيس يتحرك من هنا لا بد وأن يمر على السيدة زينب. كان يحاول الهروب من لحظة الوداع. وأنا قلبي كان مشقوقاً نصفين. ونفسي مكروش. هف أولاده على بالي. لم أتصور أنني سأتركهم بهذه السرعة، كنت أريد البحث عن قوانين الوراثة في ملامحهم. هل البنات شكلي؟! هل الولد الذي اسمه على اسم جده شكله؟! هل يعرف من هو جده؟ هل رأى صورة له؟!  
صورة له!؟

لحظة تركه لي مشى مسرعاً. كأنه يهرب مني. يخشى أن أرجع في كلامي، وأن أتمسك به، وأن أعود إليه. خيل إليّ أنه جرى. سألته: ماذا يعني هذا اليوم بالنسبة لك؟ قال كلمة واحدة: الزلزال.

نظرت إليه على بعد. كان كالجنين في بطن أمه. يبحث عن يحميه من أي خطر. ماضيه خلفه وليس أمامه، مستقبه وراءه. عاد إلى ذات يوم بعيد، موغل في البعاد، وقال: إنه لن يذهب إلى المدرسة. لن يتعلم. سيكون مهندس

سيارات تساءلت غير مصدقة: هيه؟! يا ألف حسرة على الجدع. قلت له: خذ شهادتك وافعل بنفسك ما تشاء. قال: إن الشهادة لن تقدم ولن تؤخر بالنسبة لما يعد نفسه له.

أخوه نجيب قال لي إن ما يعاني منه نادر حالة تخبط. حالة تحدث للكثير من الشبان خاصة في الأيام العصبية التي نطلب الستر من آثارها، التي يمكن أن تصل إلى الجنين في بطن أمه. كان قد أصبح في طريق بمفرده، وأنا أصبحت في طريق آخر لوحدي، وإن كنت لا أعرف إلى أين؟ سألت نفسي بفرع: هل أنسى أطيّب أبنائي هكذا وفي غمضة عين؟ هل هذا معقول يا ناس؟!

نجيب هو الذي تكلم عن الطموح. إن الطموح يتطلب ومضة من الحياة. كان نادر يفتقدها. كان يعيش ولكن كالميت الحي. لا هو رافض لموته. ولا هو مقبل على حياته. كان قادرا فقط على العيش حتى يموت. هذا ما رأيت له لتوي. غريب أن أفكر في الموت بالنسبة لشباب لم يعيش حياته بعد.

بعد زيارتي لنادر، بدأت تتضح لي معالم وإشارات الطريق الصعب الذي ينتظرني.

.. البيوت هي التي قادتها للبيوت.

والأماكن القريبة من بعضها هي التي لضممتها مثل

الخيطة

والقربى رسمت لها خط سيرها.

نجيبة أوصلتها لنادر

ونادر قادها لنجيب.

من تل العقارب إلى المنيرة، انتقل تمر خلاله بابنة ابنة الرسول شي الله يا أهل الله. كان عليها أن تختار بين أبنائها وآل البيت، ولكن الصدفة تضرّ بين الجولتين، وهي في الطريق من نادر إلى نجيب تقرأ الفاتحة للسيدة، شي الله يا أم هاشم. يا رئيسة الديوان: عقبال ما أذهب إلى سيد الشهداء ونصير المظلومين عندما تمر عليها سترمي السلام وتقرأ الفاتحة من جديد توصيها على ابنها المتغرب؛ حتى يعود وزوجة ابنها المتغرب؛ حتى تضع ما في بطنها بسلام.

ولد أو بنت. كل ما يأتي من عند الله خير. المهم أن تقوم  
بالسلامة.

مضي وقت طويل دون أن يحضر الأتوبيس. سألت.  
عرفت أن حي السيدة زينب أقرب مما كانت تتصور قالت  
لها امرأة تقف على المحطة: إنها يمكنها الذهاب على قدميها  
أن تأخذها كعابي لا تعرف أنها متعبة حتى الموت سألتها عن  
المواصلة. قالت لها عليها أن تنتظر. فالיום تعطلت فيه  
المواصلات.

اكتشفت محروسة أنها وحدها التي تنطق السيدة  
زينب لكن الناس في الحي يقولون السيدة فقط. مع أنها كلما  
نطقت الاسم فكرت في أن تقول السيدة زينب رضي الله عنها  
وأرضائها، ربما فكرت في قراءة الفاتحة كلما هفَّت على  
خاطرها قالت لها المرأة الغربية: إنها لو ركبت تاكسيا لن  
يأخذ سوى جنيه كانت تنظر إلى محروسة نظرات لصوص.  
عينها من النوع الذي يعري من أمامه حتى من جلده، قالت  
هكذا هم أولاد البندر. نسوانها مثل الأور، بل هم عجر.

دقائق وكانت أمام بيت ابنها في السيدة. هل معقول  
أن يعيش الابنان في هذين المكانين القريبين جدا ولا يلتقيان؟  
ولا يعرف أحدهما مكان الآخر أو الطريق إليه؟

كانت في الطريق إلى بيت ابنها المتغرب القاضي.  
أقرب الأبناء إلى قلبها. أحبته أكثر من حبها لنفسها لا  
تستطيع وصف مشاعرهما تجاهه. منذ أن سافر وكأنه أخذ  
قلبا معه إلى حيث هو هناك.

قال لها: الإغارة أو الشطارة. إما أن يسافر للعمل في  
الخارج. أو أن يمد يديه إن بقي هنا. ربما سرق أو هلب. من  
قبل كانوا يقولون. قيراط حظ ولا فدان شطارة. والشطارة  
كانت تعني العرق والعمل. ومعناها في هذه الأيام الصعبة.  
الفهولة وكل ما يعفي الإنسان من العمل.

لم تكن موافقة على سفره. ليس أكبر أبنائها سداً فقط.  
بل كانت تعتبره والدا لإخوته. وبعد وفاة والدهم. ومن يوم  
أن مات أبوه. قالت له: أصبحت الأب لكل أشقائك. ورفض  
وقال لها: إنها أصبحت الأم والأب معا. يستظلون بظلها  
ويتمرغون في جنة حبها. ويرمحون تحت ظلال حنانها.

قال لها: أنت كل من لنا في هذا العالم. كان مصمما على السفر. كبش في فواده مرض الترحال. انخلعت قدماه من الأرض. قال لها وكان صادقًا السفر سيعصمه، سيحميه من مخاطر كثيرة، ستهدده لو بقي في مصر. وافقت؛ لأنه لم يعد في يدها أن ترفض.

ظلت على اتصال بزوجته بعد أن سافر. بقيت في مصر مضطرة. كانت مصرة على السفر معه. لكنه أبقاها. قال لها إنه بعد أن يصل ويستقر وتضع مولودها هي في مصر. سيبحث لها عن عمل. قال: إن فكرة البحث عن عقد عمل لها سيخرج حياؤه كقاضٍ. تحت إلحاحها قال إنه سيحاول. عرضت حماتها عليها أن تأخذ أجازة من عملها وتقيم معها في البلد.

لكنها اعتذرت قالت إنها ستوفر أجازاتها عندما يصل إليها قرار السفر، مطلوب منها إعداد أوراق كثيرة ستحتاج إلى أيام. وإن نتعها الله بالسلامة ووضعت قد تحتاج إلى أجازات غير أجازة الوضع.

كانت حماتها تتصل بها وكانت تتصل بحماتها، ولم تكن المكالمات محببة لحماتها أولها. كانتا تتحولان إلى

امرأتين تتكلمان عن رجل واحد. الحاضر بغيابه. الغائب بحضوره. ابن أمه ورجلها. لم يكن بينهما كلام سوى عنه. ماذا يفعل في الغربة؟ كيف يمارس عمله؟ كيف يعيش في بيته؟

كان يرسل لأمه ولزوجته رسائل كثيرة. كانتا تسألان من أين يجد الوقت لكتابة كل هذه الخطابات؟ لم تكونا تعرفان أن الوقت هناك يفيض عن حاجته. وعندما كانت تتأخر رسائله في القليل النادر. كان التليفون يسعفه. يتصل بأمه ويهاتف زوجته.

الأموال التي كان يبعث بها لأمه أولاً، ولزوجته ثانياً. كانت تكفي وزيادة. لم يقطع عادة عن أمه، يوم سفره كادت أمه أن تجن. سألت الهواء والغبار والسماء: لماذا هذا الابن بالذات؟ لماذا نجيب الذي يسافر؟ لماذا نجيب الذي يسكن قلبها ويجلس متربعا في عقلها، تكتب عليه الغربة القاسية دون سواه؟

أمه لا تنسى متى بدأت أحلام الغربة تداعبه، عندما تزوجت أخته وسافرت مع زوجها. وبدأ يتابع في صمت التغيرات التي طرأت على حياتها. والنقلة التي جرت لها.

ابتدأ ولأول مرة يتكلم عن السفر على استحياء وعلى فترات متباعدة، وكما لو كان يتكلم عن سفر شخص آخر سواه. له نفس ظروفه. ثم بدأ يقترب من أمه بهدوء. خطوة خطوة. إلى أن قال لها في النهاية: إن الذي سيسافر هو وليس صديقاً له. وإن بديل السفر هو الجحيم. هل تحتفظ به متغرباً بعيداً؟ أم تخسره وهو في حضنها؟!

كان سؤاله حاداً وقاسياً ومدبباً. مثل نصل السكين. لم تعرف كيف ترد عليه احتمت بالصمت. ربما فسر الأمر على أن السكوت علامة الرضا. وهي ما رضيت بغربته بعيداً عنها. حتى لو كان الثمن هو مال قارون نفسه.

كان من الصعب على الست محروسة أن تخرج من حالة الدهشة التي ولنتها عندها المسافة القصيرة بين بيت نجيب وشقيقه نادر. ومع هذا فإن نادر لا يعرف أن شقيقه غريب الديار. ولا نجيب عندما كان هنا فغّر في الحضور إلى نادر. مستحيل أن يعرف الخطأ طريقه إلى نجيب، نجيب هو الصواب نفسه.

إن كان ثمة خطأ فنادر هو الذي أخطأ ربما لا يعرف نجيب مكان بيت أخيه. من المؤكد أنه لا يعرف ولو عرف

ما سكت. لذهب إليه وتصرف وأخرجه من الماخور الذي يعيش فيه ،وأبلغه عدم رضاه عن الست التي تزوجها. ولكن إن غاب القط تلعب كل الفئران على هواها. وهم يلعبون بحريتهم وعلى راحتهم؛ لأن الرجل غير موجود وهم يعرفون هذا. لكن نادر من الممكن أن يعرف ويطنش ربما يمر في السيدة زينب عشر مرات في اليوم. وربما أكثر ولا يهتم بوجود أخيه فيها.

لحظة مرورها على جامع السيدة زينب. أوقفت التاكسي وحاسبته. نزلت. لا تعرف إن كان الجامع مفتوحا في هذا الوقت من النهار أم أنه مغلق الأبواب؟ ولا تعرف إن كان المكان المخصص للحريم مفتوحا أم لا؟ لكنها ذهبت والسلام لكي تقرأ الفاتحة وتمسك بيديها بحديد شباكها أو بابها الخارجي. محال أن تدخل حي السيدة زينب دون أن تسلم عليها أولاً حتى قبل الذهاب إلى بيت ابنها. ولو ذهبت إلى بيت ابنها – لا قدر الله ولا كان – دون المرور عليها ومناجاتها والكلام معها لعدت ذلك فآل شؤم.

كان الباب مغلقاً، كان الوقت بين صلاتين. لم يكن باب الرحمة مفتوحا. ولم تكن السماء في ساعة إجابة. لماذا

يغلقون المساجد؟ أمر غريب. لو كان نجيب في البلد لأتى معها ولفتحوا لهما الباب. قرأت الفاتحة وترحمت على من ماتوا من وراء الباب. ودعت لأولادها وبناتها وأحفادها.

اتجهت إلى بيت ابنها على قدميها، فالبيت قريب من الجامع.

سارت وهي تشعر أنها خفيفة تسبح في الهواء، إنها ذاهبة إلى البيت الذي تحبه أكثر من كل البيوت التي يعيش فيه أبناؤها الآخرون، فضلاً عن أنها زارته من قبل أكثر من مرة.

.. هذا أجمل مكان يمكن أن تستريح فيه. لكن ابنها غائب. وغيابه لا يمنع كل جزء فيه أن يذكرها به. يقول لها: إنه كان هنا ذات يوم. وفعل كذا. ولم يفعل كيت. جلس في هذا الركن. وقف في تلك النافذة. نام على السرير. دخل الحمام. جلس على السفرة وأكل طعاما. ثم شرب شايًا من هذا الكوب.

زوجته حامل. حملها الأول. بركة إنها جاءت من الزلزال؛ حتى تزور زوجة ابنها، وتراعيها، وتأخذ بالها منها، وتتابع نمو الجنين في بطنها. قيمة خلفه الأولاد أن أولادهم يحملون اسم العائلة؛ حتى يستمر السلسل وتتمد العائلة إلى هذا الجيل ويتوقف. أما البنت فإنها قد تحمل وتلد. هي الحوض والوعاء. ولكن الاسم يعود إلى الأب. نادر أنجب ولدين وبنثًا. ولكن أبناء نجيب سيصبحون حكاية أخرى أكبر أهمية. الأم غير الأم. والبيت غير البيت. والتربية غير التربية.

أن العائلة منذ أن بدأ الحمل وهي لا تتصور أن ما في بطن هو زوجها ابنها إلا ولدا ذكرا يحمل اسم جده، صحيح فيها أطفال آخرون يحملون نفس الاسم. لكن ابن نجيب الولد الذي تتصور أنه سيواصل رحلة جده دون سواه.

دقت جرس الباب. كم مرة عرض عليها ابنها وزوجته أن يصنعا لها نسخة من المفتاح؟ وبعد سفره للخارج متغربا، كررت زوجته نفس العرض عليها أكثر من مرة وصنعت لها نسخة من المفتاح مازالت موجودة ومعلقة في ظهر الباب، وإن كانت لا تحب أن تأخذها.

وتحت تضرب جرس الباب وتسمعه وهي تدرك أنها تلجأ إلى الجرس لرفضها أخذ المفتاح الذي مازال موجودا أمرها؛ لأنها تدرك أن لكل بيت خصوصياته. بيت تعيش فيه زوجة ابنها. ربما كان لحظة حضورها المفاجئة أحد من أهلها معها.

ثم إن زوجة ابنها منذ أن بدأت رحلة الحمل وهي لا تذهب إلى عملها إلا في القليل النادر. ما من مرة حضرت إليها إلا ووجدتها. غابت عنها في الأيام الأخيرة. وكانت توالي الاتصال بها كل يوم تقريبا، تطمئن على من في بطنها

أساساً، لكنها من باب الذوق واللياقة كانت تطمئن عليها أولاً. ثم تبدأ السؤال عن الولد العكروت الذي في بطنها والذي تسمع صوت حركاته منذ أن بدأت رحلتها وهي تعرف أنها ستبيت الليلة في الواحة، في بيت الحبيب الغالي، وعند زوجته حتى وإن لم تكمل مشاويرها، في هذا البيت يمكنها أن تستريح وتتغذى أو تتعشى ثم تنزل تستكمل مشاويرها وتعود.

وإن كانت متعبة فيمكنها النوم وتكمل المشاوير غدا صباحاً. ربما تحدث المعجزة وتعود الحياة للتليفونات. وتطمئن على باقي أبنائها من خلال التليفون، أو تطلب منهم الحضور إليها، تفعل أي شيء يعفيها من إكمال المشوار.

شعرت بشفقة وعطف لا حدود لهما على الباعة السريحة الذين قد يتجاوز البعض منهم السبعين من العمر. يقضون النهار في اللف والدوران والنداء بالصوت الحياني. وربما الصعود بما معهم إلى الأدوار العليا؛ حتى يتمكن الواحد من بيع ما معه. مساكين أشفقت عليهم. أكبر قسوة أن نرفض الشراء منهم. وأن نجري وراء أصحاب المحلات.

دقت جرس الباب مرتين. انفتح الباب. أول ما شاهدته من زوجة ابنها كان بطنها؛ لأنها أول ما برز إليها. خيل إليها أنها تسمع تنفس الجنين. تسمع كثيرا أنه يمكن معرفة نوع الجنين بكشف أو خلفه أو بأشعات. ثمة أجهزة تمكّن الإنسان من ذلك. ربما أثرت المواد التي تستخدم في معرفة نوع الجنين على الجنين نفسه. ربما خرج مريضا أو مشوها، لا قدر الله، لينتظروا إرادة الله وما يريد له حتى اللحظة الأخيرة، لماذا يحاولون التدخل؟ ويحاولون أن يسبقوا الغيب؟

حتى عصر اليوم، كانت عايدة زوجة القاضي، هي زوجة الابن الوحيدة التي تعرفها من قبل، منذ ساعة فقط عرفت هاجر زوجة نادر. عايدة تنادىها بكلمة ماما، وتشعر بصدقها. قريبة إلى قلبها. منذ زواج ابني منها لم أشعر أنها زوجة ابني وأني حماتها.

بناتي زدن بنتًا أخرى، لم أحمل بها ولم ألدّها ولكنها تبقى ابنتي، هكذا كنت أتعامل معها وأستريح لها. رفعت عيني عن بطنها إلى رأسها شاهدت ولأول مرة غضبا يتراقص فوق وجهها.

كانت تقابلني متهلفة. تقاطيع وجهها تأخذ شكل وردة أو ورقة شجر. ابتسامتها هي أول ما أراه وآخر ما أودعه. ابتسامتها تنير الوجه ويمتد النور إلى المساحة المحيطة بالوجه.

ثمة توتر ما. غضب مكتوم يطل من ملامح وجهها الذي لم يطلّ منه من قبل سوى النور. كانت تتحرك بتثاقل. تسند ظهرها بيدها كما تفعل كل الحوامل. وتتحرك بصعوبة. وتنطق بصعوبة أكثر. وترحبها تسلل إليه بعض الفتور الذي لم يكن موجودا من قبل.

سلمت ودخلت. لاحظت أن زوجة ابني، التي هي في مقام ابنتي، لم تقبل يدي ولم تقبل وجنتي. كان السلام عاديا. وأنا أخطو على الصالة. في الشقة التي أعرف كل شبر فيها. الشقة التي اشتركت في تأثيثها وبياضها ودهانها وسباكتها وكهربتها ونجارتها وتبليطها. الشقة التي أعرفها كما أعرف كف يدي. سألت زوجة ابني: هل حدث شيء لنجيب، الشر بره وبعيد؟

ربما يكون هناك ما لا تعرفه. ردت بكلمة واحدة: بخير. قالت بعد فترة: بخير يا نينة. توقفت أمام الكلمة،

استبدلت ماما بنينة، الفارق بين الكلمتين ليس كبيراً، المشكلة تكمن في السياق في مجمل ما جرى وما حصل، وهو أن هدوء البيت قد تعكر. سألتها سؤالاً ثانياً بلهجة محددة: الزلزال أصاب شفتك؟! قالت باقتضاب: لا.

ليست هذه عادة ابنتي عابدة. زوجة ابني. التي كانت فيها عيوب أشكو منها وهي الثرثرة. أنظر إليها على أنها ثرثارة. تحب الكلام في الفاضية والمليانة وتكثر من طرح الأسئلة، بين السؤال والسؤال سؤال، لو أحصيت عدد الأسئلة التي تطرحها في لقاء واحد لتعدت المائة، تحكي لماما بمجرد وصولي كل ما جرى لها وحدث عندها، منذ تركي لها وحتى عودتي إليها بالثانية والدقيقة والساعة واليوم والليلة والأسبوع والشهر.

تحكي كل ما جرى، كما لو كانت قد رتبت الأمور في ذهنها من أجل حكايتها لي. ربما كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر من أجل أن تحكي لماما جميع ما حصل.

ثمة أشياء لم تكن تقولها عادة لنجيب عندما كان موجوداً في مصر، ولا تستطيع أن تكتبها له في الرسائل، بعد أن تغراب وأصبح مقضياً عليه بوجع البعاد.

أمور لا تقولها امرأة إلا لامرأة، ولا تحكيها إلا ابنة  
لأم. أشياء حميمة داخلية وخاصة، بل وشديدة الخصوصية.

كانت زوجة ابني تجد سعادة وهي تحكيها لي،  
وتقولها على مسمع مني، وتستفيض في الكلام عنها. هذه  
المرّة كانت مقتضبة الكلمات تحكي ما عندها بكلمة أو كلمتين  
وتنهي الأمر. كأنها تهرب من الاسترسال في الكلام، ثمّة  
شيء ما تحاول أن تخفيه عني ولا بد من معرفته.

دخلت، خلعت الطرحة السوداء التي أداري بها  
شعري، وقلعت البالطو الأسود وعلقتة على الشماعة.  
ووضعت الشنطة. وأخرجت قدمي من الحذاء وسلّت منهما  
الجوربين. وبقي الدور على الحمام دخلته كما لو كنت أدخل  
حمام بيتي الذي في البلد لم أستأذن، وزوجة ابني لم تعزم  
عليّ.

ما قلت لها ماذا أنوي أن أفعل. فهذا البيت بيتي.  
أشعر أنه امتداد للبيت الذي في البلد والبيت الذي في المنيل.  
جزء منهما أو هما جزء منه.

عندما سافر نجيب عرض علي □ الانتقال لكي أعيش  
مع عايدة اعتذرت .تحليل علي □. عرض الأمر أكثر من مرة.  
ليست حكاية عزومة مراكبية، نجيب لا يفعل هذا. لو لم  
أخرج من الدنيا سوى به لقلت إنه يكفي وزيادة.

شرح لي مزايا قبولي لطلبه قال لي: سيكون مطمئناً  
علي □ وعلى عايدة وعلى ما في بطنها لكن الأهم أن نجيب  
كان يحب الونس واللمة واجتماع الشمل، ولم يكن يحب أن  
يتركني في ناحية وعايدة في الناحية الأخرى.

قال إن وجودنا معا سيخفف عنه غربته، ويجعله كما لو  
كان معنا في البلد، لا تفصله عنا بلاد وبحور. لم يكن  
نجيب مستريحا لفكرة لم تقلها عايدة . أن تحضر واحدة من  
أهلها لكي تعيش معها كان كل همه أن أكون معها.

أخذت على حياة البلد وعلى هدوء الريف. تعودت  
على الوحدة أقول "وحدانية" بعض الصبيان والبنات يقولون  
عن حالتي إنها عزلة. لم أكن أشكو. وحدة أم عزلة؟ الأمر  
سيان، وأنا سعيدة بها، وحزينة أنني لم أكتشف الطريق إليها  
من قبل. لم أكن أشعر أن ثمة شيء غريب أمر به أو أعاني  
منه ويسبب لي مشكلة ما.

تعودت على الكلام مع نفسي ومناجاة روعي في  
البلد. يقولون: إن الوحدة تورث الجنون. الوحيد مجنون.  
هكذا يقولون. كلام فاضي. الوحدة اكتشاف توصلت له بعد  
كل هذه السنوات. بعد أن أصبحت ممكنة وكانت قبل ذلك  
مستحيلة.

أسلي نفسي بما يمكن أن يسليها. أقمت صلة معي من  
نوع فريد. فزعت من عرضه الذي يفرض عليّ أن أهدم ما  
بنيته وأعود إلى مصر التي ما صدقت أنني هربت منها.

رفضت لإدراكي أنها ستكون عودة عابرة، وأنا لا أحب  
كثرة الانتقالات، نجيب لن يغيب عن زوجته كثيرا  
أعرف ابني. ليس ابن سكك وسرعان ما سيعود إلى بيته.  
ربما كان الولد يتخايب عليّ من أجل البقاء عنده على طول،  
سواء أكان مسافرا أم يعيش هنا. أعيش معه والسلام. حتى  
أكون تحت جناحه وأنا لا أحب هذا. ولا أستريح له.

ثم سيأتي طفل. فوق رأسه طفلة، هذا ما أتمناه  
لابني، المثل يقول: من أسعده زمانه أعطاه البنت بعد الولد.  
أن يكون بكره ولدا يحمل اسم أبيه، وبعده تكون البنت،  
المهم أن يكون الترتيب هكذا، ثم يمتلئ البيت بالأولاد

والبنات بعد ذلك وإن كنت أشك أن هذا الجيل يمكن أن يكون لديه أكثر من ولد وبنت هذا أقصى ما يقدرون عليه.

خرجت من الحمام، بعد أن اغتسلت وتوضأت، بحثت عن السجادة، وجدتها، وإن كان مكانها قد تغير، لها مكان ثابت، وراء باب غرفة النوم، كانت وراء باب الصالون ما معنى هذا؟ هل معناه أن عايده لا تصلي؟ مع أن الصلاة لا تؤثر على حملها، أم أنها تصلي في الصالون بدلاً من غرفة النوم، أم أنها هجرت غرفة النوم وتنام في الصالون؟ متغيرات كثيرة يا عايده طرأت على حياتك في هذه الفترة التي غبتها عنك، لعل الذي دفعك إليها أن يكون خيراً!

نقلت المصلية من الصالون، إلى غرفة النوم. هكذا تعودت، وإن غيرت أي عادة من عاداتي، لن أشعر أنني في بيت ابني، لا بد وأن يبقى الحال على ما هو عليه. أي تغيير في غيابه جريمة، ليعد أولاً، ثم يغير ما شاء له التغيير.

لم أسأل عايده عن سبب نقل السجادة، من غرفة نومها إلى غرفة الضيوف، التي تضم غرفة المسافرين. إن جاء ضيوف كثيرون. الأسئلة تزرع الشك مكان اليقين،

وعايدة من نفسها لم تعلق على نقل المصلية من الصالون إلى غرفة النوم، وجود المصلية في غرفة النوم يطرح البركة في الخلفة يجعلها نباتاً صالحاً.

صليت ما فاتني، صليت العصر، وصليت المغرب. ولم يكن العشاء قد حان بعد، سأظل بوضوئي، لن أنقضه حتى أصلي العشاء حاضراً، عندما يحين مواعده سأعرف بسهولة من الميكروفونات الموجودة في كل مكان، ويصل صوتها لمن يسكن تحت سابع أرض، أينما كان الإنسان في هذه المدينة المهولة، لا بد وأن يدركه صوت الأذان، يصل إليه حتى أو كان في سابع نومة.

وأنا أصلي، وأنا أتلو الفاتحة والآية، كنت مشغولة على عايدة، ماذا جرى لها؟ كنت أبحث في عقل بالي عن إجابة أو عن طريقة أسألها بها عما أصابها دون أن أخرجها، ولا يأخذ الأمر شكل الاستجواب، والسؤال والجواب، والتحقيق والتفتيش في ضميرها.

كان أجمل شيء ورد في خاطري، وفكرت فيه، لو أن عايدة تكلمت من نفسها، لو أعفتني من مشقة السؤال، واللف والدوران حتى لا يبدو سؤالاً، لو حكمت وفضفت،

إذن ستعود إلى الجو القديم، والصلة التي لم تعد قائمة،  
والعلاقة الصافية التي ربطتني بها منذ زواجها من نجيب ولم  
نكن فيها زوجة ابن ولا حمة، ولكن أم وابنتها. لو تكلمت،  
لزال الحواجز الطارئة، ولانهارت الجدران المفاجئة،  
ولسمعت منها، وربما انتهت المشكلة.

كنت أتصور أن الأمر عابر، ربما فزعت عايذة من  
مجئ الزلزال، وزوجها وأهل زوجها وأهلها بعيدون عنها،  
وحدانية، وما في بطنها مجرد جنين لا يمكن أن يؤنس  
وحشتها، حتى لو رفسها في بطنها بقدمه، أو قدميه، أو يده  
أو يديه لو وأوأ ومأماً. فإنه لا يشكل ونسا لها.

جلست، استرحت، دخلت المطبخ، أعد طعاما لي،  
اكتشفت وأنا واقفة في المطبخ، إن عايذة لم تعزم علي،  
تغاضيت عن ذلك، ربما تعاملت معي باعتباري صاحبة بيت،  
وهل يعزم على الإنسان في بيته؟

وأنا في المطبخ، أطلت الحيرة من جديد، ماذا جرى لها  
بالضبط؟! أه ماذا جرى لعقلي؟ لن يصدقني أحد عندما  
أقول إن موضوع المفوعة التي اتصلت بي في البلد،  
وقالت إنها تحب نجيب وإن نجيب يحبها، قد سقط من

ذاكرتي في يوم الهول الأعظم، فسألت نفسي: هل هناك علاقة بين الأمرين؟ كيف أتصرف؟ ليتني ما تذكرت. المهم ألا يبدو عليّ أنني أعرف، إن كان هذا الموضوع هو السبب، لا بد وأن أسمع منها أولاً، معرفتي تجعلني شريكة في نظرها، بالنسبة لي، المعرفة ليست مهمة، المهم والأهم ماذا فعلت بعد أن عرفت؟ ربما كان الموضوع مختلفاً!

أطبق قمت بإعداد لقمة خفيفة، وكوبا من الشاي، لم أشرب شايا منذ خروجي من البلد، أنا لست شريبة شاي ولا القهوة، لكن عدم شرب الشاي لفت نظري بعد المشوار الطويل، الذي هدّني حيلي. سألت عابدة، وأنا أقف في المطبخ، إن كنت أعمل حسابها في الأكل ولكن البنّت شكرتني بجملة مؤدبة.

أحضرت صينية صغيرة، وضعت عليها اللقمة الخفيفة وكوب الشاي، وجلست في الصالة وأمامي عابدة تتوسط المسافة بيني وبينها الصينية وما عليها. صحيح البيت بيتي والدار داري، وأنني أعد طعامي لنفسي أحياناً، ولكن هذا يحدث عندما لا أحب أن أتعب عابدة، كانت هي التي تتنادي علي، وتصر وتحلف الأيمانات. تريد أن تعمل لي

الطعام والشاي، وأصر أنا وأقول، إنني لو لم أعد ما سأتناوله بيدي فلن أكل شيئاً، أقول إنني لم أعجز يعد، حتى يعد لي طعامي أحد غيري.

تجلس مكرهة وغازبية من إصراري. هذه المرة لم تعزم، لم تقل إن المطبخ فيه كل شيء، لم تسألني إن كنت جوعانة أم لا، أقطع ذراعي من لغوغه إن في الأمور أمور. بدأت أتناول طعامي، وأنا في حقيقة الأمر أنتظر حتى تبدأ هي الكلام، ولكن البنت لم تنطق ولم تقل لي كلمة واحدة.

حاولت أن أبدو أمامها مشغولة بطعامي وشرابي. لم أنظر ناحيتها، بالنسبة لمن تعاني من مشكلة أكثر ما يؤلمها هو نظرات الآخرين، النظرة تصبح إبرة، والعين تتحول إلى ضوء متصلص على الأعماق إن الجحيم هو أعين الآخرين، وإن كنت لست آخراً. عايذة قطعة مني.

عايذة زوجة نجيب، كانت في الثالثة والعشرين من عمرها، طويلة، سرحة، بنية الشعر، يبدو أنها لم تعان ولم تهن ولم تتألم طوال حياتها، كانت تبدو سعيدة في حياتها، قانعة بها، يبدو أن الحياة قدمت لها الكثير، وهي من جانبها قررت أن ترد الجميل لها، لم يكن جمالها صارخاً، ومع هذا

كان وجهها مريحا، كل من يراها يشعر أنه يعرفها منذ فترة طويلة. كانت عايدة محامية، تقول عن نفسها ضاحكة، القضاء الواقف، قوية الشخصية، متحدثة لبقة. تزين كلامها بأرقام القوانين والعقوبات والمواد واللوائح، وتتحدث عن الحقوق والواجبات، كانت عاطفتها قوية، وإن كان عقلها له الكلمة العليا. امرأة تمتلك كل ما تحتاجه، ماذا يملك ابني أن يقدم لها، مادامت لا تحتاج شيئا؟

كنت أخشى على ابني منها في البداية، مثل هؤلاء النساء تكون لهن نزوات قاتلة في بعض الأحيان، كان ابني متعلقا بالمثل العليا. شاب مستقيم. يقولون عنه من البيت إلى الجامع، ومن الجامع إلى الجامعة، ومن الجامعة إلى البيت، تعرف عليها على مقاعد كلية الحقوق، فاتحني في الأمر وهو لا يزال طالبا، قلت نزوة وتمضي، وكم في هذه المرحلة من النزوات، ما إن يصبح وكيلا للنيابة، ثم قاضيا حتى ينسى الحكاية ويتفرغ لمستقبله الذي كان حلم والده، الذي لم يتمكن من تحقيقه في حياته، وحلم أن يقوم أحد أبنائه بتحقيق ما لم يستطع هو أن يفعله.

كان والده يؤمن أن العدالة هي أساس الحكم، كان يقول في الليالي الطويلة، يا سلام على القاضي لو حافظ على نزاهته، لقد قالوا كاد المعلم أن يكون رسولاً وأنا أكمل، كاد القاضي أن يكون رسولاً، بل إن القاضي رسول فعلاً، رسالته مهمة.

عندما عاد نجيب يتحدث عنها، لمحت في كلامه معنى ضمن لي فركشة الحكاية، قال إنه يفصله عنها ثلاث سنوات دراسية، هو في السنة النهائية، وهي في السنة الأولى، قلت أيام ويفترقان.

لكنه عاد يتكلم لثالث مرة، قلت لم توقف طويلاً عند هذه بالذات؟ شكوت لجارتي فطمأنتني قالت كل بنات هذه الأيام كسالي، تبحت الواحدة عن يساعدها في تعليمها، يذاكر لها يكتب المحاضرات بدلاً عنها، والأمر لا يزيد على ذلك.

نظرت حولي، نفس الشقة ولكن ظلمة ما بعد الغروب وما قبل مجيء الليل المؤكد تنتشر فيها، وثمة جو مكهرب أو توتر مكتوم يمكن أن تسمعه حتى في الصمت الذي يفرض نفسه على الشقة، وإن كان البيت كالعهد به دافئ

مثل القلب، لا يقلل من عطر دفئه سوى ذلك الزئير المكتوم،  
في زياراتي السابقة، كان بيت ابني يبدو لي كعقد من الماس  
يتأرجح فوق أجمل صدر في الدنيا كلها.

أثناء تناول الطعام، نظرت خطأ إليها، ذهبت عيناى إلى  
حيث تجلس غصب عني، فوجئت، كانت دموعها على  
خديها، توقفت عن المضغ بصورة آلية، وقفت اللقمة في  
زوري، خبطت صدري، سألتها: ماذا جرى يا ابنتي؟! لم ترد  
عليّ.

سألتها من جديد نفس الأسئلة التي سألتها إياها من قبل،  
إن كان نجيب قد جرى له شيء؟ فنفت، وإن كانت  
الشقة قد أصيبت من الزلزال؟ فنفت، إن كان أهلها قد وقع  
لهم مكروه؟ فنفت، إن كان الجنين في بطنها قد أصيب  
برعب لحظة الزلزال؟ فنفت. إذن ما هي الحكاية؟ طمني  
يطمنك الله يا ابنتي؟

حاولت إخفاء قلقي بقدر الإمكان؛ حتى لا تنتقل إليها  
عدوى الفلق، وهي مطلوب أن تكون بعيدة عن أي تواترت أو  
مشاكل، قالت لي بعد فترة من الإلحاح من جانبي. وعدم  
الرغبة في الكلام من جانبها:

- نجيب.

صحت من عزم ما بي:

- ماله؟

ردت علي:

- يجب.

رددت على سؤالها بسؤال:

- يجب من؟!!

استدركت قائلة:

- من الطبيعي أنه يحبك ويحبنى ويحب إخوته  
ويحب ابنه الذي في بطنك، ويحب زملاءه في  
العمل، وزملاءه الذين تركهم، وأصدقاءه القدامى  
في مصر، وأصدقاءه الجدد وجيرانه في بيت  
الغربة الذي يعيش فيه، ومن يتعاملون معه  
بالحسنى، وقبل كل هذا وبعده يحب وطنه الغالي

الذي أرضعته حبه مع لبني، عندما كان طفلاً،  
هل يملك نجيب غير الحب؟

قالت لي:

- لا أقصد هذا الحب.

وبعد فترة من الصمت:

- لكن.

- لكن ماذا قلتي بسرعة، قدري ظروفني، أبنائي  
كثيرون، لكن الذي أعتز به واعتبره ابني فعلاً،  
هو نجيب.

اختصرت عايذة الطريق بدأت من الآخر، آخر

الحكاية.

- قالت لي:

- في حياته امرأة أخرى.

قمت وجلست. عفت الطعام الذي أمامي، طارت  
رغبتي في شرب الشاي، حتى الصلاة، سمعت الأذان من  
أكثر من ميكرفون، ولم أشعر برغبة في صلاة العشاء  
حاضرة، قلت أصلبها قضاء فيما بعد.

مستحيل أن يكذب نجيب على □ فهو لم يكذب من قبل.  
أخفى عني ما تقوله عابدة، وما ذكرته البنات المتقصعة إن  
كان صحيحا، ولكن: هل يعتبر الإخفاء كذبا؟  
امرأة أخرى: كيف؟ ومتى؟ وأين؟!

ثم والأهم. إن فرضنا أن هناك امرأة أخرى، فكيف  
عرفت التي أمامي؟ ربما كان في الأمر ملعوب، مستحيل أن  
يفعل نجيب هذا، ولم مستحيل؟ أليس رجلا؟ أليس من حقه  
مثنى وثلاث ورباع؟ قالت امرأة في حياته، ولكن الأمر لم  
يصل إلى حدود الزواج، لماذا التسرع؟ لماذا أتعامل مع  
الأمر كما لو كان قد حدث فعلا؟

سألتها:

– أي امرأة؟

قالت عابدة باختصار، وبنطق بطيء:

– امرأة أخرى عرفتها.

كان الأمر صعبا، ربما كان الكلام، مجرد الكلام.  
يسبب ألما لا يطاق، ولكنني اعتبرت أن الكلام يوفر لها حالة  
من التنفيس.

سألته:

– عرفتها؟

تراجعت –

عرفت رقم تليفونها، وعملها وعنوانها، عندي كل البيانات.

سألته وأنا أحاول إبعاد الكارثة:

– هل أنت متأكدة؟

قالت:

– كما أنا متأكدة إن حضرتك تجلسين أمامي الآن.

سألته:

– وإلى أين وصل الأمر بينهما؟

قالت:

– هذا ما لا أعرفه.

تساءلت: وهل يمكن أن يصل الأمر إلى ما هو أبعد من تعارف عابر؟ لم ترد علي، قلت لها وأنا أحاول أن أخفف من وقع المسألة:

– الغربية لها أحكام، من ليس معنا حجته معه، التي قد لا نعرفها.

قالت لي:

– إن المرأة الأخرى تعيش في مصر.

المشاكل التي تعرضت لها كوم. وهذه كوم آخر. كان كل جهدي ألا أبدو كما لو كنت أعرف، عندما قالت عابدة إن معها تليفون المرأة الأخرى، رمشت عيناى، ربما كان نفس التليفون الذي معي، الذي كانت البنت المفعوفة حريصة على إعطائه لي.

مسألة هل أستطيع أن أمثل؟ القصة تبدو كما لو كانت لغزا من الألغاز؟ أو حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة؟ يطول شرحها. تهت مع الكلمات، أو حاولت أن أبدو هكذا، امرأة أخرى في حياته هناك، من الطبيعي أن تكون معه امرأة بعيدة عن زوجته، وبعده يدفعه إليها.

الغريب والمثير أن المرأة هنا في مصر، وهو في الغربية،  
كيف وقع الأمر؟ قصة متداخلة معقدة، متشابكة الأطراف،  
لا بد وأن في الأمر خطأ ما، سأحاول الوصول  
إليه.

سألته: هل أنت متأكدة مما تقولينه؟

ردت على:

– مليون في المائة.

سألته:

– وكيف عرفت؟

قالت:

– هذا ما سأقوله لحضرتك، ولكن بعدين

كنت كالغريق الذي يتعلق ولو بقشاية.

سألته: وما الدليل على ما تقولين؟

قالت لي:

– هذا هو رقم تليفونها في مصر

كُتبت الرقم في ورقة وأعطته لي.

كيف أطابق الرقمين على بعضهما، دون أن تكتشف عايدة أنني أفعل هذا؟ أخذت الرقم منها، وضعته في قلب النوتة التي أدون بها كل ما أحب الاحتفاظ به، فيها الكثير من العناوين وأرقام التليفونات بما فيها رقم تليفون خرابة البيوت. هذه النوتة هي كل ذاكرتي التي أحملها معي أينما سرت، وإلى أي مكان اتجهت، لا أتركها. وضعت الورقة في قلب النوتة، أجلت تدوين الرقم في النوتة، بعد المطابقة بين الرقمين إلى ما بعد.

وضعت يدي على خدي، لو كنت في الحديقة التي أمام بيتي، لأحضرت عودا نكشت به التراب، أو لذهبت إلى المنجم لكي يقرأ لي الطالع، أو لانتظرت الغجرية التي تمر علي، وتضرب الودع، وتوشوش الذكر، وتقرأ ما يقوله الغيب خاصة طالع ابني.

كلما حاولت التعرف على مصيره، لم يقل لي أحد أنه ستكون في حياته أكثر من امرأة، شكله لا يوحي بذلك. كل ما فيه يؤكد أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين أي نقطتين.

سألته:

– هل تخانقتما؟

قالت: لا.

– هل حدث زعل بينكما؟

قالت: لا.

– هل استفضت في الكلام عن مشاكلك؟

قالت: لا، المكالمات على حسابه ومن السنترال،  
ويتكلم أو أتكلم في أضييق الحدود، ولا تخرج المكالمات عن  
السؤال عن الصحة والحال والاطمئنان على ولي العهد.

كانت تشعر بالغيرة من لهفته في الاطمئنان على ما  
في بطنها. عن ابنهما القادم أكثر من رغبته في الاطمئنان  
عليها هي؛ ولهذا ما إن شعرت بهذا الذي يجري حولها حتى  
انهارت.

عدت أسألها:

– تعرفينها؟

– لا.

كنت أحاول شراء الوقت بالأسئلة.

سألت:

- توجد معرفة مشتركة بينك وبينها؟

قالت: نعم.

كان السؤال الذي يلح على □ ويسبق غيره من الأسئلة:

- كيف عرفت ما عرفت؟

وكان هذا هو السؤال الوحيد الذي لم ترغب عايدة في الإجابة عنه، رغم إلحاحي في طرحه وعودتي إليه.

كنت ألفت حول الأمر من بعيد، وأدور، وأسال وأتساءل. وعايدة احتمت بصمتها، لكن بكاءها - وهي شحيحة الدموع - أكد لي أن ثمة مشكلة ضخمة.

كنت أقول عن زوجة ابني، إنها دخلت مباراة معه، في العقل والحكمة والرزانة، هو عاقل وهي عاقلة، هو طيب وهي طيبة، وأثناء الاستعداد للزواج، سمعت أحدهم يقول: إن البيوت السعيدة تقوم على صفات متناقضة عند الزوج والزوجة، فإن كان الزوج يميل إلى الحركة، فمن الأفضل أن

تكون الزوجة ميالة بطبعها إلى السكون. وإلا تحول البيت إلى ماتش كورة، أو إلى ملعب أو استاد، وإن كان الزوج بخيلاً، فيستحسن أن تكون هي مسرفة، وإلا تحول البيت إلى بيت يهودي، لكن توافق صفات عايدة ونجيب لم يفسد حياتهما معاً.

جلست أحاول أن أتذكر متى بدأت المصيبة، التي تهدد البيت الوحيد الذي يعينني استمراره واستقراره؟ كيف أخفى نجيب الأمر عني؟ ابني الذي كنت أقول عن صفاته ما لم يقله أحد عن صفات أحد، كيف استطاع الاحتفاظ بسرره بعيداً عنها وعني؟ مع أنه ليست له أسرار أمامي، إنه إنسان مغسول من الأسرار.

نجيب هو الوحيد من بين أبنائي الذي يمكن أن أجلس معه صامتة، يوماً كاملاً. لا أنطلق بكلمة. وأشعر أنني متفاهمة معه كل ما يعن له ولي، من أفكار وقضايا وحكايات.

استغرقت محروسة في تفكيرها، هل تقضي الليلة هنا أم تقوم وتذهب وتكمل مشوارها، ثم تعود؟ وإن قضت الوقت

كله هنا. ماذا ستقول لهذه المسكينة المظلومة؟ عليّ ألا أتسرع، ربما كانت ظالمة، ربما كان المسكين هو ابني.

هل لو تركت البنت أكون قد هربت، وتركتها في مواجهة مشكلة، حادة وعويضة هل هذا وقته يا سي نجيب وزوجتك حامل في أشهرها الأخيرة؟ تعكّن عليها بهذه الحكايات الغريبة، ربما لا يخرج الأمر عن كونه تفاريح شباب، فهو رغم أنه شال المسؤولية مبكراً، لا يزال في أول أيامه، وفي صدر شبابه، ومن حقه أن يعبث عبثاً بريئاً، وأن يلهو لهوا لطيفاً.

لكن الذي ليس من حقه هو إساءة اختيار الوقت الذي يفعل فيه ذلك، لم يكن هذا هو الوقت المناسب، لأن يقدم على هذا العبث الصبياني، كان عليه أن يؤجله إلى ما بعد الولادة.

لم اخترت هذا الوقت بالذات يا نجيب؟ وما زالت أمامك في العمر بقية وأوقات كثيرة؟! كنت أردد الكلام بين وبين نفسي، وإن كنت أحاول إقناع نفسي بالشك فيما قالتها عابدة لا بد من مطابقة التليفونين أولاً. ثم إن نجيب غير

موجود في مصر فكيف أنشأ قصة الحب رغم سفره وبعاده؟

إن كان الأمر صحيحا، لا بد من وجود موقف يمكن أن يؤدي إلى الحكاية، ثمه خطأ، ثمه خلل، ثمه نقاط ضائعة في الوسط مواقف ناقصة في الحدوتة، لا بد من معرفتها، ولكن ممن؟ هل يعقل أن إخوته يعرفون ما تقوله عايدة؟ من الصعب أن يكونوا على علم، وإن لم يكونوا يعرفون فمن الذي يعرف؟! هل كان يتصل بخطافة الرجالة – قبل سفره من مصر – من بيته؟! وألا يعد الاتصال خيانة لزوجته، وللمعاني الجميلة التي تمثلها في حياته؟

احترت. شعرت بضيق. اتجهت إلى التليفون. وجدت حاله مثل حالة التليفونات منذ ظهر هذا اليوم، قطعة من البلاستيك.. فقد حرارته. علي □ إكمال المشوار الصعب، فكرت في التخلص من بعض الملابس الثقيلة التي تلازمي صيفا وشتاء وفي الاعتدالين. أصبحت جزءا من شخصيتي تعود الناس على رؤيتي هكذا، مغطاة بطبقات من الملابس كان المرحوم يقول لي. إن ما يمنع الحر هو ما يمنع البرد، اكتشفت أن الليل قد يجعلني في احتياج لها. غطاء الرأس في الليل ضرورة. وبالطو مع أي مفاجآت برد ليلية أصبح لا بد منه. وحقيبة يدي لا أستطيع المشي بدونها.

قلت لعابدة. دون أن أقسم إنني سأعود لها، الناس تقسم عندما تعرف أنها لا تنوي تنفيذ ما تقسم عليه، كان ما بيني وبين عابدة نصف وداع، لم أقل لها كلمة واحدة، لم أطمئن خاطرها، وأريح بالها، سلمت وتركتها ومضيت.

لست متأكدة إن كنت سأعود أم لا. ألا يقولون إن اللقاء نصيب. ماذا يفيد تدبيرنا نحن البشر المساكين حتى نصمم على لقاء؟ أو نتواعد؟ الأمر عبارة عن نَفَسٍ قد يخرج ولا يدخل جسم الإنسان. رمشة عين تتم في أقل من البرهة وأصغر من الثانية، عدت ألوم نجيب على ما فعله، لم يكن لدي □ يقين. ولكن مجرد ما سمعته يبرر اللوم.

يا كسوفي المرة الوحيدة التي أحضر فيها إلى هذه البنت، ووجدتها في محنة، وهي البنت الجدعة المجدع. هربت منها. عمرها ما ردت سائلاً أو تقاعست عن الوقوف مع محتاج، كنا نقول عنها رجلاً، وكانت ترفض الكلام. تقول: إن البنت يمكن أن تكون جدعة، دون الحاجة للقول عنها إنها رجل.

كيف طاو عتني نفسي على تركها؟ والهروب؟ والمشى والرحيل؟ مع أنها كانت في أمس □ الحاجة إلى من

يقضي معها الليل. الزوج الغائب. والزلازل الذي يعاود مجيئه، والمرأة التي تحاول خطف رجلها. وقبل هذا كله وبعده، الحمل الذي في بطنها، أمانة العائلة عندها.

تركتها لوحدها؟ في حالتها، الوحدة نصف الطريق إلى الجنون، لماذا لم أعرض عليها أن تكمل معي المشوار؟ الحركة فيها بركة، الحركة هروب من مواجهة النفس. والنفس أمارة بالسوء، خاصة في مثل هذه الأحوال قد تأمر النفس بما هو أكثر من السوء. وأبعد من المشاكل.

صحيح أن بطنها أمامها مترين، ولكن أي تحرك أفضل لها من البقاء بين أربعة جدران، وتحت سقف فوقه الكثير من الأدوار، تكتم على نفس الإنسان. ماذا يمكن أن تفعل عايدة حتى الصباح؟ هل تملك أكثر من أن تأكل في نفسها؟ وتنكت في روحها إلى أن أعود إليها؟ هذا إن تمكنت من العودة.

كان يجب أن أكون أكثر صراحة معها، لا أعطيها ظهري، وأهرب منها بهذه الطريقة الغريبة، في المرات السابقة، لم تكن في حاجة لبقائي؛ لأنها لم تكن تعاني من أي مشكلة، كانت سعيدة، منطلقة، تمشي في الشقة كأنها تحلق

بين السحاب. تتكلم كما لو كانت تغني. تضحك فتكركر الدنيا من حولها.

هذه المرة كانت تستعد لدخول نفق حزنها المظلم، ما كان يجب عليّ أن أتركها، وأن أتخلى عنها. كان عليّ البقاء معها مهما كانت الظروف، خاصة إن المشوار الذي تركتها من أجله ليس مهماً، ماذا سيحدث للآخرين لو لم أمر عليهم؟

المكان الوحيد الذي كانت زيارته فرض عين عليّ هو شقة ابنتي المتغربة. الباقون يشيلون أنفسهم، يحملون همومهم، يعتمدون على أنفسهم، ليفترضوا إن أهمهم ليست على وش الدنيا، أو أنهم بدون أم أصلاً.

إلى متى سأظل أحملهم على أكتافي التي تعبت من كثرة الحمل وطوال سنواته؟ كل حمل لا يتعدى تسعة أشهر، وقد تكون المدة أقل. ولكني ولدتهم ومازلت حاملاً بهم. ولدت كل واحد منهم بمفرده. ومازوا يتجمعون بداخلي، وعليّ أن أستمر في حملهم، ما دامت لي في الحياة بقية. إلى متى يا ربي أخبرهم في حبة قلبي، من الآتي والمجهول والذي لا نعرفه ونخافه؟

يا كسوفي يا ندامتي.

توقفت في الشارع، وفكرت في العودة إليها، لكن عندما قلبت الأمر في خاطري. اكتشفت أن العودة أصعب من الاستمرار. إن عدت ماذا سأقول لها؟ كيف سأشرح موقفني؟ وبأي لسان سأحكي الحكاية؟ وأتكلم معها دون أن أخرجها. أو أن أشعرها أنها كانت في أمس الحاجة إلي؟

إن عدت إليها. أكون بذلك قد فضلتها على الذين لم أطمئن عليهم، مع أنهم من لحمي ودمي، وهل تصبح الدماء ماء؟ مهما جرى بين الناس من المحن والإحن؟

لا أحب مصمصه الشفاه حسرةً على الذين يقعون في المشاكل. وأهرب من نظرات الإشفاق على المساكين. أعتبر ذلك تحقيراً لمن نشفق عليهم. وتقليلاً لشأنهم، وإشعارهم أننا نفضل عليهم، وأنهم في أمس الحاجة إلينا.

لو عدت. ستنصبح عودتي إعادة فتح الجرح الذي لم يلتئم. وقد تخرج منه المدقة والقبح والدم الفاسد والديدان التي ربما كانت ميتة. لا يجب علي العودة ما لم يكن لدي كلام جديد أقوله عن حكاية المرأة التي تحاول خطف زوجها.

وربما تكون نجحت في خطف نجيب وأوصلتها إلى حالتها هذه.

المهم أن تخرج عابدة من البئر الذي سقطت فيه. حتى لا تنتقل عدوى الحزن والاكتئاب إلى الذي في بطنها؛ فتخسر الآن ولا تريح المستقبل، أخسرها وأخسر حفيدي. الذي سيكون حفيدي حقًا، ويعود ابني من غربته، فلا يجدها، ولا يجد ابنه الذي تغرب من أجل أن يورثه مستقبلاً أفضل. حتى يحقق له ما كان يتمنى أن يحققه لنفسه.

\*\*\*

لحظة خروجها من شقة وحيد قلبها، لاحظت غياب أحلى ما كانت تشاهده في صالة الشقة، فتساءمت، كيف فاتها ملاحظة غياب سلة كبيرة مملوءة بفاكهة الموسم؟ أول مرة شاهدتها تصورت أنها فاكهة صناعية. عندما اقتربت منها اكتشفت أنها فاكهة طبيعية.

ومهما مر الوقت. وجرى الزمان. ما إن تدخل بيت نجيب وعابدة. حتى تخطف عينيها سلة الفاكهة، التي تبدو

من بعيد كما لو كانت حديقة من الزهور، تملأ المكان بروائح جميلة. هي روائح الفاكهة الحية. التي تم شراؤها صباحا.

فاكهة؟ نعم. ولكنها تصبح عنوان خير، ودليل حياة. وأهم من الفاكهة. الطريقة التي كانت زوجة ابنها ترتبها بها. فاكهة بالألوان الطبيعية. وروائحها تعطر المكان. طول عمرها تحب أكل الفاكهة. وهي التي علمت أولادها هذه العادة. لكنها كانت تشبع في كل مرة من مجرد المنظر والروائح التي تشمها.

كانت أسعد لحظة تقضيها في بيت ابنها نجيب عندما تجلس وحدها. تتحسس الفاكهة، تحضر لها عايذة السكين والطبق والفوطة والماء الدافئ وماء الشرب.

كانت تنفر من السكين. تقول لو كان ممكناً تقطيع الفاكهة دون استخدام السكين. الذي يذكرها منظره بالدماء الحمراء. طول عمرها ما استخدمته في تقطيع الفاكهة. تقول إنه لو كانت في بطنها أي مساحة خالية لأكلت فاكهة. بعد قليل تكتشف أنها شبعت من المنظر. فمنظر الفاكهة يرد الروح. تقرب الفاكهة من أنفها وتشمها. ما إن خطت الخطوة الأولى، ونظرت إلى المكان الذي توضع فيه سلة الفاكهة. لم

تكن مكانها. حتى لو كانت فارغة. كان الركن ينقصه شيء يعطي هذا الجزء الجديد من الشقة روحه ومنظره.

خافت أن تسأل فتظن عايدة أنها تريد أن تأكل فاكهة. ربما نزلت وجرت واشترت فاكهة من الشارع. وبهذا تكون قد سببت لها كربا. لم تقل لها ماذا كان يعني سبت الفاكهة لها. شعرت أن البيت ينقصه شيء ما. كما لو كان عند مدخله شجرة ضخمة، مثل الأم الرؤوم وقطعت. كما لو كان أمام البيت بحر النيل وجف. أو تم ردمه. كما لو كان أمام البيت قطعة من الجنة. وتم تحويلها إلى جهنم الحمراء.

وقفت على محطة الأتوبيس. كانت مزودة من البواب برقم الأتوبيس. والمكان الذي ستغير فيه. هي في الطريق إلى عين شمس المنطقة التي جاء منها البواب حيث تعيش فيها بقية أسرته. منذ أن حضرت من الصعيد.

كان البواب قد عرض عليها أن يحضر معها. يوصلها؛ ليطمئن عليها، ويزور أهله، ويعود. شكرته. وإن كانت لم تقل له. إن ابنها لم يعرض عليها ذلك.

.. محروسة في طريقها إلى ابنتها نادرة. البنت الوحيدة التي حققت حلم أبيها وأكملت تعليمها. وصلت إلى الشهادة الجامعية. كان والدها يقول عنها العالمة.. يوم أن حصلت عليها. كانوا أسعد ناس في الحي وفي المنطقة. وربما في بر مصر. كان أبوها يعاير إخوتها – الصبيان قبل البنات – بها. يقول لهم إن البنت فعلت ما لم يقم به الرجال.

كلما تقدمت في التعليم. كان أبوها يقول. إن فرصها في الزواج أصبحت أفضل. بعد أن أخذت الابتدائية، قال إن عروسة بالابتدائية، أفضل من عروسة بدونها. ويوم أن بروزوالها الإعدادية، قال: إن ظروفها تحسنت. وعندما عادت ومعها الثانوية العامة. كانت سعادة أبوها لا يمكن أن توصف. طفرت الدموع من عينيه. قال إن طعم نجاحها يختلف عن طعم نجاح الأولاد؛ فهي بنت. وتعليم البنت سلاح في يدها، يحميها من غدر الرجال وخيانتهم.

ما إن استقرت في الجامعة. حتى تفرغ أبوها لها. ترك كل ما وراءه وما أمامه. وجميع ما كان مطلوباً منه

القيام به. واعتبرها قضية عمره الأولى والأخيرة. ينام ويحلم  
بيوم تخرجها. كان يصحو من النوم ويقول إنه رأى في  
المنام. رئيس الجامعة. أو وزير التعليم العالي وفوقهم رئيس  
الجمهورية. وهو يصافح نادرة.

كانت نادرة تلبس روبا أسود. وتضع على رأسها  
برنيطة سوداء. وكان ثمة شريطًا أبيض يحيط بصدرها.  
وكان التليفزيون والإذاعة. والصحف والجرائد والمجلات  
يصورونها.

أتى إليه الصحفيون. وتكلموا معه. سألوه وأجاب.  
وطلب منهم الحضور إلى البيت؛ حتى تتكلم الحاجة محروسة  
معهم. ويكون من نصيبهم الكلام مع البطلة: مع نادرة.

كانت أسئلتهم تدور حول المعجزة. التي حققتها نادرة  
في تعليمها. سألوه عن مواعيد مذاكرة دروسها. هل كانت  
تستعين بمدرسين خصوصيين أم لا؟ كيف كانت تنظم وقتها.  
متى تنزل من البيت؟ ما أحب الأوقات المخصصة للمذاكرة  
إليها. نهاراً؟ أم عصراً؟ أم صباحاً؟ أم في الليل؟!

قال لهم. إنها لم تكن تحب السهر في الليل. على عكس الشائع الذي تقوله بعض البنات المتفوقات الأخريات. سألوه عن اسمها: هل كان يقصد تفوقها عندما سماها بالندرة. النادر هو ما لا يتكرر في الحياة سألوه عن حكاية الاسم. قال لهم: إن أسماء أولاده تبدأ بحرف النون؛ لأنه وردت في القرآن الكريم آية تبدأ بالنون. وإنه كان يسعد عندما يذهب من أجل العزاء وكان المقرئ يتلوها.

قال لهم إنه فكر أن تبدأ كل الأسماء في عائلته بحرف العين. كان يريد أن يكون اسم ابنته عين الحياة. وحرف العين ورسوماته موجودة في المعابد الفرعونية القديمة. رغم أن الحرف لم يكن معروفًا في هذه الحضارة. لكنه ليلة ولادة ابنته الأولى لحظة سماعه لبكاء الطفلة البكرية، وبعد أن تأكد أنها أصبحت كائنًا حيًا. نظر في الصفحة التي كانت مفتوحة أمامه من القرآن الكريم بالصدفة. وقرأ "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، "نون. والقلم وما يسطرون".

يقسم أنه قرأها بدون نظارة. يحلف بالأيمان أن الحرف كانت مضاءة بنور رباني. جعله يقرأها بعينه

المجردتين. اللتين لم تعودا قادرتين على القراءة بدون النظارة. من يومها وهو يضع فتلة عند هذه الصفحة. ومن يومها ودون التشاور مع أحد في الأسرة. حتى دون التشاور مع محروسة. قرر أن يبدأ اسم كل ابن أو ابنة بحرف النون. هكذا قدر. وهكذا نفذ.

كانت المرة الأولى. التي تسمعه محروسة يقول هذا التفسير. عندما تخرجت ناردة في كلية الآثار. لم يسمعه أحد يقوله. من الابنة الأولى وحتى الابن الأخير. إنه كان يحتكر إطلاق الأسماء على أبنائه. وهي من ناحيتها لم تتدخل في الحكاية. لم تناقشه قبل الولادة في الأسماء التي يمكن أن تطلق على الابن أو الابنة. وأثناء الولادة لم تكن مشغولة بالأمر. كان يذهب إلى مكتب الصحة. ويقيد المولود. ويعود ليخبرها بالاسم الذي قرر أن يطلقه على الابن أو الابنة الذي كان يعده هدية من السماء لهم.

في مرات قليلة. كان يكتشف أن لدى محروسة رغبة في إطلاق اسم معين على أحد الأبناء. كان يقول لها – رحمه الله – تاهت ولقيناها، الاسم الذي تريدينه يصبح اسم

الدلع. الاسم الذي تنادي به الابن. ويصبح له اسمين. اسم في ورق الحكومة. وآخر نستخدمه في تعاملاتنا اليومية.

قالت. وهل من المعقول أن يكون الاسم الذي تطلقه في مواجهة الاسم الذي اختاره رب الأسرة؟ ثم إنها لا تحب حكاية أسماء الدلع التي اختلطت فيها أسماء البنات مع الصبيان. ولم يعد ممكناً معرفة الفارق بين الاثنين.

اكتشفت محروسة في وقفها أنه إن كان نادر قد تزوج من وراء ظهورهم فإن نادرة قد تزوجت رغم أنوفهم. غصبا عنهم. تختلف عن أخيها. إنها تزوجت بعلمهم. ولكن دون رضا منهم. فرضت عليهم العريس كرهاً وغصبا وبالعافية.

توظفت وعملت بشهادتها. أصبحت مفتشة آثار قد الدنيا في منطقة عين شمس، أليست بها الكثير من الآثارات المهمة؟ جاء عملها عن طريق مكتب القوى العاملة الذي لم يعد له وجود. كان والدها يقول لها: إنه كان يفضل أن تعمل في الجمالية أو القلعة. قالت له: ولكن هكذا جاء توزيعها. وهي سعيدة به.

كانت تعود كل يوم وتحكي لهم عن الحفريات وعن الأهالي الذين يحاولون سرقة الآثار، والتعدييات، ومحاولات البناء فوق أراضٍ فيها آثار والمحاضر والإجراءات، ورفضها القاطع لأي إغراءات من الناس. كان أبوها يقول لها: إنها إن صانت يديها تصبح ولا أدهم الشرقاوي في زمانه.

كانت أمها تتعجب من رميها في هذا المكان البعيد. مع أنهم يسكنون في الجيزة. والأهرامات قريبة منهم. نادرة كانت سعيدة بالمشوار الذي تطخه كل يوم مرتين. مرة في الذهاب وأخرى في العودة. ولم يكن أحد في البيت يعرف أن المكان لن يكون محل عملها فقط. ولكنه سيصبح مكان القسمة والنصيب. لم يعرفوا أيهما كان السبب في الثاني. العمل كان السبب في الجائزة. أم أن الجائزة كانت هي السبب في الشغلانة؟

فوجئوا ذات مساء بمن يطرق الباب طالبا يدها. كان غريبا عنهم وإن لم يكن غريبا عنها. كان يعرفها وكانت تعرفه. وكان يعرف كل أفراد الأسرة. وهذه المعرفة منها.

يبدو أن نادرة انفقت معه من وراء ظهورهم. أبوها هو الذي أدرك ذلك. وقال لمحروسة وهو نصف فرحان. ونصف غاضب. كان وجهه مشروخًا، عين سعيدة والعين الأخرى حزينة، ومحروسة كانت محتارة. هل توافق على العريس أم ترفضه؟!

لم تكن محروسة ميالة إلى العريس. كانت تفتش عن إحساسها نحوه. لم تحبه. لكنها أيضا لم تكرهه. وأبوها قال لها. إنه غير مطمئن له. وإخوتها قالوا: ماشي الحال. هي التي سنتزوج. وهي التي ستسعد به أو يتعسها.

كان أبوها يتكلم معها بهدوء قاتل. كان يتكلم عن زرعة عمره البناتي. عم أنفقه وفعله وقام به. وماذا كانت نادرة تعني بالنسبة له. كان يتكلم عن عقلها الذي يزن بلدا. كان لديه يقين أن تكون قد وصلت إلى هذه المرحلة من التعليم. ولا يكون عقلها قد أدرك كيف يزن عريسها بصورة دقيقة.

ترك لها القرار. قال لها معاك أنت بالذات يمكن أن أنصحك. أن أشير عليك ولن أتدخل في اختيارك. أنا غير

موافق وأمك غير مستريحة. وأشقاؤك غير مطمئنين. مع ذلك. ما ستقولينه سنوافق عليه.

فتحت فمها لتتطرق بقرارها. لكنه رفع يده في المسافة التي بينهما. وطلب منها الانتظار. أسبوعا. شهرا شهرين. قال: إن الاستعجال يؤدي إلى قرارات متسرفة. ربما كانت لا تعبر عن الصواب. أمامنا مهلة من الوقت.

عاد إلى الرجل الغريب الذي كان يجلس في الصالون. طلب منه المرور عليهم بعد شهرين.

وبوقاحة بالغة قال له:

– ولم كل هذه المدة؟

رد عليه نجم الدين:

– حتى نفكر في الأمر ونقلبه في رءوسنا.

أكمل الرجل الغريب:

– أنا ونادرة اتفقنا على كل التفاصيل.

قال له والد نادر:

– ولكننا نريد أن نأخذ وقتنا كاملاً؛ حتى لا يكون  
الرأي..

قبل أن يكمل الجملة. سأله العريس باستهزاء وقلّة  
أدب:

– هل ستؤسسون شركة؟ الدنيا تطورت يا عمي؟  
هل ستسألون عني؟ أنا أقول لكم كل شيء. بدلاً  
من أن تتعبوا أنفسكم سأحضر أهلي. إن كان هذا  
مطلوباً. رغم أنني لا أحب أن أفعله. فأنا الذي  
سأتزوج وليس أهلي.

كان مستعجلاً دون أن يقدم لها سبباً لاستعجاله. هل  
يريد إتمام الزواج في تاريخ معين – انهالت الأسئلة من  
الأسرة – هل هناك ملعوب يلعبه عليهم؟ هل هو متعجل يريد  
إتمام الموضوع قبل أن يكتشفوا أمره ويعرفوا حكايته؟ ألا  
يعرف أن العجلة من الشيطان؟! وهل يخاف أن يعرفوا مالا  
يجب معرفته؟ كان في الأمر أكثر من شيء غريب.

سألت محروسة ابنتها "نانو" – نادرة التي كانت تصر  
على مناداتها بهذا الاسم – لماذا يبدو العريس مستعجلاً كأنه

سيأخذ عروسه من على محطة الأتوبيس؟.. قالت لها. لا تنسب أنك في حبة عقل والدك. مثلما ينام نجيب في حبة قلبي وقلبه. هو يحب الابنة المثالية. والأم تحب الابن المثالي. شجرتي عمريهما؛ ولأن البنت أحب إلى قلب والدها من الأبناء. لا تنسي يا نادرة ما تمثليته له.

كان رد نادرة على أمها غريباً. كانت مع فؤاد على طول الخط. عن عمله قالت. إنه ضابط في جهاز حساس لا يجب أن يصراح به. قالت أمها لنفسها، البنت تقول هذا الكلام؛ حتى نخاف من مجرد جلوسه في الصالون. عن الغنى والمال. قالت: إن ما معه يكفي، وأكثر. عن الأهل والحسب والنسب. فهي لا تحب أن تخض أسرتها؛ لأن طاسة الخضة لم تعد قادرة على علاج خضات جديدة.

قالت أمها. ولكن في سرها. تحت القبة عفريت. عندما تكبر الحكايات أتوقع ما هو أبعد من الكذب وأقسى من النصب. لمحت أمها في كلامها ما جعل قلبها يوجعها. وجع طارئ وجديد. لم يكن له وجود، لم تقل نانو ما عندها، بقلب الأم أحست محروسة بالأمر. شعرت بشكة في قلبها أوجعت فؤادها كثيراً.

أوشكت نادرة أن تقول لي بصريح العبارة. إنها  
وفؤاد سيتزوجان. سواء وافقنا أم لم نوافق. ومن الأكرم لي  
ولها. ومن الأحسن لنا، ومن الأفضل لجميع الأطراف أن يتم  
الأمر بموافقتنا. لا أذكر أنها قالت الكلام بهذه الطريقة. لكنني  
فهمته هكذا. وكتمته بداخل قلبي. طمرته في أعماقي. ولم  
أحاول إخراجه إلى النور. مصيبة أن تقول ابنتي هذا الكلام.  
حتى لو كان بالتميح وليس بالتصريح. كارثة أن تصل  
الأمر إلى هذا المدى. قلت لنجم في الليل بعد أن نام  
الأولاد. إن نادرة ربما ترى في فؤاد ....

قاطعني:

– وهل مازلت تذكرين اسمه؟

أكملت:

– قد ترى نادرة فيه. ما لم نكن قادرين على  
رؤيته. من الواضح أنها تعرفه.

سألني:

– وهل قالت لك ذلك؟

قلت لا.

– هل كنت تعرفين بحضوره؟

قلت:

– لم أعرف. فوجئت كما فوجئت أنت في لحظة وقوفه على الباب. ولولا أنها هي التي فتحت له الباب لكانا قد صرفناه. قد تكون عرفته من عملها. وما دمتنا قد وافقنا أن تعمل فعلينا أن نتحمل النتائج المترتبة على العمل.

– قال والدها كانت عقلاً خالصاً. معظم اختياراتها صحيحة. وكل ما ذهبت إليه لا غبار عليه. لكنه خائف عليها. وهو لا يريد أن يقول لا ويرفض ويصلب رأيه؛ لأنه لم يضع يده على ما يجعله واثقاً من أنه وصل إلى الصواب. محتار هو، وحيرته وصلت به إلى السماء.

طلب من إخوتها أن يسألوا عنه ويطلبوا حوله، يحاولوا معرفة أي شيء عنه. عادوا بمعلومات متناقضة. بعضها يصعد به إلى عنان السماء السابعة. وبعضها الآخر ينزل به إلى ما تحت الأرض السابعة.

البعض قال ضابط كبير. ولكن في الناحية الأخرى قيل إنه لص محترف. قيل: إن في يده ثلاث شغلانات. هناك من أكد أنه بدون عمل. وأنه يجري وراء نادرة طمعا في مرتبتها؛ حتى ينام في البيت وهي تجري عليه. عاد من يقول: إنه من أسرة كبيرة. أخذت الحكومة أموالها. وإن والده – سمع أحد الأبناء – يعمل كناسا في الشوارع. وإن البدلة التي جاء بها إلينا بدلة وحيدة. وحذاء وحيد وقميص لا ثاني له. وربطة عنق لا يوجد عنده غيرها. عدة شغل يلبسها يوميا بعد الظهر؛ من أجل النصب على عباد الله، وعندما تتسخ يغسلها ويمكث في البيت حتى تجف.

تهنا في المعلومات المتناقضة. كل معلومة تنفي الأخرى وتهدمها. ولم يكن عندنا ما يوفر لنا القدرة على التأكد من كلمة واحدة مما قيل. اعتبر نجم الدين أن ما تعرفه نادرة عنه الفيصل. هي صاحبة الشأن، والآخرين غرباء. وما دامت راضية لا نملك نحن جميعا سوى الرضى بما يرضيها. لن نكون أكثر حرصا على مستقبلها منها.

تم الزواج بنصف رضى من جانبنا ونصف رفض. فؤاد أخذ جانبا عنا. لم يحضر معنا إلينا. وعندما نذهب إليها

لم يكن يرحب بنا. شكوت لنجم الدين من تصرفات فؤاد. قال لي العروسة للعريس والجري للمتاعيس. ونحن المتاعيس الذين كتب علينا الجري.

قال لي لا تكوني مجنونة. لا تحاولي هدم بيت ابنتك. إنه لم يتزوجها ونحن على البيعة. لم يأخذها ويأخذنا معها. تزوجها بمفردها. ما داما سعيدين. وما دامت لم تشك. فلنترك الأمر الله. هدفنا سعادتها. وما دامت سعيدة. لن نتكلم نحن؟

كنت أتوقع حضورها لتقول إنها لم تعد قادرة على الحياة معه. مع الزوج الذي كنت أراه لزجا. ولا أرى فيه رجولة حقيقية. ولا أعرف من أين يأتي بماله.

كلما سألته عن عمله. يقول لي عملاً غير الذي قاله في المرة السابقة أقول لنفسى: إن الكذاب ن لى. نادرة بدأت تصبح جزءا من المكان الذي أسكنها فيه. لم تكن تتكلم ليلاً ونهاراً – مثل أشقائها – عن التعزير إلى مكان يناسبهم. لم تكن تحلم بأي شيء أفضل مما هي فيه. كانت تصف أشقائها كثيري الأحلام. بأنهم يريدون الصعود إلى السماء. ولكن بدون سلام.

كانت تقول عن شقيقها ناجح إنه أضاع الممكن طلبا للمستحيل. ولم تكن تتزحزح عن هذه الجملة. وبدأ أشقاؤها يرددون الكلمة في البيت. ويقلدون نادرة وهي تنطق بها. ليلة زواجها. عندما قبلت السكن في عين شمس. وعندما عملت في آثار المطرية وعين شمس. ولم تسعِ للعمل في الأهرامات، قالوا عنها: إنها أضاعت الممكن طلبا للمستحيل. قالوا إن كل ما في المنطقة التي تعمل بها من الآثار شجرة يقال إن العائلة المقدسة استطلت بها في رحلتها الشهيرة إلى مصر.

شعرت بصداع. دخلت صيدلية من أجل شراء إسبرين. قال لي الصيدلي. قبل أن أقف أمامه. لو كنت أبحث عن المهدئات. لا توجد. قال لأكثر من زبون إن المهدئات والمنومات نفذت من الصيدلية. وكل الصيدليات الأخرى في المنطقة. وفي بر مصر. كان يقف بجواره شاب خفيف الظل. رفع يده بجوار أذنه اليمنى. وبدأ يغني:

– قلقوني وشطبوا الأجزاء خانات. يا ليل.

حتى الإسبرين لم أجده.

أصوات سيارات المطافئ تلعلع في الشوارع. وبعدها سيارات الإسعاف. والشوارع تحولت إلى جراجات. والسيارات تقف على شكل طوابير. والناس تحولوا إلى رجال مرور؛ مما زاد من تعقيد الموقف. والسيارات أصبحت محلك سر. تقف في أماكنها. لا التاكسي ينقذ الموقف. ولا حتى السيارة الخاصة. المشي على القدمين هو الحل. المشكلة أن مشواري طويل. من السيدة إلى عين شمس. حتى لو كانت عندي صحة الزمان القديم ما قدرت على القيام به.

الناس هجرت بيوتها، الكل في الشوارع، زاحموا السيارات. البيوت لم تعد أمانًا. ويا بخت من كانت حديقة عامة قريبة من بيته. أمه دعت له في ساعة إجابة. في ساعة كانت أبواب السماء مفتوحة فيها.

أثناء وقوفي سمعت كلاما يقال. الشائعات أصبحت أقوى من الزلزال. وكل واحد عنده أكثر من شائعة يرويها. والأرض التي انفتحت بالقرب من بحيرة قارون. وخرج منها البترول. مارء وصل السماء. ولكن لحظة خروجه حدث الزلزال. وهل هناك حلوة من غير نار؟! وسيارات

الإسعاف والمطافئ مازالت تقف في الطوابير. ولا يفعل سائقوها أكثر من إطلاق السرايين وضرب الجرسات التي أصبحت أصواتها مألوفة.

في الظروف العادية. ما إن يسمع الإنسان هذه الأصوات حتى يتساءل عن المصيبة أين وقعت؟ وما هي بالتحديد؟ حريق أو انفجار؟ أو بيت وقع على سكانه؟ أو عمارة حديثة تم غش مواد البناء فيها؟ حيث إن كل عمارة تبنى هي كارثة تحت التشطيب إلى أن يحدث العكس.

وقفت أتأمل ما حولي. إعلانات الشوارع. أفلام الحجر الداير. القاتلة. امرأة أيلة للسقوط. مهمة في تل أبيب. الحب والرعب. كرستوفر كولومبس، رحلة إلى المجهول، لجنة الإغاثة الإنسانية. الشتاء قارس والبرد شديد وإخواننا في البوسنة والهرسك في انتظار هذا البرد. البوسنة والهرسك. أمة تذبج وشعب إباد. مر بجانب شاب يردد جملة واحدة. كأنه حفظها عن ظهر قلب. وأنا أيضا حفظتها؛ لأنه كان لا يملك سوى ترديدها. تغريبة الدقيقة الواحدة. الموت للأحياء والدمار للمباني. هذا ما جرى عندما اهتزت أم

الدنيا. "إذا  
أزلت الأرض وأخرجت الأرض  
زلزالها.

أنقالها". صدق الله العظيم.

الأذن تسمع. والعين ترى. البوسنة والهرسك.  
يفترشون الأرض ويلتحفون السماء. الصومال شعب يقتله  
الجوع. الموتى بالآلاف جوعا وعطشا ومرضا وقتلا،  
والمئات يرددون: لا نملك الأكفان. النقابة العامة للأطباء.  
لجنة الإغاثة الإنسانية، ها أنتم مدعون لتنفقوا في سبيل الله.

ثم مر علي □ من يحمل ميكروفونا على كتفه،  
والموتور معلق في الكتف الآخر. وييده السماعية. كان  
يصرخ من عزم ما به:

مصر

كنانة الله في أرضه

ستظل محروسة دائما بأولياء الله الصالحين.

حفظها الله

وأوصى بها نبيه، صلى الله عليه وسلم

وكانت مثوى لأهل بيته دون بقاع الأرض

إن عدد الشهداء. أقل من قتلى حادث تصادم  
قطارين.

فالحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله.

وعدد العمارات المنهارة. بضع عشرات فقط..

كنت أبحث في سري عن نجوم المساء. وهي لا تبدأ  
في الظهور إلا مع مجيء الليل، ولن أراها. ذلك أن الأنوار  
في حالة سباق مع النجوم. تمتص قدرتنا على رؤيتها. غريبة  
نجوم السماء في هذا البلد. لا مكان لها إلا في القرية التي  
تركتها. وإن كانت هناك ثمة نجوم. لا بد وأن تكون من  
النجوم التي يراها الإنسان في عز الظهر. أين القمر؟ أين  
تلك المساحة من الفضة التي تكبر وتصغر حسب نظام  
معلوم؟

كانت بعض البيوت تنفك كسفينة في البحر. بدأت  
تستعد للغرق. بعد أن فشلت المقاومة. أجزاء من الأدوار  
العلوية سقطت. وقطع من مآذن مساجد وقعت على الأرض  
بالقرب من هذه المساجد، وكان يحيط بي ليل المدينة الملعلط  
بالأضواء الذي يبرق باللمبات من كل صنف. ومن كل لون.

كان الكلام قد تحول إلى مقارنة بين فكرتين. واحد يقول إن الزلزال بدأ في بحيرة قارون، ولكن آخر دس نفسه في الكلام وقال: إن جبل قطراني. القريب من الفيوم هو السبب. وإنه مركز الزلزال، وليس مركزه في القاهرة، وإلا لكنت قد هدمت منها أحياء بكاملها. إن الله قدر ولطف.

ثالث حشر نفسه في الكلام. وقال: إن بحيرة السد العالي. أوقفه رابع عن الكلام. وقال: إن اسمها بحيرة ناصر. وهو أصراً □ على كلمة السد العالي. المهم أن البحيرة هي السبب في الزلزال. وقد تكون السبب في زلازل أخرى قادمة. وأن الحل الوحيد هو تجفيف البحيرة بأسرع ما يمكن. واتهمه الشاب الآخر بأنه ساداتي معادٍ لثورة عبد الناصر العظيم؛ لأن السادات هو الذي غير اسم البحيرة من ناصر إلى بحيرة السد.

قال خامس إن جيهان السادات هي التي فعلت هذا. عندما كانت في زيارة للسد العالي. وشاهدت صورة بالحجم الطبيعي لجمال عبد الناصر باعتباره باني السد. فتأففت وأشارت للصورة غاضبة. فتم رفعها من مكانها بعد الزيارة مباشرة. وجرى تغيير اسم البحيرة في الأسبوع التالي.

كان يجلس بجواري في الأتوبيس رجل عجوز. بدون أسنان في فمه. يبدو أن عنده طقم أسنان يضعه في كوب ماء بجوار السرير قبل أن ينام. ولكن أين الطقم؟ هل وقع منه لحظة الزلزال؟ قال لي. إنه كان صبيًا عندما وقع الزلزال منذ أربعين سنة. وإنه كان وقتها أعزب. لم يتزوج. ترحم على زوجته التي يبدو أنه تزوجها. وماتت. وتخضبت عيناه بالدموع وهو يترحم عليها.

يوصل الحكاية. إن أمه. لم يترحم عليها. يبدو أنها ما زالت تحيا. وأنها لا بد وأن تكون قد تجاوزت المائة. قال إن أمه كانت قد وضعت له العشاء. وأن الزلزال أتى ليلًا. إنه متأكد؛ لأن النور كان مضاء □ ثم انطفأ.

وضعت أمه أمامه الطعام. وبعد الزلزال أشعلت لمبة جاز نمره عشرة. كانت موجودة في البيوت بكثرة. وكان في الطعام بيضتان مسلوقتان. بيض من بيض أيام زمان. حجم البيضة أكبر من بيض هذه الأيام.

يذكر عندما أتى الزلزال أن البيضتين تحركتا من الطبق. وخرجتا على السفرة. ووقعتا من على السفرة إلى الأرض. بتأثير قوانين الجاذبية أكثر من كونه بتأثير الزلزال.

وأنه عندما نزل ليبحث عنهما. كانت الدنيا قد اهتزت من جديد. وكان النور قد انقطع. وصوت النجفة التي كانت تهتز بشدة كان عاليا. وإنه احتمى بالسفرة التي كان قد نزل تحتها بحثا عن البيضتين اللتين وقعتا منه.

يتكلم شخص آخر في الأتوبيس. يقول: إنه في الخمسينات بعد الزلزال الذي يحكي عنه الوالد بشهور. يقاطعه الرجل الكبير. يؤكد أن الزلزال الذي يتكلم عنه وقع في النصف الثاني من الأربعينات إنه متأكد؛ لأن ذلك كان قبل ضياع فلسطين، يتكلم الشخص الآخر، يقول إنه وقع في القاهرة ما هو أخطر من الزلزال. حينما أظلمت الدنيا وامتأ الكون بتراب أسمر. وأظلمت الدنيا لفترة ليست قصيرة من الوقت. وأن هذا الظلام استمر ثلاثة أيام وثلاث ليال.

لم يكن أحد يشعر بطلوع النهار ولا مجيء الليل؛ لأن الظلام كان مستمرا. وأن حجم الحوادث التي وقعت في القاهرة. والتراميات التي اصطدمت. والسيارات التي تهشمت. والأتوبيسات التي دخلت في البيوت. لا يمكن أن يحصيها أحد. وإنهم قالوا يومها: إن هذه الغيمة السوداء أخطر من الزلزال. وأن الأفق كانت تنزل منه على البعد

أشياء سوداء. تمتص أي ضوء موجود في أي مكان في  
سماء القاهرة.

سأله مستمع ربما كانت رياح الخماسين؟ أكد له أنه يعرف  
الخماسين جيدا. في الخماسين يمتلئ الشارع بستائر من  
اللون الأصفر من الرمال القادمة من الصحاري. التي  
تحيط بالقاهرة من كل جانب. الخماسين يعرف أمرها.  
وأيامها محددة ويعملون لها ألف حساب. لكن ما جرى لم  
يكن يمت للخماسين بأي صلة. سأله الرجل الكبير في أي  
سنوات الخمسينات وقع هذا. قال له في آخر السنة الأولى  
منها.

النعمة التي كانت أسمعها كثيرا. عندما كان يتوقف  
الأتوبيس. ويصعد بعض الذين كانوا يجمعون تبرعات لبناء  
المساجد. كانت تركز على أن ما جرى كان غضبا من الله  
سبحانه وتعالى علينا. فالمعاصي ترتكب جهارا نهارا. تحت  
سمع وبصر الجميع. المعصية تعيش معنا. نمارسها أكثر من  
الوجبات الثلاث والصلوات الخمسة ولا نتحرك لمواجهتها.  
نحرص عليها ونتسابق في القيام بها.

كانوا يقولون عن الزاوية الحمراء والقصيرين  
والأميرية الصين الشعبية. وأنا أقول عن عين شمس التي أنا  
في الطريق إليها. الصين الشعبية فعلاً وقولاً. الزاوية كانت  
صين الستينات، وعين شمس صين الثمانينات والتسعينات.  
زحام رهيب. ترش الملح لا ينزل إلى الأرض.

يبدو أن الأرض تنبت الأولاد. وأن النساء يحملن  
ويلدن قبل اكتمال تسعة أشهر. ربما تكون الولادة بعد أربعة  
أشهر

أو خمسة أشهر. وإلا من أين يأتي كل خلق الله  
هؤلاء؟ وكيف تعيش ابنتي وزوجها في هذا المكان؟

الذي كان يفزع أولادي بعد كل زيارة لنادرة. أنها  
غسلت لسانها مما تعلمته وحفظته وذاكرته ونجحت فيه  
وحصلت به على الشهادة. آخر من زارها من إخوتها. قال:  
إنها شالت البرواز الذي كانت توجد فيه الشهادة الكبيرة التي  
حصلت عليها من فوق الحائط. وكان والدها قد بروزها لها.  
هدية منه. وطلب منها أن تعلقها في أعز مكان في شقتها.

استغربت. كدت أن أتخاقق معها. فقامت نادرة بهدوء وأعطتني البرواز؛ حتى أعلقه في البيت. ومن يومها وهو معلق في البيت في البلد. كنيشان من أهم النياشين التي حصلت عليها العائلة.

وصلت إلى البيت الذي تعيش فيه ابنتي نادرة. ثمة درجات في السلم قد تشقق وتكسرت. والدرابزين تمايل من مكانه. والجدران بدأت فيها مشروعات شقوق. طلب مني أحد الجيران أن أصعد من وسط السلم، ألا أقترب من الحيطان أو الدرايزين. ضرب كفاً بكف. وهو يقول. منه الله الزلزال.

كنت الوحيدة التي أصعد. كل الجيران ينزلون. يهجرون الشقق. ولكن إلى أين؟! قال الرجل: بحثاً عن حديقة نقضي فيها الليل. في كل حي أكثر من حديقة. إلا هذا الحي. الذي أنشئ بطريقة عشوائية. لا مفر من الذهاب إلى شارع جسر السويس. وبحر الشارع الواسع يمكن التعامل معه باعتباره حديقة.

وقفت على السلم أمام باب شقة نادرة. ضربت الجرس سبع مرات. أنا متأكدة من ذلك؛ لأنني عدتها بعناية.

لأول مرة يحضر لها من لم يتصل بها قبل الحضور. كان زوجها قد قال: إنه لا يجب هذه المفاجآت. لا بد من الحضور بموعد. ومع أن هذا لا يحدث بين أهل. فإننا وافقنا. ولكن كان من المستحيل تنفيذ شروطه اليوم. أين هي التليفونات يا حسرة؟

شعرت إن هناك أعينًا تنظر من العين السحرية التي في الباب. وهذا تكرر أكثر من مرة. سمعت أصوات أقدام تقترب من الباب ثم تبتعد عنه. وهرج ومرج وكلام بصوت منخفض. قلت ربما لا يكون قد وصلهم خبر الزلزال. قلت ربما كانوا نياما في هذا الوقت. الذي لا ينام فيه أحد سوى الذين تفرض عليهم ظروفهم النوم مثل المريض. قلت معهم عذره والبيوت أسرار.

في الوقت الذي كنت أفكر فيه في المشي والنزول إلى الشارع. وبهذا لا يكون قد نابني سوى طلوع السلم. والنزول من عليه. مع أنني سمعت أكثر من مرة. أنه في أوقات الزلزال لا بد من البعد عن السلالم؛ فهي أضعف حلقات أي مبنى. إن بقاء الإنسان معلقًا في الفضاء أفضل من مجازفة النزول من على السلم.

ما دام البيت سليما – قلت لنفسي ولكن بدون صوت  
– والهرج والمرج والنظر من العين السحرية مستمر فالأمر  
لا يستلزم الاطمئنان على شيء. لماذا فكرت في المجيء؟  
ابنتي في عصمة رجل. أو من المفترض أنه رجل. هكذا  
يقول لي شكله الخارجي وأوراق الحكومة.

رجل والسلام. والمثل الذي يرددونه في البلد. يقول  
ضل راجل ولا ضل حيطة. والله إن الحيطة أفضل من هذا  
النوع من الرجال. وما دام رجلاً. أو من المفترض أنه رجل.  
فهو مسئول عن حمايتها.

عندما كنت أضع قدمي على أول سلمة لكي أمشي.  
انفتح الباب عن وجه ابنتي. التي فتحت يديها بطريقة تمثيلية  
؛لكي ترحب بي.

.. أتى وراءها زوجها. اختلفا على الترحيب بها.  
 نادرة تصر على أن تدخل أمها إصراراً مبالغاً فيه. وهو  
 انطفاً الحماس الذي في وجهه. يوشك أن يقول لها. إنها  
 مادامت ليس لديها وقت. واطمأنت عليهم. فلا تمشي  
 قبل أن يوغل الليل في تقدمه. نظرت همست لنفسها إنها لا  
 تحب  
 تحب وجهه الكاذب.

لا تعرف لِمَ دخلت البيت؟ كانت مدفوعة بأمنية  
 وأمل. ربما كانت نادرة تعرف أي شيء عن باقي إخوتها  
 وعما جرى. تعرف أن زوجها قطع كل عروق المحبة التي  
 يمكن أن تصلها بأهلها ولكن لعل وعسى رحمة الله واسعة.  
 حقد زوج ابنتها وكرهيته. قطرة في بحر من الرحمة التي  
 تشمل الناس كلهم.

كانت تريد أن تسأل نادرة عن خطافة الرجال التي  
 توشك أن تخطف أباها. وكانت تريد أن تتكلم معها. عن  
 أخيها نادر الذي تحمل اسمه المؤنث وعن أختها نجيبة  
 الوحداية. التي تعيش بمفردها. كانت تريد أن تستعيد نادرة

من هذا الواقع الذي يأخذها. وهي تبدو كالمخدرة أو التي لا تدرك ما يجري حولها.

دخلت بين ترحيب ابنتها الذي شعرت من اللحظة الأولى أنه غير حقيقي. وفتور زوجها وحالة الكراهية التي تغطي وجهه. قابلتها أضواء حمراء في الشقة. شقة كالكهف المضاء باللون الأحمر. لون الدم. وبين قطرة الدم والقطرة الأخرى مساحات من الظلام.

سألت نفسها: ما الذي يجري في الشقة. عندما أصبحت في قلبها اكتشفت ألوانًا تختلف عن اللون الأحمر الذي قابلها في البداية. ما الحكاية؟ هم أحرار في بيتهم. يصنعون فيه ما يشاءون. ما لها ولهذه الأمور حتى تتكلم عنها. زوجها كان يعتبر أن أي كلام عن حياة نادرة معه. هو تدخل في شئونهم الداخلية الذي لا يصح ولا يجوز. وليس من حق أحد. مهما كانت درجة قرابته لنادرة.

تترف لها نادرة أول البشائر أخبار نادرة لا بد وأن تكون نادرة أيضا أصبحت ست بيت. تركت شغلها وجلست في البيت. أراحت نفسها من قطعة النفس جريا وراء الآثار

في المنطقة. وهي بدون سيارة. خاصة وأن الشغل لم يخصص لها سيارة.

سألته أمها عن السبب في القرار الغريب هل يطول أحد عملاً بجوار بيته؟ أو حتى في آخر الدنيا؟ أصعب ما في مصر هو الحصول على عمل، منذ أن عينت عن طريق القوى العاملة، والتعيين بالواسطة. كانت دفعة نادرة هي آخر دفعة تعمل بخطابات من القوى العاملة. اليوم يتخرجون ولكنهم لا يعملون، قالت أمها: هل كانوا يقطعون من لحم الحي حتى تصبح ست بيت بشهادة؟ التعليم الذي لا يوفر وظيفة لا لزوم له. ما أنفقوه عليها قليل إلى جانب ما دفعته لها الحكومة؛ مما يضاعف الخسارة بجلوسها في البيت.

قالت نادرة: إن تربية الأولاد أبقى وأحسن من الجري وراء الشغل وترك الأولاد في الحضانة، حيث يعود الطفل محملاً بعدد من الأمراض التي انتقلت له من الحضانة، وقائمة هذه الأمراض طويلة.

محروسة لم تكن معنية بهذا الكلام، ولم يكن يهملها الرد عليه، تذكرت أحلام المرحوم، الذي كان يحلم بلقب الدكتوراة نادرة. لم يكن يريد أن يرحل من العالم إلا بعد

حضور مناقشة رسالتي الماجستير والدكتوراه، اقترح عليها أن تكون رسالة الماجستير عن خط سير جيش الفتح العربي حاملاً نور الإسلام في الوجه البحري، وأن تكون الدكتوراه عن رحلته إلى الصعيد. وأن هذين اليومين اللذين ستناقش فيها الرسائل سيكونان أكبر عيدين في حياته.

لكنه مضى قبل أن تتحقق الأحلام، أوصاها – الست محروسة – أن تكون موجودة في هذين اليومين، إن لم يسعده زمانه ويكون موجوداً، الحمد لله – الذي لا يحمده على مكروهه سواء – أن رفع الشهادة من بيتها، وتركها العمل قد تما بعد موت والدها.

جلوس نادرة في البيت تحول إلى ما يشبه الصدمة، ولكن ماذا تفعل؟ هل ستحدث مشكلة في كل بيت تذهب إليه؟ هل ستخرج بخناقة من كل زيارة؟ عليها أن تتقبل الأمر والسلام، وتؤجل كل ما يغلي في نفسها إلى ما بعد.

كل ما مرت به اليوم من الأهوال مؤجل إلى ما بعد، وهي لا تعرف متى تأتي هذه الـ " ما بعد " . كان يمشي بجوارها الرجل الذي لم تستطع أن تبتلعه، الرجل الذي يقول لها إنه موظف ولا تعرف في أي وظيفة يعمل، ووظيفة

والسلام. أيا كانت أحسن من أن يجلس بجوار نادرة في البيت. نظرت له. لم تستشف أي شيء في وجهه، كان قادراً على الاختباء وراء عينيه بشكل جيد، كان مراوغاً من الصعب الإمساك به، مثل القرموط في الماء.

علمها زوجها، نجم الدين، أن كثرة الأسئلة، تحدث المشكلات، أكثر مما تجعل الإنسان يصل إلى إجابات تريحه من تعب حمل الأسئلة؛ ولذلك بلعت أسئلتها.

في المرات السابقة، كانت تسأل، وكان يرد عليها بكلمات كثيرة، كلها كذب، كذب في كذب، وهذه المرة لم تسأله، لم تكن تريد أن تنظر في وجهه، قالت ابنتها إنهم لولا الزلزال لكانوا في سابع نومة في هذه الساعة هي وزوجها وأولادها، تلميح لم يفتم محروسة أن تتوقف أمامه وتحاول أن تستوعبه، سألت نفسها، هل طلب من نادرة، أن تسرع أمها في الرحيل؟ أم أن تأوي إلى الفراش معهم بعد دقائق؟

دخلت محروسة الشقة والفأر يلعب في عباها، لم تكن قادرة على بلع ما يجري أمامها، ثمة جو من التواطؤ والمؤامرة يحيط بها، هذا الذي تراه مجرد مظهر لأمر أكثر خطورة لا تريد أن تعرفها.

ليتها أراحت نفسها، ولم تحضر. الناس أحرار في بيوتهم وفي حياتهم، عينها الشمال ترف، ورفها دليل شؤم، لو كانت العين اليمنى هي التي ترف لاعتبرت ذلك دليل خير، مصيبة ستقع، حتى لو رفت العينان معا لاعتبرته من الأمور النادرة الحدوث.

العين الشمال مرة واحدة؟! نذير مصيبة، دليل كارثة، مقدمة مأساة، وأشكت أن تمد يدها، تمسك بها رموش عينها الشمال، تمنعها من الرف، ولكن الرموش دابت، إن أمسكت أطلال الرموش، قد تخرج في يدها، ولا يبقى رمش واحد يوحد ربه في العين الشمال.

جلست في الصالة، كانت كل الغرف مغلقة ولكن ثمة أنوار تأتي من داخل الغرف، تطل من تحت أبوابها، وكما شاهدت الأضواء القادمة من وراء الأبواب المغلقة، فقد سمعت بأذنيها صوت همسات ووشوشات آتية من الغرف المغلقة، لم تصدق أذنيها، كذبتهما، تصورت أن التلفزيون مفتوح، أو أن الراديو يتكلم، وعندما تأكدت أنهما موجودان في الصالة وأنهما مغلقان، تصورت أنها أصوات الشارع أو

من عند الجيران، هذه ليلة ضاعت فيها الأبواب والجدران  
وذابت الخصوصيات.

سألت ابنتها عن حكاية الأصوات الغريبة من أي  
مكان قادمة؟ أشارت نادرة إلى الأبواب المغلقة، وقالت: من  
الغرف. خبطت أمها صدرها بقوة أوجعتها صاحت:

يا دي الليلة السوداء، أصوات قادمة من غرف  
مغلقة؟

كانت قد كذبت نفسها عندما شاهدت الضوء الذي  
يتسلل من تحت الباب، هذا اليوم ولا يوم القيامة، بهدوء قاتل  
قالت نادرة، إن عندهم ضيوفًا، أوشكت أن تشد شعرها،  
منعها وجود غطاء فوق شعر رأسها.

والهمس كان الوقت ليلاً، واليوم يوم الزلزال، ضيوف  
هذا يشغلون غرف البيت، وهم ليسوا نياماً، النور مضاء  
شغال، ضيوف ولا يجلسون مع أهل البيت، وهل  
معقول؟! يدخل دماغ من؟ كلام تضحك به نادرة على نفسها،  
ولكن هل يصلح للضحك به على أمها، التي شاب شعره،  
ليس من السن ولكن من هول ما رأته وقسوة ما عاشته؟

سألت ابنتها عن الأطفال حبة عينيها ونورهما، أين هم  
إن كانت الغرف مشغولة بضيوف تقول إنهم نيام؟ وتوشك  
أن تتساءل: نيام في غرف مضاعة كيف؟! إن الضوء يقلق  
النائم ولا يعد نومه نوما، ولكنها تحاول أن تسكت نفسه، أن  
تغلق فمها.

تجلس في الصالة تهامي الأسود – لم يعرفوا إن هذا  
هو اسمه الحقيقي سوى في لحظة كتب الكتاب. كانت نادرة  
تقول عنه فؤاد – زوج ابنتها؟ يأخذ نادرة إلى مكان قريب  
وتحدث الوشوشة. يتوشوشان. تتساءل: ما حكاية الوشوشة؟  
ابنها نادر يأخذ زوجته بعيدا عنها من أجل الوشوشة، وتهامي  
الأسود يأخذ ابنتها نادرة بعيدا، تتوقف: أي بعيد في هذه  
الشقق الضيقة؟ أي أسرار نبتت في هذا اليوم الغريب؟

ربما يتكلم معها عن القيام بواجب الضيافة لها، ربما  
يفكران في إخلاء غرفة من غرف ضيوف نص الليل،  
أغرب ضيوف سمعت عنهم، ربما يطلب منها نقودا؛ لكي  
ينزل حتى يشتري كازوزة يقدمها لأمها، أو ربما يشتري  
طعاما وفاكهة.

عادت نادرة إلى أمها، كانت مرتبكة بصورة من السهل ملاحظتها، خجلانة، حيرى، لا تعرف كيف تتصرف، ولا ماذا تفعل في الموقف الذي تواجهه؟ طلبت من أمها وهي توشك أن تذوب من خجلها، أن تقوم معها، وأن تدخل غرفة نوم نادرة وأن تتركها الصالة، أو شكت أن تسألها عن السبب. لكنها قامت. إنها في بيت ابنتها. ممن تخاف؟ ومم تخشى؟ وعدم السؤال أفضل.

رنت في خاطرها جملة كانت تسمعها دائما في خطبة الجمعة. لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم. لن تسأل. ربما كان في السؤال إساءة ما، كانت متأكدة من أمر واحد، إن ابنتها تحاول أن تخفي شيئا ما عنها، وهي من جانبها دفنت فضولها بداخلها، ولم تعد راغبة في معرفة الذي يجري، ولو كان هناك ما يخفيانه ستعرفه قبل أن تمشي وكل ما عليها هو الانتظار. كان التوتر يزداد في وجه ابنتها، وكانت نادرة – في محاولة للهروب تسألها عن أشقائها، سألت أولاً عن نجبية، فعرفت أنها بدأت بها، فحاولت أن تعابيرها وتقول إن نجبية دائما، محظوظة، وحدها نادرة، كانت ومازالت ابنة البطة السوداء.

كانت تقول هذا المثل دائما، رغم أنه قد يضايق زوجها، أليس اسمه الأسود؟ كانت نادرة ترى أن نجبية هي البكرية، أخت أمها أكثر من كونها ابنتها، لها مكانة في قلب الأم لا تعرف من أين أنت؟ ولا على أي أساس تستمر؟

قالت نادرة إنها تحب نجبية، رغم أنها أول من خذل والدها؛ كان يريد لها أن تكمل تعليمها، وتخرج مهندسة ري، وتعمل في مقياس النيل، القريب من البيت، الذي كانوا يتفصحون عنده وهم كبار، ويلعبون حوله وهم أطفال، ورغم الخذلان المبكر فإنها تحبها، أكثر من الحب نفسه.

تقول نادرة، وهي تندب حظها، إن كل التدهور الذي أصابها إنما بدأ بعد وفاة الغالي، الذي كان يقدم لها حتى نور عينيه، ولكنه مات لسوء حظها.. سألتها عن نادر فقالت إن أحواله لا تسر عدوا ولا حبيبا، سألتها عن أحوال ناجح فقالت إنها لم تذهب إليه بعد، لامتها. قالت لها: تذهبين إلى الذين تمكنوا من فتح بيوت، ولا تطمئنين على من ليس له بيت؟ كان يجب البدء به، كيف تطيقين البعاد عنه؟ ذلك أن ظروفه أكثر من صعبة.

كان يبدو على نادرة أنها تريد الكلام لمجرد الرغبة في الكلام، توتر داخلي وإلهاء لأمها وإبعادها عن أمر ما يجري في البيت. لاحظت الأم أنهم انفصلوا عن الضيوف المزعومين، منذ أن حضرت لا يجلسون معهم، ولا يضيفونهم، تركوا لهم الغرف وفي الوقت نفسه فهم لا يفعلون لها أي شيء يشغلهم عن الضيوف، مسألة غريبة وغير مفهومة، لولا هذه الحكاية. وكانت قد مشيت بعد حضورها كان لا بد من بقائها بعض الوقت حتى تنجلي الأمور.

سألت محروسة نادرة عن آخر مرة رأت فيها ناجح أخاها؟ تقابلت معه؟ زارها أو زارته، اكتشفت أن هذا لم يحدث، نادرة لم تذهب إليه، وهو لم يحضر إليها، تكلمنا عن نادي، فقالت الأم إنها لم تذهب إليه، فهو عفريت ولا تخاف عليه، عايرتها البننت، قالت إنها كان من الأولى أن تذهب إليه فهو فرداني، ووحداني، والزلال وتوابعه صعب على من يحيا بدوره.

يكون خيّل إلى المحروسة إن نادرة ربما تحاول بالكلام أن في هذا تدفعها إلى المشي، بدلاً من البقاء، المفروض أن الصبر أعز شيء في الوجود تحاول الحصول عليه

اليوم، تقول نادرة، على سبيل التوضيح والإيضاح إنها بعد أن أصبحت أما، مثل أمها، وهي لا تطيق فراق أبنائها لحظة واحدة، وإن أمها هي التي علمتها كيف تصبح أما؟ حتى دونما كلام، نقلت إليها هذا الإحساس الجميل في صمت نقلته دون أن تقصد نقله، تقلد أمها في أمومتها فقط.

صممت نادرة، ولم تجد الأم كلاما تقوله، وكانت نادرة تبحث عما يمكن أن تقوله، لكنها لم تجد عندها ما تقوله، ربما كان زوجها الذي اختفى يطلب منها الكلام مع أمها في الفاضية والمليانة، حطَّ عليهما صمت مفاجئ فرفعت نادرة أصابعها، تحسست قدميها، سوات شعرها، كانت تفعل ما يرد على خاطرها.

اسألت المحروسة نفسها، ٠ تحاول هذه البنت  
لم

الهروب؟ إلى أن شرخ سمعها صوت سكران. أحد السكرى. خيل للمحروسة أنه قادم من الشارع، هذا هو المكان الذي تعودت، عندما كانت تعيش في مصر أم الدنيا، أن يأتي منه صوت رجل سكران ولا يكون ذلك سوى في الليل.

ولكن هل من المعقول أن يسكر إنسان في مثل هذا اليوم؟ ألم يتعظ من الزلزال؟ من أين يأتي الإنسان بروقان

البال حتى يشرب الخمر؟ وفي هذا اليوم العصيب؟ ألا يدرك أن الزلزال هو عقوبة الله المفروضة على الجميع؟ الذين يسكرون والذين لا يسكرون؟ أو شكت أن تتساءل: وما ذنب الذين لا يسكرون؟ خافت أن يكون في ذلك قدر من الكفر، ومعاذ الله؛ فهي مؤمنة، ابنة مؤمن، أم لجماعة من المؤمنين.

قادمة أما في البلد فالشر لم يصل إليها، هذا الصوت لم نادرة تسمعه في البلد، من المستحيل أن يكون هذا الصوت من إحدى غرف بيت ابنتها المتعلمة، فخر العائلة، تعلمت وعرفت ما لم يعرفه حتى الرجال.

قالت محروسة: سكران يوم الهول الأعظم، هذا هو الكفر بعينه، كيف وجد عنده وقتًا ليفعل هذا؟ وكيف طاوعته نفسه؟ تكرر الصوت، جاءها مرة أخرى، يُبلى إليها ولم تصدق ما خُيل إليها، بعضها يكذب بعضها الآخر، شبه لها أن الصوت يأتي من الغرفتين المغلقتين اللتين ينبعث من داخلهما نور، حاولت أن تكذب أذنيها، سألت ابنتها:

– هذا الصوت ألا يأتي من الشارع؟

قالت لها نادرة:

– عليكي نور، من الشارع طبعاً.

أشارت المحروسة إلى الغرفتين المغلقتين مستفهمة، ردت عليها نادرة، هل هذا معقول؟! كانت الإشارة من محروسة لمجرد احتمال، واحتمال ضعيف، وكان الرد الاستفهامي من نادرة، تأكيداً لهذا الاحتمال. هاجمت فكرة لم تتطرق بها أمها، لم تجرؤ حتى على أن تقولها.

انفتح الباب عليهما فجأة، لم يكن فقط باب الغرفة. ولكن باب الجحيم، دخل عليهما رجل غريب، لم تره المحروسة من قبل، ولا تعرفه كان هو نفسه صاحب الصوت العالي، صوت السكران العالي الذي اتجه إلى نادرة مباشرة وهو مستمر في الصياح، مد يده عليها، أمسك بيدها شدها منها.

قال لها بنصف لسان، وهو يوشك أن يتطوح في الهواء القليل الذي حوله، إنه يريد الكلام معها في موضوع خصوصي، قدمت له أمها، قالت له:

نينة تزورنا، جاءت تطمئن عليهم بعد الزلزال، فيها الخير – قالت بصدق – كان الأول والأخير منذ أن حضرت أمها إن الأم هي الخير الباقي في الدنيا كلها.

سَلَّم على الأم والخمر تفوح منه، كانت رائحته كلها خمرا لا تشع من فمه فقط، ولكن من جسمه كله، كان في حالة سكر بين لا يستطيع حتى أن يقف على قدميه، لم يلتفت إلى الأم، لم يدرك السكران مغزى أن نادرة تعرفه على أمها، وتقول إنها ضعيفة.

كان يعرف هدفه، وكان مصمما عليه، أن يأخذ نادرة إلى داخل الغرفة، عنده كلام في موضوع مهم وخطير ومستعجل ولا بد من قوله على انفراد، كررت الرد عليه أنها الآن جالسة مع أمها، وليس لديها وقت لكي تتكلم معه، والست محروسة طلبت منه أن يقول ما عنده هنا في الصالة، أي أسرار بين رجل غريب ونادرة؟ الأسرار تكون بين الرجال فقط.

شد الرجل الغريب، السكران، نادرة بقوة، وقال إنه لا بد من الكلام معها على انفراد، السر سر، إن خرج من بين اثنين لا يصبح سرا، لا بد أن يقول لها السر. والآن وإلا

هد البيت على من فيه، لا بد وأن يوشوشها، فمه في أذنها، وهما بمفردهما. مثلما يحدث في كل مرة يأتي إلى هنا، إنه لا يحضر إلى البيت إلا من أجل أن يتجانس معها لوحدهما في غرفة مغلقة.

ملاً ما إن قال هذا الكلام، حتى وقفت نادرة، ثارت، هبت ضربته قلماً على صدغه الأيمن، كان له صوت طرقة المكان، وأسندته بالقلم الثاني على الصدغ الأيسر، كانت مفاجأة الرجل بلا حدود، هجم على نادرة يريد أن يضربها، والست محروسة تتابع الموقف بذهول وعدم القدرة على التصديق.

دخل زوجها تهامي الأسود في هذه اللحظة، منعه وثار في وجهه، وقال لحماته التي أوشك قلبها أن يتوقف، إنه كان يختبر أمانة زوجته وحفاظها على شرفها، وإنها لو وافقت على الدخول إلى الغرفة معه بمفردها والكلام معه، دون حضور رجلها، حتى لو تركت الباب موارباً لطلقها في التو واللحظة.

لعبة رجال، اختبار لا بد منه كل فترة، لحفاظ المرأة على شرفها، ولو سقطت في الامتحان، لمشييت مع أمها.

تكمل مع أمها مشوار الاطمئنان على باقي العائلة. الرجل السكران، طار سكره من القلمين، وصياح تهامي الأسود فيه، وأصبح يفظ مثل كل الناس العاديين، طلب استرداد فلوسه التي دفعها في أول الليلة السوداء.

تهامي سأله:

– أي فلوس يا فاجر؟!

رد عليه:

– التي تؤجر بها الغرفة بالساعة.

نظر تهامي الأسود إلى المحروسة، وقال لها عن الرجل السكران إنه مجنون يهذي، الزلزال أصابه بتربنة في المخ، منذ أن وقع وهو هكذا، يخلط بين الواقع وأمور لم تجر سوى في خياله، أو هام يتصور أنها واقع، ويصر □ على ذلك إنه مجنون.

قال لها إنه جار لهم. شقته في العمارة، وقد أحضروه في انتظار أن يجدوا طبيبا للأمراض العصبية يعطيه حقنة مهدئة، تجعله مثل الإنسان العادي؛ حتى يتمكنوا من نقله إلى المستشفى أو الذهاب به إلى السراية الصفراء.

نادرة كانت تصدق على كل كلمة ينطق بها تهامي بهزة من رأسها، وعندما كان يبدو عدم التصديق على وجه أمها، كانت تحلف بأيمانات لم تطلبها منها، على أن زوجها يقول الصدق والصدق نفسه، وأنه لم يكن يكذب في كلمة واحدة مما قاله.

لكن الرجل الغريب جلس أمام المحروسة، وقال إنه ليس مجنوناً وإنه في قمة عقله، وإن ذهنه لم يكن صافياً مثلما هو في هذه اللحظة؛ لأنه يكلفه كثيراً في هذا اليوم من كل أسبوع، عنده حالة صفاء، وقدرته على رؤية الأمور لم تكن بالدقة التي يشعر بها، وأن اليوم هو الاثنين الثاني عشر من أكتوبر سنة ٢٩٩١. وأنه وقع في حوالي الساعة الثالثة والرابع زلزال كانت قوته خمسة وستة من عشرة حسب مقياس ريختر، وإنه أكبر زلزال مر بالبلاد منذ حوالي نصف قرن وإن مثل هذا الزلزال لو وقع في اليابان – مثلاً – فإنها مستعدة لمثل هذه الزلازل أما نحن فغير مستعدين، وإن الخسائر ستكون ضخمة خاصة في الأحياء الشعبية، وفي البيوت التي انتهى عمرها الافتراضي، وفي العمارات الحديثة التي تم غش مواد البناء التي استخدمت في بنائها.

وإنه يأتي إلى هنا يوم الاثنين من كل أسبوع؛ لأنه يوم عطلته، فهو يعمل حلاقًا، يغلق صالونه ويأتي ليؤجر غرفة بالساعة، يدفع في الساعة الواحدة خمسين جنيهاً، مبلغ كبير أليس كذلك؟ فهو لا يملك مكانًا، إن كانت معه امرأة يحضرها وإن لم تكن معه امرأة فالست المحترمة – بنت الأصول – نادرة جاهزة.

هذا وأشار إلى ابنتها نادرة.

نادرة، وهاج زوجها، أما أمها فلا تدري لم قال

صوتت

كانت تميل إلى تصديق ما يقوله الغريب، الشواهد هي التي دفعتها لهذا.

قبل أن يتصرف تهامي الأسود ونادرة إزاء الحلاق.

كان قد تم فتح باب الغرفة الأخرى. التي كانت مغلقة خرج منها أربعة مرة واحدة، رجلان وامرأتان، كانوا بملابس شبه داخلية كانوا يسألون عن دورة المياه، أين هي؟! والمطبخ كيف الذهاب إليه؟ وكيف يمكنهم صنع فنجان شاي؟ أو عمل فنجان من القهوة؟ وأين يجدون كأسًا من الويسكي أو شوبا من البيرة؟ كانوا يتكلمون بألفة، وإحدى المرأتين الخارجيتين

من الغرفة كانت تقول لنادرة "نانو".

أكثر ما ألم المحروسة، التي لم تعد محروسة، أن المرأة التي كانت تلعب دور دليلهم، شبه العارية قالت لنادرة يا أم ناجح، كان الاسم يخرج من فم المرأة الخارجة من الغرفة المغلقة، أو التي كانت مغلقة، بألفة من نطقت به كثيرا من قبل، يبدو أن الأمر تكرر وأن الذي تشاهده جرى من قبل، يا ويلها. ليتهما ما أنت هذه الليلة إلى بيت نادرة، ليتهما ماتت قبل أن ترى ما رأيت، وتسمع ما سمعت.

شعرت أن رأس زوجها في قبره قد طُقطق، وأن عظام ظهره وهي التي تبقى حتى أبد الأبدين، قد انكسرت، سمعت صوت تكسرها. وأن الطوبة التي وضعوها تحت رأسه قد تحركت من مكانها، وأن رأسه معلق في الهواء. هواء القبر المكتوم، وقد يتعب بعد فترة من الوقت، وعليها أن تحاول الذهاب إلى القبر وتفتحه؛ حتى تعدل ما مال، وحتى تعيد الأمور إلى ما كانت عليه، ندر عليها أن تفعل ذلك لا بد. وأن تقوم به. لا يمكن أن تترك الأمور، إن المتألم الوحيد من كل ما جرى هو المرحوم.

من المؤكد أنه لم يتركها لوحدها، إنه معها، وهو يرى الموقف. لا بد أنه معها في الرحلة، وأتعب نفسه، ولم

يسترح في نومته الأخيرة، فضل أن يصحبها في رحلتها  
الخرافية؛ حتى يكون معها وقت الحاجة.

ها هو وقت الحاجة قد أهلاً وأطلاً وفرض نفسه،

الحزين الوحيد هو نجم الدين خسر رهان عمره الذي لم  
يراهنه عليه أحد خسر عائلته، رأس ماله، مشروع حياته،  
كانت محروسة تبحث عن عيني نادرة، تريد أن تلتقي العينين  
بالعينين ولو لبرهة أو ثانية، ولو لجزء من اللحظة من أجل  
أن ترى فيهما أثر الذي يجري.

كانت ابنتها واقفةً تحرق في الفراغ بدت لها كبقرة أو  
جاموسة تهضم وتجتز وجبة من البرسيم أكلتها، لم تكن تحس  
أو تشعر. لم يكن في وجه ابنتها شيء يمكن التعرف عليه،  
كل ما كان فيه احترق، ولكن بدون نار، لو كانت مكانها  
لتمكنت من أن تشق الأرض وتبتلعها.

ابنتها كانت تحاول أن تبدو طبيعية، عادية. وجهها  
مغطى بطبقة من اللامبالاة، وعدم الإحساس، سألت  
المحروسة نفسها، متى جرى هذا لابنتها؟ كيف لم تأخذ بالها؟  
وكيف لم تفهمه وتستوعبه؟ سألت نفسها: من الذي قاد نادرة  
في هذا الطريق؟ هل هو الزوج؟ هل هو العمل الحقيقي الذي

يقوم به الرجل العواظلي؟ الزوج الملعون، المشكلة أن كل واحد أو واحدة من أولادها سار في طريق بمفرده، سكة لوحده، دون أن يكون معه أحد من أشقائه، وأنها هي نفسها لم تدر ما جرى لهم.

الرجل الذي أفاق من سكره، وكان يتكلم، كما لو كان يقدم بياناً عما جرى، قال للحاجة إن الشقة إما تؤجر للقمار أو لعرض أفلام المزاج. عاد وقال "السكس". يبدو أنه قرر الانتقام. ضحكوا عليه، وقال لأجعل عاليها سافلها، أن يهد البيت على من فيه، ثم عاد ووصف نادرة بأنها جدعة وشهمة، ولم تقصر في القيام بالواجب، التقصير اليوم بسبب وجود الحاجة، إن كان صحيحاً أنها أمها، طبيعة العلاقة مع البيت ورجله – أو الذي من المفترض أنه رجله لا تجعله يصدق.

وقفت محروسة، كانت المرأتان قد دخلتا الغرفة بمفردهما، والرجلان واقفين يستعجلان المرأتين أن تنتهيا من ارتداء ملابسهما، حتى يدخل فيلبسا، الصمت لم يعد ممكناً، تكلمت. لا تذكر ماذا قالت، كانت تنطق بكل الكلمات التي

ترد على خاطرها، دون تفكير. تكلمت، كان كلامها هذيانًا لا يقوله سوى مجنون. تناجي البعيد، وتبكي بين يديه حالها.

تكلمت عن كل ما مرت به، عن سمكري السيارات المغلوب على أمره، وربما كان ما يجري أمامها يحدث في كشكه الخشبي، تقوم به زوجته الراقصة، تحدثت عن ابنتها التي تنتظر العريس الذي لن يأتي، وعن القاضي المتغرب وزوجته الحامل، والبنت التي تدعي أنها خطيبته، ونادرة آخر أمل تعلق به أبوها، القشة التي أنقذت أباه من يأس الأيام الأخيرة.

نظرت المحروسة إلى زوج ابنتها وهي تتكلم وكأنها تراه لأول مرة، شاربه على شكل خط أسود، منمق بعناية، ذقنه حليقة وشعره يلمع، مسبب ومكوي ومصبوغ، وسوالفه تنزل إلى ما تحت الأذنين، وصدرة يخرج منه شعر أسود.

كان يلبس جلابية بيضاء، وفي يده سبحة، وفي قدميه بلغة، ألا يبدو هكذا الذين يعملون في الكار؟! رنت في ذهنها كلمة واحدة: قواد. انسالت الكلمات من وعيها، مع ص، رجل يسهل المتعة للآخرين. تساءلت بصوت عالٍ أين

بوليس الآداب ليقبض على الجميع؟ وهي مستعدة للذهاب معهم كشاهد إثبات.

قالت لهم وهي ما زالت واقفة في الصالة، تشير إلى نادرة، هل تعرفون من هذه الابنة؟ ماذا أنفق أبوها عليها؟ كان يحلم أن تكون الست الدكتورة، كان ينام فتأتيه في المنام وهي وزيرة، وكان يقول لو حدث هذا فسيعين نفسه حارسا لها، يحرسها حتى من نظرات الأعين.

كانت تتكلم عن أمور، بدا على ابنتها أنها لم تعد قادرة على تذكرها، ولم تكن تشعر أن ما تقوم به خطأ، كانت مستسلمة وكان صوت محروسة قد ارتفع، والأطفال الذين كانوا نياما في الغرفة الثالثة من الشقة، استيقظوا وخرجوا من باب الغرفة، يفركون أعينهم من الدهشة.

ظهر الأولاد في الوقت غير المناسب، محروسة لم يكن لديها وقت للسلام عليهم، وأمهم حاولت إعادتهم إلى الحجرة، وعندما رفضوا ضربتهم بقسوة، كما لو لم يكونوا أبناءها.

هل يمكن أن يقسو قلب الأم على أبنائها لهذا الحد؟  
هل يَضربَ الطفل لكي ينام؟! إن الضرب لم يمكن محروسة  
من السلام على الأطفال وإعطائهم النقود بدلا من الهدايا التي  
جاءت من غيرها.

عندما كانت تأتي في المرات السابقة – هل كانت  
هذه الأمور تمارس في البيت؟! كان الأطفال يخرجون إليها،  
ينادونها ابتداءً من جدتو حتى ماما الصغيرة ونينة الكبيرة،  
يتعطر الجو بإنسانية تزيل عناء التعب. الحبور الكبير،  
والحنو البكر يجففان عرقها، ويعيدانها سنوات إلى الوراء.

توشك أن تصبح طفلة. ولدان وبنت. كم كانت نادرة  
مستعجلة في الخلفة؟ ألم يكن من الأفضل الانتظار حتى  
يتضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ لم شالت الهم  
مبكرا، ولد على اسم جده نجم الدين، والثاني على اسم خاله  
ناجح لم يكن والدهما راضيا عن الاسمين، كان يرى أن  
يسمي الكبير شريف والأصغر نزيه، الشرف والنزاهة أي  
شرف؟ وأي نزاهة؟ أما البنت قد سمتها أمها محروسة  
الصغيرة تميزا لها عن محروسة الكبيرة.

خرج الأولاد. فوجدوا في البيت خناقة. لا تعرف محروسة إن كانت قد وقعت من قبل، أم أنها تجري لأول مرة، خرجوا فتاهوا، كانوا يعانون من دهشة ما بعد الاستيقاظ من النوم، ومنه إلى التوهان في مفردات المشهد الذي كان من الصعب فهمه والتعامل معه بسهولة. والمشهد الذي وجدوه في انتظارهم وكأنه معد من أجل صدمة ما بعد الاستيقاظ.

دايا لم يتعرف الأولاد على جدتهم الحبيبة، ولم يرتّم الأولاد في أحضانها، ولم يطالبها أحدهم بالهدم والمصروف، ولم يقل لها إن فلوسها فيها بركة عن فلوس والدهم، التي لا يرونها سوى في الأعياد، وفلوس نادرة القليلة والتي نادرا ما تقدمها لهم، أليس اسمها نادرة؟ كل ما في حياتها نادرا، كانوا يطلبون منها تلك الطلبات التي لا تنتهي، وهي تستجيب وتجد سعادة في ذلك، مهما كانت تكلفتها المالية عالية.

كانت قد اقتربت من باب الشقة، وصوتها أصبح أعلى من أي وقت مضى، وأصبح كل ما يهم ابنتها نادرة

وزوج ابنتها ألا يسمع الجيران الكلام الذي يقال، فالفضيحة وراءه مباشرة.

ما إن فتحت باب الشقة، وأصبحت قدم في خارج الشقة والأخرى في داخلها، حتى بدأ زوج ابنتها يصيح وبعلو الصوت، ينادي على الجيران، يقول لهم لا تصدقوها، امرأة مسنة أصابها الجنون، الإنسان يفقد عقله مع مرور الوقت، فقدت عقلها من الزلزال، لا تمت إلينا بأي صلة، تشبه حماتي، ألا يخلق الله من الشبه أربعين؟ هذه نسخة من الأربعين التي تشبه حماتي، سقط بيتها ظهر اليوم على أولادها وأحفادها، ماتوا جميعا، ولم تتمكن من الوصول إلى أشلائهم فجن عقلها، والمجنون لا يصدقه أحد.

يتعمد أن يرفع صوته أعلى من صوتها؛ حتى يغطي عليها، أو يشوشر على ما تقوله، يحاول الوصول إلى أعلى صوت ممكن حتى يستمع الناس إليه، بدلا من الاستماع إليها، تحركت فتحرك. نزلت على السلم فنزل وراءها، حتى وصلت إلى الشارع كان يبدو مثل صبي العالمة وطبال الراقصة.

فكرت في زوجة ابنها نادر، في الصلة التي يمكن أن تربط بين زوجة نادر، وزوج نادرة. هل يعرفان بعضهما البعض؟ هل يتعاون معها في العمل. فكرت أن تعدل وتبدل زوجة نادر تصلح لأن تكون زوجة لتهامي الأسود، ولكن نادر ونادرة إخوة البديل لا يصلح، لا بد من بقاء الحال على ما هو عليه، إلى أن تقع معجزة، مع أننا لم نعد في زمن المعجزات.

سألت ابنتها – في الخيال – إن كانت مدركة لما تفعله؟ فقالت: نعم. كان لديها تصميم جنوني على المضي مع هذا الرجل، أصبح الصوت حاجزا بينها وبين ابنتها، أصبح نهرا لا يمكن عبوره بسهولة من أجل الوصول إليها.

عند نزولها، اكتشفت أن الدرايزين قد اختفى، وأن بعض السلام لم يعد لها وجود، كانت نادرة نصف شابة ونصف طفلة عندما ودعت أمها، أصرت على الزواج من الرجل الذي أحبته، قالت محروسة لنفسها: ذنبها على جنبها، ولكن لا النصف الشبابي وجدته في ابنتها، ولا النص الطفلي أصبح له وجود.

فكرت هل يمكن أن تكون لنادر زوجة أخرى غير هذه الراقصة؟ وإن كان هذا ممكناً فهل من الممكن أن يكون لنادرة زوج غير هذا النطع الذي لم يعد يعرف معنى كلمة رجل؟ إن كان في قاموس حياته مثل هذه الكلمة.

توقفت عن الكلام، سواء بصوت عالٍ، أو بصوت منخفض. كان من الصعب المواصلة. ليست مثله، وصحتها ليست في حالة صحته، لا تقدر على مجاراته، فضلت الصمت، التي فوق ابنتها، من لحمها. طلبت منه أكثر من مرة ألا يتبعها على السلم؛ فهي تعرف طريقها، ولن تفتح فمها بكلمة واحدة.

أصر على أن يتبعها، رغم توقفها عن الكلام، بلعت لسانها، والهمهمات أصبحت موجهة إلى داخلها، آخر ما تدريه هو توسلها له أن يتركها في حالها.

لا تدري ما جرى لها، أغمي عليها ووقعت على الأرض لحظتها فقط، عاد تهامي الأسود إلى الشقة، بعد أن تأكد من غيابها عن الوعي. مر الأمر بسلام، وبعد وصوله لم يخبر نادرة بما جرى لأمرها في الشارع.

كان في طريق عودته لا يتمنى سوى موتها، ألا تفيق، أن تكون النهاية، وألا يتعرف عليها أحد. إن كانت معها البطاقة. لن يتعرف أحد علي صلتها بهم، ولن تتسبب في وجع القلب، أو دوشة الدماغ، فأصبحت هي من طريق وهم من طريق، لن يلتقيا.

اجتمع الناس حولها، اختلط من يريد إنقاذها، بمن يبحث عن فرجة، ومن يحاول سرقتها، وكان هناك من جرى يبحث عن بق ماء، ومن نادى عن معه رشة كولونيا، قالوا: امرأة كبيرة في السن مسورقة وقالوا: غريبة وقالوا: مفرفة.

يمر وقت ويعود وعيها، تسمع من يقول: الدهن في العتاق، شربت السمن السائح في الأكواب، وأكلت اللحم البلدي قبل ظهور لحم الجمعية، وجدت نفسها في وسط أناس غرباء، وشاهدت وجوها لم ترها من قبل لا يعرفونها. ولا تعرفهم. وجوها مبلول. وبالقرب من فمها وأنفها أكثر من زجاجة كولونيا حتى تشمها. كاد زحام الزجاجات يمنع الهواء عن أنفها. اختنقت من الناس. أوشكوا أن يحولوا بينها وبين رحمة الله، لم تشاهد سوى الوجوه. حلقة من الوجوه، دائرة من الوجوه تحيط بها من كل جانب، والكل يحاول إفاقتها.

الدنيا مازالت بخير، رغم الشر الذي تركته في شقة ابنتها منذ دقائق، كانت متأكدة أن تهامي شاهدها وهي تسقط على الأرض، وأنه بأمر عينها. متأكدة أنه لم يفعل معها ما قام به الغرباء الذين لا يعرفونها. ولم يكلف خاطره أن يقول لنادرة ما جرى لها وهل بعد الذي شاهدته فوق شيء آخر يمكن أن يقال؟

انصرف الناس من حولها واحدا بعد الآخر. من ينصرف يقول لها: بالإذن يا جدي. آخر المنصرفين قال لها: تممي على ما كان معك، الأمر لا يسلم، قبل أن تقوم من على الأرض، كانت جالسة وحولها ماء وتراب وآثار أقدام، مدت يدها إلى المحفظة التي ورثتها عن المرحوم محفظة رجالي تشعر أنها محصنة ضد السرقة، روح المرحوم تحميها في أي مكان تذهب إليه. إن المحفظة فيها البركة. الأموال فيها تزيد ولا تنقص.

فتحتها. لماذا خيبت ظني هذه المرة يا محفظة الغالي؟! اليوم فقط أدركت معنى كلمة المرحوم؛ إنه ليس معي، رغم كل محاولاتي أن أوهم نفسي، أن حاسه ونفسه معي، يؤنس وحشتي ويبدد غربتي، ويقول لي في كل لحظة

لست وحدك، اكتشفت ضياع كل ما هو أموال وفلوس. وبقاء الأوراق: سركي المعاش. وكارت التأمين الصحي. والبطاقة العائلية ونوتة التليفونات والعناوين، لم يأخذوا الدواء؛ لأنهم قد لا يعرفون طريقة استخدامه وما إن كان مفيدا أو ضارا لهم.

غضبت في سرها على المبلغ الذي ضاع. فكرت في عمل هليلة، وإحضار البوليس، وعمل محضر، ولكن من سيجد الوقت للاهتمام بها؟ عمارات وقعت، وخلق قتلى وجرحى في المستشفيات، وهي تقول إن فلوسي ضاعت، ربما قالوا لها احمدي ربنا إن أنفاسك مازالت تتردد.

هل تقول الفلوس في ستين داهية؟ ربما كانت تقول هذا لو كانت في البلد، يمكنها أن تعيش شهرًا دون فلوس، الخزين في البيت. وتجر شكك على النوتة دون أن يطالبها أحد. الفلوس هي كل شيء. معك قرش تساوي قرشًا. معك قرش لا يقترب منك سمك القرش. ليس معك فلوس تصبح مهاتًا نليلاً في كل لحظة تمر عليك.

قضا أخف من قضا. الفلوس يمكن تعويضها، ولكن الأوراق من الصعب استخراج بدل فاقد أو بدل تالف لها.

كانت العملية ستتعبها. تعبا قد يصل إلى حدود البهذلة. ستلف وتدور حتى ينهد حيلها. بدون فلوس. ماذا ستفعل وجيبها خالٍ؟ مشكلة جديدة تضاف لمشاكلها وما أكثرها. ماذا يمكن أن تفعل؟ إلى أين تتجه؟ وكيف؟

تجلس بمفردها. تفكر في حالها. تفتش من جديد في أجندة العناوين التي معها.

.. لم يكن أمامي سوى الذهاب إليها، فأنا في عين شمس وهي في مصر الجديدة، كانت قد أصرت على إعطائي رقم تليفونها، وأنا في البلد، وكانت عابدة قد دونت لي بياناتها في ورقة وأعطتها لي. قالت إنها ستكتب لي رقم تليفونها، ولكنها دونت - علاوة على ذلك - كل البيانات التي تمكنت من جمعها عنه، ومن ضمنها عنوان بيتها.

لا حل سوى هذا.

لامفر.

لا مفر من ركوب التاكسي، وهو ما حاولت أن أتجنبه من قبل، أسمع عن ارتفاع أسعار التاكسي، أسمع أرقامًا فلكية، وحكايات يشيب لها شعر الرأس عن سائقي التاكسي، الذين يركبون ركابًا على ركاب، وسائقي التاكسي الذين يخطفون الراكبات، ويذهبون بهن إلى الصحاري البعيدة.

ركبت التاكسي من قبل، ولكن هناك فرق، ركبته من قبل في مشوار قصير، وتحت ضوء النهار الساطع، والنهار

عزوة لمن لا عزوة له مثلي، أما هذه المرة بالمشوار طويل، لا أعرف تكلفته بالضبط والوقت ليل. وكل مشوار في المدينة له أكثر من سكة، والفارق بين سكة وأخرى. يصل إلى ما هو أكثر من الضعف بل الأضعاف أحياناً.

لو خطفني سائق التاكسي وجري بي، يا حسرة لن يجد معي ما يستحق المغامرة، الفلوس وضاعت، صرت على الحميد المجيد، كل المشكلة أنني لن أجد من يقلق عليّ ويبلغ البوليس عن غيابي، ليس لي صاحب في هذه المدينة التي تسكنها الملايين.

قلبي عامر بأنه لن يصبني إلا ما كتب الله لي. توكلت على الله قرأت الفاتحة في سري، قرأت الصمدية، سلمت أمري الله وانتظرت، سيارة تاكسي قديمة، ربما كان هذا ضمناً، المهم أن توصلني، هل سأشتري السيارة؟ أم هي مجرد توصيلة؟

جاءت سيارة قديمة. أقدم من القدم نفسه، شكلها يقول إنها ربما عاصرت طوفان سيدنا نوح عليه السلام. كان السائق أكبر مني في السن، وأكبر من المرحوم لو امتد به العمر، وهذه ميزة تحسب له، كانت هناك راكبة تجلس فوق

الكنبة الخلفية، ترددت عندما رأيتها، من أدراني إلى أين تريد الذهاب؟ راكبة قبلي لا بد من توصيلها أولاً، ثم ربما كانت واحدة من العصابة التي ستخطفني، وهذا الرجل الكركوبة مجرد ديكور؛ لإيقاع الزبائن.

يبدو أنه قرأ أفكارني. أشار السائق للراكبة الوحيدة التي معه وقال إنها زوجته ولوجودها معه قصة سيحكيه لي إن كان من نصيبي الركوب معه.

شبان كنت قد تجنبت سيارات الأجرة الجديدة والكبيرة والفخمة، وتجنبت أيضا سيارات الأجرة التي يقودها حديثو السن. قلت إن كبار السن هم العملة الصعبة بين سائقي التاكسي. وكبير السن هو السائق الوحيد الذي يمكنه الصبر عليّ عندما أصل إلى المكان الذي سأتوقف عنده، حتى أصعد وأحضر الفلوس وأعود له، وإن وصلت ولم أجد أحدا - وهو احتمال قائم - يمكنه أن يواصل المشوار معي إلى أي بيت آخر أحب الذهاب إليه، حتى لو كان بيتنا في البلد.

وقفت السيارة ورجم أن أولادي كثيرا ما يحذرونني من فكرة الركوب بجوار السائق، يطلبون مني ويُلحون ولا

ينسون أن يفكرونني أكثر من مرة، أن أجلس على الكنبه الخلفية.

يقولون إن الجلوس بجوار السائق خطأ، ولكني كنت أريد أن أصبح قريبة منه، وأن أحكي له بعض ما جرى لي؛ لأنني لا أضمن أن التي سأذهب إليها يمكن أن تكون في البيت، وحتى إن كانت في البيت، فهل سأجد الفلوس معها في هذا الوقت من الليل؟

قبل أن أضع قدمي في السيارة، وأنا في الشارع والسيارة متوقفة رغم أن صوت موتورها كان يزحم المكان، رفعت صوتي وقلت له:

لا فلوس معي، الحالة جيم، أنا على الحديد، لا يوجد معي مليم واحد، وأن التي ستدفع الفلوس هي الست التي سأذهب إليها.

وعندما أصل عليه الانتظار لحين صعودي وعودتي بالفلوس إليه. قلت الجملة التي يرددها الناس في هذا البلد بمناسبة وبدون مناسبة، الشرط قبل الحرت ولا الفصال بعدين، إن قبله سائق التاكسي أهلاً وسهلاً وكان بها، وإن لم

يقبله أبحث عن غيره ويسهل له ربنا بزبون غيري يكون  
جيبه عمران ومحفظته دافية.

كان كنت قد فضلت الذهاب إليها بدون اتصال، التليفونات  
إنني لو مازالت لا تعمل. ليس عندي يقين، ولكن خلال وقوفي  
بالقرب مني كشك فيه تليفون، لم يقترب منه أحد، ثم  
تكلمت في التليفون لن تكون هناك فرصة لقول ما أريد قوله.  
والأهم من كل هذا أنني ليس معي ما يمكن أن أدفعه مقابل  
المكالمة التي ربما طالت أكثر مما أتصور.

ليس الخطأ ضياع الفلوس ولكن الخطأ الأكبر هو  
وضعها في محفظة وحيدة، حتى لو كنت أنفءل بها؛ لأنها  
من ريحة المرحوم. ابني نجيب القاضي كان من عادته أن  
يوزع فلوسه على أكثر من جيب، ليس خوفًا من السرقة  
فهل في بلدنا من يمكن أن يسرق قاضيا؟ ولكن لأنه كان  
يؤمن بالمثل الذي يقول: لا تضع كل البيض في سلة واحدة  
.وأنا لا أحب من الأمثال سوى البلدي.

مرة أخرى فكرت لِمَ تضيع الفلوس في هذه المدينة  
التي يتكلم فيها الناس بالفلوس؟ إن قلت سلامو عليكمو لأحد لا  
بدوأن تقولها وتقدم معها ثمن الرد عليها، وإلا لن يرد

عليك، ولولا الكسوف يطلبون منك ثمن الهواء الذي تستنشقه. والابتسامة التي تراها، لا بد من تسديد فاتورتها قبل أن تطالعها.

كل شيء في هذه المدينة لا بد من دفع ثمنه مقدما لم يكن مطلوباً أن أحكي لسائق التاكسي قصة حياتي ورحلتي بحثاً عن الاطمئنان المستحيل، عند أولادي، وأنهم بخير وأن الزلزال لم يصيبهم بسوء.

وسائق التاكسي لم يكن راغبا في الاستماع إلى المزيد على عكس سائقي التاكسي الآخرين، ولم يكن مهتماً بالفلوس، قال لي:

– خليها على الله.

وعندما شك أن الكلمة لم تصلني قال:

– ارمي حمولك على الله أنا، وأنت على باب الكريم.

ليست لي خبرة بشوارع مصر؛ حتى أتأكد أن السائق يسلك الطريق المختصر والقصير، ويراعي ربنا وضميره في سيره، وأنه لا يلف ويدور بي بدون مبرر. العداد كان لا

يعمل، مثلما أسمع عن كل العدادات في جميع التاكسيات في مصر. لم أكن أعرف الأتوبيس الذي كان يمكنني ركوبه حتى يوصلني، وهل يمكنني صعود الأتوبيس، ثم أقول للكمساري ليست معي فلوس؟ وحتى إن كان المحصل ابن حلال مصفي وقبل الكلام، ماذا سأفعل عندما يصعد المفتش ويبدأ في التفنيش على التذاكر؟

وإن كان المحصل بندري لا ينحدر من قرية، فلا بد وأن ينتهي الأمر في القسم. يوقف الأتوبيس بصفارة عالية ويطلب مني النزول أمام الجميع، دون أن يرف له جفن، أو أن تأخذه بي شفقة، والفرجة والجرسة، وربما الفضيحة ستكون من حق كل الركاب. حتى ولو كانوا مثلي قد حضروا صباح اليوم من الريف.

لم أفكر في المشي. لا أعرف المسافة بين المكان الذي أقف فيه، والمكان الذي أرغب في الذهاب إليه ولا أعرف الطريق، وحيلي مهدود وصحتي عدمت وقدرتي على تحريك قدمي تاهت ولم يعد لها وجود. المشي مضى زمانه وراح أوانه أصبح ذكرى من ذكريات الماضي.

لم أستجب لنصيحة أبنائي التي تقضي بمقابلة سائق التاكسي قبل أن يتحرك، ذلك أن عدم الكلام في الفلوس معناه أنني عند الوصول لا بد وأن أبدو كمن تكتشف ضياع فلوسها، وذلك من ورد الفعل على هول مفاجأة الرقم الذي يقوله سائق التاكسي.

وأنا قلت له على حكاية الفلوس وعدم وجودها، والطريقة التي سأدفع بها، ومن التي ستدفع له وهي الست التي أنا ذاهبة إليها، وإن كان لا يعرف حقيقة علاقتي بها، وبالتالي لا داعي للطمع في من جانبه.

هو رجل متقدم في العمر تبدو قدمه على باب قبره، وكلما اقترب الإنسان من نهاية كل النهايات غسل نفسه من أطماع الدنيا، التي تبدو لا معنى لها في مرحلة متقدمة من العمر.

عندما فتح فمه ليتكلم اكتشفت عدم وجود سنة واحدة في فمه، ثاني أترم أقابله في يوم واحد. تكلم عن الزلزال، قال إنه نزل من بيته بمجرد أن وقع الزلزال، مع أنه كان عائدا لتوه من الخارج، وهو عادة لا يعمل في الليل؛ لأن أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال شيئا

يكفي يعمل في فترة الصباح فقط قبل ظهر يده اليمنى  
وقبل باطنها وقال إن الرزق الذي أتى من هذه الفترة  
هو بذوره وزوجته بذورها وأقل القليل يكفي.

تصور أنه قد تكون هناك زيادة كبيرة في طلب  
التاكسي أكثر من المعتاد، والسيارة موتورها في حاجة إلى  
عمره، يؤجلها لضيق ذات اليد، ما يأتي يساوي ما يصرف،  
على أن السبب الجوهرى لنزوله خوفه من مجيء زلزال ثانٍ  
من تلك التي يقولون عنها توابع للزلزال الأول؛ فوجوده في  
التاكسي أكثر أمانًا من بيته القديم المتهاك الذي أوشك أن  
يقع، نزل إلى السيارة، ونزلت زوجته معه. خوفًا من أن  
يتركها لوحدها في البيت فينهد عليها. إن بقاء البيت بعد  
الزلزال الأول معجزة، مع أن بقاءه ليس معناه أنه سيبقى،  
يمكن أن يقع وهناك التوابع التي يتكلمون عنها.

كل ما فعله بعد أن قرر أن يقضي الليل في التاكسي  
ومعه رفيقة عمره أن يبتعد أثناء سيره عن العمارات العالية؛  
حتى لا تقع عليه. وأن يسير في نهر الشارع، وإن ركن  
التاكسي فليكن في الخلاء بعيدا عن أي مبانٍ.

وصلنا إلى مصر الجديدة، دخلناها، فوجئنا بارتباك المرور، كانت الشوارع مغلقة والتحرك إن تم – كان بطيئاً للغاية، والغبار يجعل الرؤية صعبة، إن لم تكن غير ممكنة، والأتربة يمكن أن تشاهدها. كان من الصعب رؤية سماء الله العالية من كثافة الغبار الطائر في الجو.

سمعنا أصوات سيارات مطافئ وسيارات إسعاف وسيارات نجدة. كانوا يفسحون لها الطريق؛ لتمر بسرعة. سمعنا ونحن نتلأأ في المشي بين إشارة وأخرى أن عمارة وقعت للتو في هذا الحي. وأن العمارة وقعت على من فيها، وأن سكانها الذين تصادف وجودهم في العمارة لحظة سقوطها ماتوا. طلبنا لهم الرحمة، ونظر السائق إلى زوجته نظرة ذات معنى، يطمئن على وجودها معه، وتقول نظرتة إن فكرته بنزولها معه جعلتها تتفادى مصير سكان العمارة التي وقعت. لم أشأ أن أسألهم عن الأبناء والأنجال والأحفاد والبنات والحفيدات؛ خشيت أن يؤدي هذا السؤال، إن نطقت به، إلى فتح دفاتر الألم والحزن والحسرة.

كما لو أن الزلزال وقع في هذه اللحظة فقط. هذا ما أحسست به وأنا أشاهد الناس، كانوا يتصرفون كما لو كان

يوم القيامة قد قام. تساءلت: هل وقع زلزال جديد؟ لم يرد عليّ أحد. كان خبر العمارة قد أصابنا بحالة من الارتباك. والسائق بدأ يتساءل عن مصير منزلهم العتيق. وجهت سؤالي له فقال: يجوز.

لم اختارت العمارة هذا التوقيت بالذات من أجل أن تقع؟ غريبة. شرح لي الرجل فكرة توابع الزلزال التي تكلموا عنها. إن بعض المباني يمكن أن تقع بعد فترة من الزلزال، ليس شرطاً أن تقع العمارات لحظة الزلزال. قلت: لا بد وأنها عمارة عتيقة، كانت ستقع بالزلزال وبدونه، اختلف معي. قال: إن مصر الجديدة من الأحياء الجديدة غير المعمرة وأقدم مبنى في الحي لم يكمل نصف قرن من عمره.

عدت أسأل سائق التاكسي عن أقصر الطرق إلى العنوان الذي معنا قال لي إن كل شارع في المدينة مرّ فيه ثلاث مرات. بعض الشوارع المشهورة مرّ فيها أكثر من مائة مرة. قرأ العنوان وتمعن فيه، وتعرف عليه وأكد لي أنه يمشي في أقصر الطرق إليه.

عندما قلت له، مرة أخرى، إنني لن أدفع له الفلوس إلا بعد أن أجد الإنسانة التي أذهب إليها، وهناك احتمال ألا

أجدها لم أكن أعرف حقيقة هل تعيش بمفردها؟ أم معها عائلتها؟ إن كانت وحيدة وصغيرة وجميلة في هذه المدينة. يخاف الإنسان عليها ألا أقول إنها تمشي على حل شعرها، ذلك إنني لي بنات وحفيدات، والكلام عن النسوان حرام. أنا حرمة وأعرف ذلك.

لم يبد□ عليه أي ضيق. قال ببساطة:

– الجيب واحد وليس هناك فارق.

طمأنني – أكثر مما كنت أتصور – على الفلوس التي كنت قلقة بشأنها.

في منتصف الطريق، وبعد أن ظهر موضوع العمارة الذي أصبح من المتوقع أن يؤخرنا كثيرا، عدت أتكلم عن الفلوس. كنت في حقيقة الأمر أحاول الهروب من حالة الذعر المستعادة التي بدأت تطل على الوجوه من حولي. أكثر من رغبتني في الكلام عن الفلوس.

حاولت زوجة السائق التي كانت تنام وتصحو متعاملة مع الكنبه الخلفية كأنها سرير في غرفة النوم تخصصها. ولكن الذعر والهلع الذي كنا نمر □ به، والأصوات

المتداخلة أيقظتها من النوم. حاولت أن تتكلم عن جحود الأبناء، لدرجة أنهم لم يفكروا في السؤال عن أبيهم، وعن أمهم. اللذين يعيشان بمفردهما في بيت قديم بعد الزلزال.

قلت: ربما نزلوا للسؤال والاطمئنان.

يبدو أنني استرحت لهذه الفكرة. قلت للزوجة والزوج إنهما عندما يعودان سيجدان عند الجيران الخبر اليقين عن حضور الأولاد من أجل الاطمئنان. نكّرتهما أن التليفونات لا تعمل من لحظة الزلزال وغياب التليفونات لا يوفر لهم فرص الاطمئنان عليهما.

تكلم الرجل وكانت المرة الثانية التي أرى فيها فمه الذي بلا أسنان وبدا كالبيتر. قال: ألا يكفي أنهم يتركونه يعمل على التاكسي في هذا العمر؟ رغم المراكز التي يعملون فيها؟ والدخول الضخمة التي تدخل جيوبهم؟ هل بعد هذا ثمة شيء آخر يمكن أن يقال؟!

بعد صمتهم أحسست أنني قد جاء دوري لكي أتكلم أنا أيضا خفت لو تكلمت. لو بدأت الكلام لما انتهيت مما أريد

قوله قبل الغد. ما عندي مثل ما يتألمان منه آلاف المرات.  
اكتفيت بالتعليق الذي يعطي الانطباع بالمشاركة فقط.

تساءلت: ماذا أصاب أولاد هذه الأيام؟ من أين يأتي  
لهم كل هذا الجحود الذي يشعرون به؟ ويتعاملون على  
أساسه؟ لم أكمل تساؤلاتي؛ لأن أحد الركاب أشار لنا،  
ورفض السائق أن يركبه. قال إنه لا يقبل وجود شخص  
غريب وهو مع أسرته؛ أدركت أنني وفقت في اختيار السائق  
الذي يمكن أن يوصلني بأقل الخسائر الممكنة. بل شعرت  
بالاطمئنان لأول مرة منذ أن بدأت رحلتي. لم أصبح معنية  
بالعثور على خطافة الرجالة التي كانت تبدو لي طوق النجاة  
الوحيد، لو لم أجدها سأذهب إلى عابدة. وإن لم أذهب إليها  
يمكن أن يذهب هذا الرجل وامراته معي إلى البلد، ويقضيان  
بعض الأيام هناك على الأقل أضع جراحي على جراحهما،  
ونبني من الجراح هرما جديدا يقال عنه الهرم الرابع، أأخذ  
دموعي مع دموعهما ونحفر لها نبلا جديدا، يصبح لدينا نبيل  
دمياط ونبيل رشيد ونبيل ثالث مع الدموع يصبح اسمه: نبيل  
الدموع.

كان يشكو من قلة العمل، العمل قليل رغم الزلزال، هل السبب وجود أم أولاده معه؟! جرحت كلمة الأولاد سقف فمه فخرجت وكأنه لم يكن يرغب في النطق بها، خرجت غصبا عنه ودون إرادة منه.

كان يتصور أنه سيعمل بصورة جيدة لم تحدث من قبل، خيّل له - لحظة وقوع الزلزال - أن الناس ستهج من بيوتها وتطفش منها، لا بد وأن كل الناس فعلت ما فعل هو. نزلوا إما بحثًا عن مكان عام يقضون الليل فيه أو لكي يطمئنوا على بعضهم البعض؛ ولأن التليفونات كانت معطلة - و لأول مرة - في كل أنحاء البلد، كان يتصور أن نصف سكان البلد سيكونون في الشوارع، يجرون ويلهثون ويبحثون وينتقلون من مكان إلى آخر.

الصورة في الواقع اختلفت، فالحركة قليلة والإقبال محدود وبسيط، مع أن هذا اليوم - بصرف النظر عن وقوع الزلزال من عدمه - هو يوم الذروة الأسبوعية في العمل، فهو أول أيام الأسبوع في الأسواق، وهذا الوقت المسائي الذي يصبح الجو فيه جميلاً يصبح النزول من البيوت رغبة عامة وأمنية مشتركة عند الجميع ولكن هناك أمرا غير

مفهوم حدث ربما فهمه فيما بعد ووجد له تفسيراً أما في هذه اللحظة، فليس عنده تفسير يمكن أن يقتنع به.

وصلنا إلى مكان قال لي فيه إن هذا هو العنوان، كان قد سأل مرة أو مرتين، مرة سأل عن الشارع وأخرى سأل عن رقم البيت. أكد لي أنه يسأل من باب التأكد فقط؛ لأنه يعرف المكان كما يعرف كف يده. أنساه الوصول الأمر الذي لم يفهمه.

بعد أن نزلت بدأ يستعد للمشي أنا التي أوقفته سألته هل نسي أنه لم يحصل على أجره؟ قال إنه متذكر ولكن بعدين. كان إصراري لا يقبل المناقشة أن ينتظرني. متذكر. وضعت حقيبتني على الكرسي الذي كنت أجلس عليه؛ حتى يضمن عودتي، وأقسم هو بكل الأيمانات أن آخذ الحقيبة معي، عرضت أن تصعد زوجته معي. قال لي: الدار أمان.

دخلت البيت، كان قلبي محاطاً بطبقة من الزبد. كل ما سألت عنه وأنا أوشك أن أطير من فوق الأرض من الحبور. كان رقم الشقة؛ لأن اسم صاحبة الشقة لم أكن أعرفه، ولم يكن من الذوق ولا من اللياقة سؤال عايدة عن اسمها.

هي لم تقله من نفسها. وأنا من جانبي لم أسألها، بل لم أفكر في ذلك. وهل من المعقول أن أسألها عن اسم امرأة تحاول خطف زوجها منها؟ قد تصبح هذه المرأة – لا قدر الله ولا كان والعياذ بالله – ضرة لها.

عايدة هي التي أعطتني العنوان ورقم التليفون وعنوان العمل، ولكن ما دامت لم تشأ أن تكتب الاسم بخط يدها، أو أن تقوله بلسانها، فهذا حقها وليس من حقي أن أفتح جرحها.

من المؤكد أن عايدة تعرف اسمها، ما دامت قد عرفت كل هذه البيانات عنها. ومن المؤكد أيضا أنها تجنبت ذكر الاسم. كنت مطمئنة لعدم معرفة عايدة بمشواري هذا بسبب سكوت التليفونات الأبدي. أصيبت بالسكتة القلبية. عايدة لن تكتشف غيابي في الوقت الذي سأفضيه عند خطافة الرجال، ذلك أن معرفتها بأمر حضوري قد يجرح مشاعرها، ويخلق مشكلة معها لا أعرف كيف تنتهي.

دخلت، ضربت الجرس، في أقل من الثانية كان الباب يفتح، هذا أسرع باب فتح في وجهي، منذ أن جئت من البلد وكان ساكنته كانت تنتظرني. كانت البسطة مظلمة،

والشقة من الداخل كانت مضاءة وعلى الضوء الخارج من الشقة رأيتني فعرفتني، سلّمت علي، لا أعرف من أين عرفتني؟ لكنها رحبت قائلة: أهلا يا طنط، وهي تقبلني قالت:

- يا أم الحبيب الغالي.

سألته وأنا أحاول وقف أي مشاعر في داخلي تكون قد تحركت تجاهها:

- كيف عرفتني؟! -

شدتني من يدي بألفة غريبة ودخلت. قالت:

- وهل سنتكلم ونحن نقف خارج الشقة؟

قلت لها وأنا أشعر بخجل شديد:

إن أموالني نشت، والتاكسي ينتظر في الشارع أمام

باب العمارة.

فهمت الأمر بسرعة. جرت إلى داخل شقتها، دخلت غرفة نومها، شاهدت ذلك في وقتي، أحضرت كيس نقودها وهي توشك أن تطير من فوق الأرض نزلت لكي تحاسبه،

تصرفت وكأنها كانت تنتظر أن أحضر إليها بهذه الطريقة.  
ليس معي فلوس، وتنزل هي وتحاسب التاكسي.

كنت واقفة أتطلع إلى الشقة الواسعة والفسيحة، يبدو أنه  
لا يعيش فيها سواها، لم يكن معها أحد، سعدت مبهورة  
الأنفاس يكاد قلبها يخرج من صدرها، سعيدة فرحة تلف  
وتدور حول نفسها، راقصة باليه أم مدرسة ألعاب رياضية؟

قالت لي إن السائق كان ينتظر من أجل الاطمئنان  
عليّ ☐ وإنه رفض أن يحصل على مليم واحد، أعطائها شنطتي،  
ورفض الفلوس. قالت إنه مشي، كان رفضه قاطعا ولم يكن  
حاله تمنا.

.. نظرت إليها. بنت من بنات هذه الأيام. جلد على عظم. لا أحب هذه البنات التي يشبه عودها قوام الرجال. البنات المعظمة. النحافة تعني الجوع. والجوع يعني الفقر، وأنا لا أحب الفقر من كثرة ما مررنا به في حياتنا.

وجهها هزيل. شعرها رجالي قصير.. ماذا وجد فيها ابني ليحبها؟ تبدو هادئة في عالمها الصغير. ولكنه عالم صمم من أجل الانتظار. كل شيء في انتظار الرجل. تكشف نفسها كخيوط من السمار. ألم يقولوا إن السمار نصف الحلاوة؟ مع أن البياض من وجهة نظري هو الحلاوة نفسها. تسير على الأرض وكأنها تحلق. أو تستعد للرقص. أراقب قدميها اللتين ترتديان جوربا أسود. والثوب يبدو كأنه جزء من جسمها.

طلبت مني الجلوس في الصالون دقيقة واحدة. سألتها أول سؤال خطر على بالي:

- ما اسمك؟!

ضربت صدرها بقوة كما يفعل أولاد البلد. قالت:

- محسوبتك ندا. لكن الاسم الذي في أوراق  
الحكومة هو: صولجان. والذي أطلق علي ندا  
هو ابن حضرتك. اسم دلع يعني. ومن حبي له  
تناسيت اسمي الحقيقي.

دهشت من اسمها الأول: ندا حتى حرف النون حافظ  
عليه حبيب عيني، وهو يحاول أن يخطو بعيدا عن بيته وأهله  
وزوجته. أما الاسم الذي في أوراق الحكومة كان صعبا  
علي. كان حبيب قلبي عنده حق عندما أطلق عليها الاسم  
الجديد. ما معنى صولجان؟ أليس هو هذا الشيء الكبير الذي  
يوضع على رءوس الملوك والسلاطين في المسلسلات  
التاريخية التي يعرضها التلفزيون في رمضان؟ الصولجان  
أليست كلمة مشتقة من السلطان؟!

كانت تقراً أفكاري. قالت إن اسم صولجان لا دخل  
لها فيه أهلها هم الذين أطلقوه عليها وهي في اللفة. لا تعتبره  
اسمها. هي ندا فقط وستقوم بعمل إجراءات تغيير اسمها حتى  
يصبح ندا هو الدلع واسم الورق الحكومي. وتنتهي هذه  
الازدواجية. ندا كان الاسم الأكثر جمالاً. كيف فات نجم هذا

الاسم؟ كيف أفلت منه؟ ولم يطلقه على إحدى بناته؟ كان أفضل من الأسماء التي أطلقها على الصبيان والبنات.

شيء من ريحة المرحوم. هل كان نجيب يضع ذلك في اعتباره عندما تعرف عليها واقترب منها؟ سألتها: كيف تعرفت على نجيب؟ قالت إن العصفورة هي التي عرفتها عليه. اكتشفت فيما بعد. إن كلمة العصفورة لازمة تستخدمها كثيرا في كلامها.

قالت ندا للست المحروسة:

– لو أن التليفونات تعمل. لاطمأنت على باقي أفراد العائلة – ما عدا واحدة فقط – بالتليفون؟

سألتها نينة محروسة:

– وهل تعرفين أرقام التليفونات؟

– نعم.

– وكيف عرفتها؟

– الذي يسأل لا يتوه يا نينة.

– ومن الذي سألته؟

– العصفورة.

نظرت إليها بعناية. نظرة طويلة وعميقة. هذه البنت تناسب ابنها نادي. مدرب الرياضة. نحيف. بسيط وبسيطة. رياضي ورياضية. فقير وغنية. شاب في أول أيام شبابه. وشابة توشك أن تودع شبابها.

لم تقل لي إنها رياضية. ولكن شكلها الذي لا تحبه، وقوامها الذي لم تسترح له. يقولان إنها تلعب أكثر مما تأكل. تنتنط أكثر مما تلغف نفسها.

ستكون خطة ماما محروسة أن تعرف ندا على نادي، وأن تربطهما معا. وبذلك ينجو نجيب منها. وتخرج زوجته من أزمتها، ويأتي ابنه. حفيدها الحقيقي، ولا يجد في انتظاره مشاكل تذكر.

كانت ندا تتعامل مع مامتها محروسة بألفة. كأنها تعرفها منذ سنوات. قالت محروسة: هذا من كثرة كلام المعدول عني معها. كانت محروسة حذرة تجاهها. فكل خطوة عاطفية تقوم بها تجاه هذه البنت تشعر أنها تخون بها زوجة ابنها عايذة. وأنها تغضبها دون أن تدري.

جاءت محروسة لكي تقطع ما بين هذه البنت وبين ابنها.  
لتبعدها عنه. لتجعل لها طريقًا غير طريقه، ليصبح

اللقاء بينهما مستحيًا إلا

لكن البنت تفرش لها دروبها من المحبة. تصنع  
بينهما سكة من رموش العين. ومن خفق القلب. تتعامل  
ببساطة. لم يعجبني منظر ساقها. أقول عن التي مثلها،  
رجلاها تشبهان أرجل المعيز. وهذه أكبر شتيمة يمكن أن  
أقولها عن امرأة.

سألتها وأنا أضع عيني في عينها مباشرة. لماذا لم  
تنزج حتى هذه السن؟ مع أن ظروفها تقول إنها زوجة  
مثالية؟ أي رجل يتمناها. لو قالت لي بنت بنوت كنت سأقول  
لها. بل بنت فاتها قطار الزواج. وهي تقف على أبواب  
العنوسة. قالت لي بهدوء إنها مطلقة.

امرأة غيرت فرشها، وبدلت رجلها. إما ضحية أو  
غاوية رجالة. نظرت لها. إن كان يمكن القول إن فيها لحما  
فإنه فوق فقط. كلما نزلت لتحت بدت النحافة. مع أن جمال  
المرأة يبدأ من كعبيها الحمر اوين. أول قدمها الذي يبدو مثل  
يد الهون جمالاً وحلاوة. أما هي فسلوعة في سلوعة. حاولت

الهروب من المقارنة بين عايذة وندا. كلما حاولت الهروب  
فرضت نفسها علي□. المقارنة في صالح عايذة. جمال  
وحضور وتعامل ونفسية. إيش جاب لجاب؟

سألت نفسي. أين ومتى وكيف أحب ابني هذه  
المطلقة. وماذا وجد فيها من الأمور التي لم يجدها في عايذة؟  
غريب أمر الرجال. وكيف أخفى عني الحكاية؟ كانت ميزته  
أنه لم يعرف الكذب. لم يكن يقول سوى الصدق. كأن الصدق  
يمشي على قدمين. وسط غابة من الأكاذيب. وكان انتشار  
واستشراء الكذب يجعله أكثر تصميمًا على الاحتماء بصدقه.  
ولكن هل يعد الإخفاء كذبا؟! لم أسأله عن هذه المرأة حتى  
أقول إنه كذب عندما رد علي□ وأخفي أمرها عني.

هل نسي نجيب أن عايذة حامل؟ كنت أسمع أن كثرة  
الكبت والفكر تولد الانفجار. مع إنه أهم ما يميزه هو عقله  
وتفكيره. كان وسيظل حبيب عمري. أبا عمري. ما إن هلت  
عليه المراهقة. وكنا نسير معا في الشارع. حتى يقولون إننا  
حبيب وحببية.

عن من المستحيل أن يكون ما بين نجيب وندا حبا. من  
ذلك النوع من الحب الكبير. إن ما بينهما لا يخرج

غرف النوم. ليس حبا. قد يكون بيعة وشروة. ولكن مشاعر  
لا.

دقت الساعة دقائق بطيئة. استمعت إليها محروسة  
بهدوء. اثنتي عشرة دقة. دخلت ندا لكي تحضر العشاء.  
وتحضر فاكهة كانت تنصرف كما لو كان شيء أعد في بيتها  
في انتظار الضيفة التي قضت العمر في انتظار زيارتها.

كانت تسكن في الدور الثاني. الأول بعد الأرضي.  
البلكونة الأولى. قالت إن شقتها في الأمان من أي زلزال.  
يمكن أن يحدث. كان في العمارة مصعد، ولكنها لم تكن  
تستخدمه. ومحروسة لم تفكر في دخوله. أصبحت الأدوار  
العليا كخة. ناطحات السحاب هرب أصحابها إلى أقربائهم  
الغلبة الذين يسكنون بالقرب من الأرض.

وفي الليل جاءت آخر المتمة. عندما عرضوا في  
التلفزيون فيلما عن مصعد تعطل بالركاب بين السماء  
والأرض. والذين شاهدوا الفيلم. كانت الأرض قد اهتزت  
بهم. ومازالوا في انتظار رحمة السماء.

قالت ندا لماما محروسة: لو عادت التليفونات للعمل ستكون في انتظارها أكبر مفاجأة يمكن أن تخطر على البال. قالت ندا لنفسها، لا بد وأن نجيب سيتكلم الليلة. للاطمئنان عليّ. وعنده سيجد أمه عندي سيكتمل المراد من رب العباد. وجه ندا جميل، فيه براءة من الصعب وصفها، لا يتناسب مع خطف الرجال. تفوح من البيت رائحة غنى ما. ومحروسة لم تشأ أن تتحول إلى محقق، وتسالها عن حكاياتها من طقق لسلامو عليكو.

محروسة فهمت من كلام ندا عن بعض الأدوات التي في شقتها. إنها أحضرتها معها وهي نازلة من البلد العربي الذي كانت تعمل فيه. ربما كانت في طريق نزوله إلى مصر. وكان نجيب في طريق الذهاب. عائدة ومسافر. ووقع التعارف وحدث المحذور. وجرت بداية الحكاية.

اتجهت ندا إلى التليفون. رفعت سماعته. استمعت إليها. قربتها من أذنها. عادت وهي تهلل سعيدة. قالت إن الحرارة في الطريق. ثمة وش في السماعه. يحدث قبل أن تأتي الحرارة. كلما انقطعت جرى هذا قبل عودتها.

جلست ندا تتكلم. سألت محروسة عن أشقاء نجيب.  
عن العائلة فردا فردا. واضح أن المعدول حكى لها. متى  
وأين وكيف قال لها كل ذلك؟ الوحيدة التي تجنبت الكلام  
عنها هي عايدة.

ذهلت المحروسة عندما اكتشفت أن ندا تعرف أن  
اليوم ذكرى المرحوم. سألتها إن كانت قد خرجت عليه في  
الصباح أم لا؟ الأمور دخلت في الجد. غاصا معا في  
الغويط. وصلا إلى أعماق الأعماق. معها حق زوجة ابنها.  
فالمشكلة عويصة. والكارثة كبيرة.

مع أن محروسة كانت تتصور أن عايدة تبالغ وتهول  
وتضخم من الأمر. معذورة تتعرض لواحد من فصول القصة  
الخالدة. المرأة تحاول خطف رجل من زوجته. كانت ندا  
نقيض عايدة. عايدة ممثلة وندا نحيفة. عايدة متحفظة إلى حد  
ما. ومن الصعب أن تقيم دروبها مع الآخرين بسهولة. وندا  
تضع قلبها على يدها. وترسم عواطفها على وجهها. عايدة لا  
تميل إلى الحركة. سكونية. عقلها أهم ما فيها. وندا تطير في  
الهواء.

عائبت محروسة نجيب في سرها. كيف استطاع أن يخفي الحكاية عنها؟ كنت أعتبر نفسي أقرب إليك من زوجتك. وأقرب إليك من ابنك الذي في الطريق إليك. ولكن النفوس أسرار.

أتأمل الوضع أمامي. شعرت أن الزمان توقف. والدنيا أخذت إجازة من الدنيا. والناس لم يعودوا هم نفس الناس، وندا كانت روحها لطيفة. وإن كان شكلها أقرب إلى الصبي. رحبت بالست محروسة منذ حضورها بصورة أفضل من أبنائها؛ فحزنت محروسة على نفسها وحالها.

ترحاب ندا وحنانها جعل ماما محروسة تؤجل الكلام عن مشكلة ندا مع نجيب إلى ما بعد. من كثرة دفاء تعامل الغربية معي. ازداد حزني على نفسي وأولادي وما فعلوه معي. أشفتت محروسة على ندا. كيف تغلق ندا الباب عليها وتنام؟ وهي وحيدة في وسط كل هذا الزحام؟ هل حاولت ندا اصطناع قصة حب مع نجيب؟ هل بنت حكايتها على أشلاء وبقايا وأطلال حكايته مع عايدة؟ كنت أتوقع حدوث هذا حتى وإن تأخر. فقد كان لا بد وأن يقع.

كانت ندا تتكلم. تقسم لمحروسة إنها كانت تتوقع الزيارة. وإنها فكرت في الخروج. لكنها فضلت البقاء لأن هاجسا قال لها. منذ أن وقع الزلزال. إن ماما محروسة ستكون في الطريق إليها. كان عندها يقين.

بعد ربع ساعة من دقائق منتصف الليل. رن جرس التليفون لأول مرة. كانت الرنة طويلة. معلدًا عن بدء عمل التليفون بعد الانقطاع الذي أكمل ثماني ساعات. قالت ندا: ترنك من الخارج: تساءلت ماما محروسة، من يعرفها من المحافطات؟ لا أحد. ندا وحدها تعرف. أنه التليفون الفريد. المفاجأة التي تكلمت عنها. كانت ندا أكثر من سعيدة ولكن محروسة لم تكن تحب أن يكون هو.

ما دام التليفون قد نطق. لا بد وأن كل التليفونات قد عملت في مصر. وهذا معناه أن التليفون في بيته يعمل. والتي في بيته. عايدة المسكينة. أحق بالاتصال. إن لم يكن من أجل الاطمئنان عليها. فليكن من أجل الذي في بطنها. الذي هو أحق من الاثنين معا.

رفعت صولجان السماعه. كان هو. استمعت إلى صوت المتكلم من الناحية الأخرى. تركت السماعه وصفقت.

قفزت في الهواء كما لو كان تؤدي رقصة. جرت نحو نينة محروسة ترحب. احتضنتها، قبلتها. رحبت بالاتصال التليفوني. قالت للست محروسة. ردي على التليفون يا نينة.

تتأقلت الست محروسة وهي في الطريق إلى السماعة. سبقتها ندا وجرت إلى السماعة. ليبتها جرت هي. ولكن هل تقدر على الجري؟ لتعبر عن عدم رضاها عن هذا الذي يجري

ندا هي التي كلمته أولاً. قالت له في التليفون بصوت عالٍ. سمعه حتى الذي كان يمشي في الشارع. إنها ستقدم له أحسن مفاجأة. أهم من النجاة من الزلزال. وأجمل من أنهم لم يصابوا بمكروه. أعطت السماعة لماما محروسة. دون أن تحدد له طبيعة المفاجأة. لم تتصور محروسة أنها ستكلم ابنها. هذا يفوق خيالها. لم تعد الست محروسة قادرة على الكلام. شكشكك الدمع عينيها. كانت تريد أن تسأله: هل كُلم عايدة أولاً؟ وإن لم يكن قد كلمها. كان يجب أن تشتمه. لكنها كتتمت الغضب. للضرورة أحكام.

بقدر ما كانت غاضبة منه. كان هو خجلاً من نفسه.  
يبدو أنه عمل حساب كل شيء. إلا حساب أن يجدها عند  
ندا. كان يتصور أنه نجح في الهروب بحبه لهذه المرأة.

كان يتوهم أن هذا الحب سر من الأسرار. لم يكن له  
هدف سوى الاطمئنان على ندا. فيجد أمه التي لم يفكر حتى  
في السؤال عنها. ربما حاول وفشل. وحتى لو حاول فأين  
كان سيجدها؟ وإن كان لم يتصل بعائده. فمن أين لها أن  
تعرف؟ إنه قلب الأم؟ حتى عندما تدعو على ابنها. فإنها تلعن  
من يقول بعد دعائها يارب؟

جاءت لحظة الكلام مع ابنها. وهي في هذه الأرض  
الغريبة. قررت أن يكون الكلام مغطى. ألا يكون كلامها  
واضحاً. تفهمه ندا. كان أكبر موضوع فكرت فيه. هو تفسير  
سبب وجودها هنا. جاءت بهدف إنهاء الموضوع. ومع هذا  
فإن اكتشافه وجودي هنا. بعيداً عن شرح الحكاية. يمكن أن  
يجعل الأمور تمضي في الطريق الذي لا تحب محروسة أن  
تمضي فيه.

لو شرحت وقالت. ستجرح ندا. وهي حريصة على  
ألا تفعل هذا. حسبت محروسة حساب كل الأمور ما عدا هذا

الاتصال. وهل تملك أن ترفض الكلام مع ابنها بعد أن وقعت  
المصيبة؟

هال ماما محروسة. أن نجيب لم يبدأ كلامه بالسؤال  
عن أشقائه. لاحظت – وقلب الأم قادر على التقاط هذه  
الملاحظات بسرعة – أن ثمة ارتباك في صوته. ضبطته.  
في موقف لا يحسد عليه. كان يهرب بالكلمات من الكلمات.  
يهرب من وقع اللحظة. يحوار السؤال عن حالها وأحوالها  
وأمرها.

تجيب باقتصاب. فالموقف لا يحتمل. لا بد وأن يفهم  
على البعد أنها غير راضية ولا تحب أن تفضح أمور عائلتها  
أمام هذه الغريبة. لاحظت أمه أنه نسي أمرين. كان من  
الصعب نسيانها مهما جرى. أولهما: أن اليوم هو ذكرى  
والده. والثاني: أنه لم يسأل عن عايدة وبيته وابنه. وإن كان  
النسيان الأول جريمة. فإن النسيان الثاني أكبر من جريمة.  
فإن كان والده يمثل ذكرى. فإن ابنه هو المستقبل.

أمه اندفعت وقالت له بكلام قليل وجمل مختصرة.  
وإن كانت المعاني واضحة. " الحامل بخير " لم يعلق. مرت  
فترة صمت. لم تسمع خلالها سوى خروشة الخطوط البعيدة.

وطنين الأسلاك، وبعض الأصوات المتداخلة. نظرت محروسة إلى وجه صولجان. وكانت النظرة بالمصادفة. ولكنها حاولت أن ترى رد فعلها على الكلام الذي قالته لابنها. خمنت محروسة: هل فهمت عن أي الحوامل تتكلم؟! قالت لابنها. على مسمع من صولجان. التي تقول إنه يجبها: والجنين شعر بالزلزال. ولم يعلق نجيب هذه المرة أيضا.

لم تستطع صولجان مواصلة اللعبة أكثر.. خظفت السماعه من المحروسة دون استئذان. قبل الوصول إلى النهاية الطبيعية للمكالمة. وقبل أن تقدم محروسة السماعه لندا. بعد أن تشبع من الكلام مع ابنها. وهل شبعت أي أم من ابنها؟! إن التي تشبع من ابنها لا تكون أما.

نجيب هو الذي طلب. وهو الذي سيكع ثمن المكالمة من جيبه. وفضحت صولجان نفسها. تعرف من هي الحامل؟ ومن هو الجنين؟ بدأت تتكلم معه. اكتشفت الوالدة أن الأمور المشتركة بينهما أكثر مما كانت تتصور. الأمر ليس مجرد نزوة عابرة مما قد يحدث لكثير من الرجال. الحكاية نمت وترعرعت وكبرت في غفلة منهم. وأولي الغافلات كانت زوجته. صحيح أنها تعرف. وأنها قالت لها. ولكن ربما

عرفت بعد أن أصبحت الحكاية حكاية. تتكلم معه بألفة لا تكون إلا بين الأزواج. وبتحاب العشاق. ومن المؤكد أنه يتكلم معها في الناحية الأخرى بنفس الطريقة. وإن كانت لم تسمع ما يقوله لها. شعرت أن ما يجري أمامها مصيبة ووقعت على العائلة، مصيبة تساوي كل ما شاهدته اليوم من مصائب.

بعد أن استفاضت في الكلام، وشرقت مع الكلمات وغربت. أوشكت محروسة أن تطلب منها السماع. أو أن تنهي المكالمة. ولكنها بدأت تصيح. تنادي عليه من طرف واحد. ثم مطت شفثيها. وقالت إن الخط انقطع. وضعت السماع. قالت. وهي تحاول أن تبدو متأكدة مما تقول: إنه لا بد وأن يعاود الاتصال. أوضحت أن ضغط الخطوط الدولية وصل إلى الذروة هذه الليلة؛ لأن كل إنسان يحاول الاطمئنان على أهله. استأنفت كلامها. وإن لم يتصل. ستطلبه فليديها خط دولي. خط عنده وخط عندها. هذه كلمة السر في الحكاية. خط تليفوني ساخن بينهما. من الطبيعي أن تكون النتيجة هي ما تشاهده بنفسها. انزلق كل منهما في عالمه الخاص. جلسا في مواجهة بعضهما البعض. لم تكن

محروسة مستريحة لما سمعته وشاهدته. ثمة توتر وقلق  
معلق في الجو. تعكر الهواء الذي بينهما. وإن كانت  
صولجان حاولت أن تبدو سعيدة.

شعرت محروسة أنه لم يبق أمامها عذر لعدم الكلام  
في الموضوع الذي جاءت من أجله. ولولاه ما جاءت.

سألته وهي تنظر في عينيها بتركيز:

– ألا تعرفين أنه متزوج؟

هزت رأسها دلالة أنها تعرف. أكملت بعد برهة:

– ولكن زوجته عاقر؟! فشلت في أن تمنحه طفلاً

يطلق عليه اسم والده. بي أو بدوني كان

سيتزوج. ما جريمتي؟!

سألته محروسة:

– من الذي قال لك؟

حاولت صولجان الخروج من الكأبة. فطرقت

أصابعها في الجو وقالت:

– العصفورة.

كان سؤال المحروسة الثاني الذي وجهته لصولجان: ألا تعرفين أن زوجته حامل. إن الجنين الذي شعر بالزلزال هو الذي في بطن عابدة؟

قالت ندا كلمة واحدة كررتها أكثر من مرة:

- مستحيل.

نطقها بالإنجليزية، وعادت تقولها بالعربية. ليست متأكدة أن محروسة تعرف الإنجليزية. ربما تصورت أنها تشتمها.

سارت كل منهما في طريق. طريقين متوازيين. لن يلتقيا. كان سؤال محروسة الثالث:

- وهل تعرفين أنه تغراب من أجل الذي في بطن زوجته؟ حتى يأتي إلى الدنيا فيجد ظروفًا أقل صعوبة من التي مر بها والده وجده؟

إجابة ندا عن السؤال الثالث. كانت بهزة من رأسها. مثل المرتين السابقتين. هزة من الرأس تعني نعم. تشجعت محروسة، ودخلت في قلب الموضوع. من خلال السؤال الرابع:

– هل تعرفين أنه زهرة أبنائي كلهم؟  
لم يعد لديها سوى هز رأسها. هزتها من جديد.  
صاحت فيها محروسة:

أريد سماع صوتك. لا أحب هزة الرأس.  
نظرت لها بانكسار:

– ماذا سأقول يا ماما؟!!

ماما؟! رنت الكلمة في خاطرها. غريب أن تنطق  
بهذه الكلمة. في هذا الوقت بالذات، هل هو الذي طلب منها أن  
تفعل ذلك؟ نصحتها بأن تنطق هذه الكلمة التي يعرف مدى  
قداستها عندي. إنه يعرف أن عايذة تناديني بها. وأني أكون  
في قمة سعادتي عندما أسمعها منها.

بلعت الكلمة. وصمتت. الأسئلة التي كانت عندي  
قلتها ولكن لم أحب أن أسكت. كان عندي كلام جديد أريد أن  
أقوله تكلمت – حتى لو كان الكلام مع نفسي – عن خراب  
البيوت. وخطف الرجال. وبناء سعادة الإنسان بشكل أناني  
على حساب سعادات الآخرين. عن الرجال الذي يجدون أن

كل نساء العالم جميلات ما عدا زوجاتهم. مرض أو مصيبة؟  
ولكن هذا هو الحاصل.

صولجان لم تتكلم. عندما تسمع أي كلام كانت تحرك  
رأسها. دلالة الموافقة أو الرفض. وما إن تتذكر نرفزة  
حماتها من تحريك الرأس. كانت تشير بيدها علامة النفي أو  
التأكيد. في كل الأحوال لم تتكلم.

كان يتجمع في عينيها مشروع دمة. لم تخرج إلى  
الوجود. ورغم تعكر وجهها. ورغم الغضب والحزن  
المكتوم. الذي بان عليها. إلا أن براءة الأطفال ظلت تشع  
منها. وتطل من عينيها. وتحاول أن تصل صولجان  
بالمحروسة. من خلال تصرفاتها البسيطة. ومحروسة كانت  
محتارة. كانت تود أن تنصرف. بعد أن تبرر حكاية  
الانصراف الذي لم يكن متوقعا.

تكلمت محروسة عن ابنتها نجبية. حكّت عن ابنها  
نادر. كانت تريد أن تعيد حكاية ابنتها نادرة. أن تلوم نجم  
الدين النجمي على أنه رحل مبكرا وتركها. خانها ورحل.  
خذلها ومضى. استأذن منها في الوقت غير المناسب. وتركها  
تحمل بمفردها العبء الصعب.

شعرت محروسة كم هي في أمس الحاجة إليه، هي وهم. الجميع محتاجون لظله. وجوده الذي لا يمكن تعويضه. وغيابه الذي تسبب في كل ما هم فيه. كتمت محروسة الكثير. وصرحت بالقليل. فالتى أمامها غريبة. وغريمة لعائدة. وسيكون بينهما صراع طويل. عرضت على ندا ابنها نادر. قالت لها إنه خلق لها. وهي خلقت له.

تكلمت ندا. سلكت زورها بصعوبة. قالت إن الأمور لا تحسب بهذه الطريقة. للقلوب أسبابها. وللعيون طرقها. وللنفوس دروبها. قالت ندا: إنها لم تكن تحب الوقوع في غرام رجل متزوج. لكن هذا ما حصل: كررت الكلمتين أكثر من مرة. غصب عني يا نينة. غصب عني يا ماما. ثم بكت. عندما نزلت الدمعة الأولى. كانت عينا محروسة مركزة على يدي ندا. كادت يدها اليمنى تفحص يدها اليسرى. وهي تعتصرها من الألم. ربما كانت هذه البنت ممثلة كبيرة. تمثل على محروسة مشهدا ما. لكن محروسة تقمصت شخصية زوجها. واستعارت ملامحه. وكلماته، والهواء الذي كان يخرج من فمه مع الصوت. وقالت لها: إن زيجتها من نجيب

لا يمكن أن تتم. لم ترد صولجان عليها. بدت مستسلمة  
استسلاما غريبا. لم تناقشها. لم تناهدها في الكلام.

خيل لمحروسة أنهما ربما كانا متزوجين، والأهل لا  
يعرفون. وزوجته الحامل في البيت آخر من يعلم. ما دام  
يتصل بها ولا يتصل بزوجته. وصل معها إلى كل هذا  
الشوق. والكلام في انصاص الليلي. في مكالمة من البلد  
الذي يعيش فيه. تكلفه الشيء الفلاني. ولم يحاول أن يخبر  
أمه. حتى بكلام من بعيد لبعيد.

كل الاحتمالات ممكنة. كل المستحيلات أصبحت  
ممكنة. استسلام ندا وعدم مناقشتها الأمر مع أم نجيب  
أعطاهما الانطباع بأن الحكاية تمت، والأمر انتهى. بعد الذي  
جرى من نجيب، كل الأمور الأخرى جائزة ولا استغراب  
من حدوثها. لم يعد غريبا سوى الشيطان.

مر وقت. غطاهما فيه الصمت. قامت صولجان  
تتمشى. لا تطبيق البقاء في مكان واحد. خلقت لتتحرك. أما  
محروسة فقد جاءت إلى الدنيا وهي تحب السكون والبقاء  
حيث هي.

تاقت محروسة مع بحور الفكر. تأخذها الأفكار إلى آخر الدنيا. وتعيدها إلى حيث تجلس. صولجان تجنبت الكلام. ومحروسة أسلمت نفسها للصمت. بعد قليل أخذت صولجان محروسة من يدها. سارت بها كالمنومة. أدخلتها غرفة تنام فيها. ومحروسة لم تكن تريد قضاء الليل – أو ما تبقى من الليل – عندها، لكنها في لحظة الصمت هذه، حل عليها، مرة واحدة، ودونما أي مقدمات، تعب اليوم كله، تعب من الصعب وصفه، كبس على كل حواسها.

دخلت. فعلت ما لم تكن راغبة في فعله، غيرت ملابسها بملابس نوم قدمتها لها ندا. ذهبت محروسة إلى الحمام. وفي طريق عودتها من الحمام. عرضت عليها صولجان أن يناما في غرفة واحدة. لكن محروسة استبشعت هذا. كيف يشاهد نومها الآخرون؟ كيف يرى عري نومها الغرباء؟ ويسمعون شخيرها الذي جاء بعد تقدم العمر؟ وحتى إن نامت في غرفة بمفردها. فلن تعرف طعم النوم. إلا بعد العودة إلى البيت الأخضر في القرية الخضراء.

قالت لها صولجان: إنها لم تقل لها إنها في بيتها؛ لأنها في بيتها فعلاً. وهي ليست في حاجة إلى تأكيد ما هو

مؤكد: المطبخ والحمام تحت أمرها. وصاحبة الشقة خادمتها ورهن إشارتها. قالت إنها لو فكرت في الذهاب إلى أي مكان من أجل الاطمئنان على أحد من أبنائها. فالسيارة تقف تحت البيت. وهي ليس لديها أي عمل يشغلها.

كانت محروسة تتصور أنها ما إن تستلقي على الفراش، حتى تروح في نوم عميق. لا تقوم منه حتى آخر لحظة في العمر. كان الفراش – مثل كل ما في الشقة التي لم تستطع أن تحب صاحبته – نظيفا . ولكن نظافتها لم تحل المشكلة الأزلية بالنسبة لمحروسة. ذلك أن تغيير الفراش يسبب لها قلقًا وتوترا. لكن الأمر كان أبعد من ذلك.

تجولت عبر أجزاء اليوم. الذي لا تعرف كيف مضى. وفي لحظة ما قبل النوم. بدلاً من هدوء ما قبل الدخول إلى النوم، والتدلي في ذلك العالم المخملي. حاصرتها القصص والحكايات والمواقف والاكتشافات حتى جفاها النوم. فأصبحت أكثر يقظة من أي وقت مضى.

لم تستطع أن تنام من هول ما رآته. كل لحظة تذكرها بما فعله أبناؤها. خاصة نجيب. تذكرت زوجته عابدة. فكرت أن تتصل بها من أجل الاطمئنان عليها. ولكنها

تراجعت. لو سألتها من أي مكان تتكلم؟ ماذا ستقول لها؟ هل تقول لها إنها تتكلم من عند ناجح؟ أو من عند نادي؟

الكذب ليس له قدامن. والكذاب هو أول من يقع. أجلت فكرة الكلام مع عايذة. حتى لو تكلمت من وراء المفعوصة التي تنام في الداخل. فإن المشكلة بينها وبين نفسها.

\*\*\*

نامت نوما متقطعا. كان نومها عبارة عن كوابيس وأحلام قاسية. أتاها نجم الدين أكثر من مرة، لم يكن يسألها عن أحوال أولاده. لكنه تكلم معها عنهم، وعن الحال الذي وصلوا إليه، كانت تسبح في الظلام. كل حياتها تحولت. إلى أذنين تسمعان. وعينين تحاولان رؤية الظلام، وأنف يشم الدخان والتراب والخوف. وكأن الليل قد توقف مكانه رافضا أن يمضي. أن يتزحزح من مكانه، ليل مثل التل.

فوجئت به. نجم الدين يسألها. هل وجدت الكتاب أم لا؟ كان مهتما بالكتاب أكثر من اهتمامه بها، قال لها ليس

مطلوباً منها البحث عن الكتاب. هو الذي سيعلن عن نفسه أمامها. الكتاب هو الذي سيبحث عنها.

قالت له. في شقة المنيل. كان من المستحيل الوصول إلى الكتاب. تركته - إن كان موجوداً - معلق بين السماء والأرض، سألتها:

- لم تصعد؟

قالت:

- البيت كان سيقع.

قال لها إن الكتاب كان سيحميها من أي خطر وسيبعد عنها السوء.

سألتها: هل قلت سر الكتاب لأي أحد؟ قالت: لا. انطأ صوته. وامتص وجهه النوراني كل الانفعالات التي كانت تتعارك عليه. أعطاها ظهره ومضى. اختفى كما ظهر. دون أن يشفي غليلها. دون كلمة واحدة تدلها على الطريق إلى الكتاب. رفعت صوتها. تنادي عليه.

وماذا بعد؟! وماذا لو انتهت الرحلة دون أن تصل إلى الكتاب؟ كيف تتصرف؟ وبمن تستعين؟ ولمن تلجأ؟

وعلى من تعتمد؟ أسئلة كثيرة عصفت بها. أيقظها من نومها  
عطش حارق. قامت فزعة. بحثت عن الماء. كيف فاتها أن  
يكون بجوار سريرها ماء؟ الماء هو صمام الأمان.  
الماء تبعد الشيطان إن جاء وهي نائمة.

في قريتها يقولون إن زيارة الميت للحي. تعد نداء  
منه إليه. وإن هذه الزيارة إيذان بقرب الوفاة. يتشاءمون من  
حضور الميت في المنام.

ويتشاءمون أكثر إن سأل عن أي من الأحياء.  
فالسؤال يعني أنه في انتظاره. وأن الحي في الطريق إليه.

لكنها لم تفسر الأمر على هذا النحو. كان الأمر أبعد  
من ذلك وأعمق. كانت قبل النوم. وخلال لحظات النوم  
الأولى، قد حاولت الاستنجاد به. وقبل حضوره وبعد  
انصرافه حلمت بذراع نادرة ومخها. وجسد نجبية وبقايا  
الكشك الخشبي الذي يعيش فيه نادر. جاءها مرة في ظل  
زلزال. وأخرى تحت لهيب حريق. وثالثة وفي أذنيها  
الصرخات من طوفان، ورابعة يوم القيامة. وعرفت أنه يوم  
القيامة؛ لأن عيني كل بني آدم كانت في رأسه من أعلى  
حتى لا يرى أحد عري الآخر.

\*\*\*

بعد أن استتب الصمت. وبدأ الليل يخرب عن آخره. قامت من نومها. اعتبرت أن قيامها في هذا الوقت إرادة علوية. ما دام نجم الدين قد أتاها وهي هنا. فلا بد وأن الكتاب في هذه الشقة. نسيت أن تسأل صولجان قبل النوم. أين غرفة المكتب؟ تبحث والسلام. ستقول للكتاب: اظهر وبأن عليك الأمان.

لم يكن في الشقة غرفة مكتب. ذهبت إلى الصالون. إن قامت ندا من نومها ستقول لها: إنها شبعت من النوم. فقامت تتفرج على شقتها. لفت نظرها عدم وجود أي كتاب في الشقة. ليته أراحها وقال لها على علامات تمكنها من الاهتداء إلى الكتاب. لونه؟ حجمه؟ شكله الخارجي؟ نظرت في المطبخ. بحثت حتى داخل الحمام. ولكنها لم تجد شيئاً..

قالت لنفسها: وإن كان عندها كتاب مثل هذا. هل ستلقيه في أي مكان؟ إنه لا بد وأن يكون في مكان أمين. دولا ب أو خزينة. وهي لن تقول لندا على حكاية الكتاب. السرية المطلقة هي أول الطريق للعثور عليه.

لا بد وأن نجيب قد أحضر الكتاب وخبأه عند ندا.  
ولا بد وأن نجم الدين عرف هذا. ربما هو الذي أوحى  
لنجيب بذلك. كان يعرف أن الكتاب هنا. ربما رأى أن هذا  
البيت أكثر أمانًا. فجرى هذا الترتيب.

\*\*\*

هل نامت؟! لا تذكر. هل قضت الليلة كلها صاحية؟  
ليست متأكدة. لكن المؤكد أنها صحيت متعبة. لم تشعر بتلك  
الراحة الفريدة التي تشعر بها بعد الصحو من النوم. في  
بيتها. كأنها عادت إلى لحظة بدء عمرها من أول وجديد.

كان في جسمها ثقل غريب. ربما سببته أهوال  
الأمس. والأحلام والكوابيس التي من الصعب عليها تذكرها.  
أيقظها من نومها الذي يخيل إليها أنها راحت فيه. النهار  
الجديد. وعبر رمادية ظلال بداية النهار تحركت في الصلاة.  
مرت ببرك متقطعة للون الشمس التي تسللت من النوافذ  
المفتوحة. يرفع الضوء نفسه. تحاول محروسة أن تستنشق  
الضوء. تذهب إلى الحمام. تشعر بغربة؛ لذلك تفعل بعض  
الأمر التي ربما لم تكن في حاجة إليها. حركة والسلام.

صباح مختلف عن الصباحات التي مرت بها. سواء في بيت العائلة الذي كان مرشوشاً بالأولاد والبنات. ومعقباً بدفء النفس البشرية. أو في بيت الوحدة الذي آل إليه حالها في قرية الروضة. حيث كانت تتدلى من نوم إلى نوم. حتى تتعب من النوم. تقوم من النوم لتنام مرة أخرى.

فتحت المزيد من النوافذ؛ ليدخل ضوء النهار إلى كل الغرف. حتى تتبدد مخاوف الأمس. وتوتراته ربما يأتي الصباح. ليكتشف بعض سكان البيوت أن جدرانها غائبة.

نامت وما نامت. استراحت وما استراحت. وأوهمت نفسها بالراحة. وتعبت من كثرة الإيهام. كان عظمها يؤلمها. وكل مكان في جسمها متعب أكثر من الآخر. لكنها قامت. أوهمت نفسها أنها نشطة. في انتظارها مشاوير أربعة لا بد من القيام بها. قبل المشوار الأخير. وهو العودة إلى البلد.

خرجت من حجرة النوم. تسحبت. مشيت على أطراف أصابعها. تجنبت إحداث أي صوت. لا تريد أن توقظ ندا. المفوضة مازالت نائمة، لن تصحو سوى بعد الظهر. دخلت الحمام. خرجت منه. وعندما كانت تصلي. أحست بها تمر من جانبها. استغربت حتى وهي تصلي. كيف تمكنت

من الاستيقاظ في هذا الوقت المبكر؟ لا بد وأن ذلك جزء من تمثيليتها التي تمثلها عليها. إنها الزوجة الصالحة. الزوجة الأصلح لابنها. أصلح حتى من عايدة التي على ذمته.

ربما تسحب سجادة الصلاة بعد خروجها من دورة المياه. وتصلي هي الأخرى.

.. عندما انتهت محروسة وندا من الإفطار الذي  
أعدته ندا بنفسها. قالت للحاجة:

- دقيقة واحدة حتى أغير ملابسي.
- ولله.. كفى الله الشر؟
- حتى أنزل معك.. لن أتركك.. سأكون معك في  
كل خطوة

رفضت محروسة. ما ذنب ندا حتى تقوم  
بالمشاوير الباقية التي تهد الحيل؟ قالت ندا:

- إذن مطلوب استبعادي؟ ألسنت غريبة؟! مهما  
فعلت سأظل الغريبة؟!!

قالت محروسة إن هذا ليس مقصدها.

تكلمت ندا بشكل عملي. قالت إنها وسيارتها ستكون  
تحت أمرها في أي مشاوير. أما إن كان هناك مشوار معين  
تريد أن تقوم به بمفردها، فستقول لها مع السلامة والقلب  
يدعو لك. فهي لا يمكن أن تفرض نفسها عليها. وفي هذه

المشاوير الخصوصية. ستوصلها بالسيارة إلى أقرب مكان.  
وتنتظرها حتى تعود من المكان الذي ذهبت إليه.

يبدو انه أفهمها كل شيء. وأنها مدركة لجميع  
الأمور. نزلت معها. اتجهنا إلى شقة نادية. ابنة الأسرة التي  
تعيش في الخارج. والتي كانت السبب الحقيقي في سفر  
شقيقها نجيب.

تزوجت نادية أولاً. خطفها زوجها وهي في الجامعة.  
في كلية التجارة. كان والدها يحلم أن تكون مأمورة ضرائب.  
تحصل لمصر ما تستحقه - لدى الذين يكسبون ليلاً ونهاراً -  
هو الذي رسم لها الطريق وحدد الوظيفة والدور والمهمة.

ولكن العريس كان مستعجلاً. قال: ما لي ولشهادتها؟  
لن يكون في صالون بيتي مكان لأعلق فيه الشهادة. لا أريد  
عروسة بشهادة. أريد نادية فقط. ثم ما دور الشهادة في  
المهمة المقدسة التي يريدونها من أجل القيام بها؟ ألا وهي  
رعايته والاهتمام ببيته وإنجاب الأطفال؟

قال له والدها: على الأقل تصبح وزيرة مالية حياتك.  
تدبر بيتك وتدبر أموالك. وتقدم النصيحة في الوقت

المطلوب. قال العريس واعر مغيب - وهذا هو اسمه - إنه لا يريد منها هذه الأمور التي إن اقتربت منها ماذا سيبقى له في حياته. لكي يفعله؟ هو ضد تعادل الأدوار في الأسرة. الرجل رجل والمرأة امرأة.

وعندما عاد نجم الدين إلى صاحبة الشأن. ردت على كلام والدها بالصمت والسكوت - في هذه الحالة - دليل الموافقة. ومن يومها غير نجم الدين طريقه إلى بيته في الذهاب إلى عمله صباحا. والعودة منه في المساء. ذلك أن الطريق القديم. كانت تقع فيه مأمورية الضرائب. التي كان يحلم أن ترأسها نادبة ذات يوم. قال إن التعليم لا يمكن أن يتم غصبا عن ابنته. لا بد وأن تكون عندها الرغبة فيه. ماذا لديه لكي يفعله؟

نادبة هي التي خطفت نجيب إلى بلاد الغربية. قررت إنشاء فرع للعائلة هناك. هذا هو المشروع الوحيد الذي لم يخطر على بال نجم الدين النجومى، كل مشروعاته كان مكانها بر مصر.

وإن كانت نادبة قد قررت ذلك. فلماذا اختارت واسطة العقد؟ وتقال الميزان؟ كان نجم الدين يقول: ليس لعائلة

النجمي فرع آخر خارج بر مصر. نحن هنا وكفى . هل  
قمنا بالمطلوب إزاء الداخل حتى نذهب إلى الخارج؟

كان نجيب يتكلم عن الحلم القومي. وذراع مصر  
العربية التي حاولت القوى الاستعمارية قطعها. لكن نجم  
الدين قال إن ما يحتاجه الداخل يحرم على الخارج. حتى لو  
كان الذين في الخارج أشقاء.

يذكر لنجيب أنه لم يضع قدميه على أرض الغربية  
ووالده على وجه الدنيا. احترم كلامه. رغم عدم إيمانه بأنه  
حقيقي. قال. ولكن من وراء ظهر والده. وليس في مواجهته:  
له دينه ولي ديني.

كانت نادبة تقضي الصيف في مصر. ما إن تؤكد  
الحرارة وجودها حتى تنتظر محروسة نادبة. كلما ازدادت  
درجة الحرارة حتى ارتفعت احتمالات حضورها. ما من  
صيف إلا وجاءت. عندما تتعدى درجة الحرارة الأربعين  
درجة – هكذا تسمع محروسة من التليفزيون – حتى يصبح  
حضورها مؤكدا.

وما إن تضع قدميها على أرض مصر حتى لا يكون لها كلام سوى عن جمال الطقس ورحمة الحرارة بالناس في مصر. وتقول أرقامًا لدرجات الحرارة في البلد الذي تعيش فيه. تصل إلى ما بعد الغليان. لا بد وأن تقضي الصيف هنا.

في بعض السنوات كان يحضر معها زوجها. وفي بعضها الآخر كانت تحضر بمفردها. تقول إن زوجها عنده شغل لا يمكّنه من الحضور. وإن كانت بعد قضاء أيام وليالي في مصر. تبدأ في الفضفضة. تقول إنه قال إنه سيبقى في البلد. وإن كانت متأكدة أنه يسافر من وراء ظهرها إلى شرق آسيا. عنده أكثر من سبب يقوله لها ولن تمنع. ولكن

يسافر من وراء ظهرها؟ لم يتحایل حتى لا تعرف؟ لم يطلب منها عدم الاتصال به؟ وهو الذي يتصل بها؛ لأنه لا يعرف ظروفه. يتجول في البلاد البعيدة على حريته. وراء تجارته الواسعة.

تتظاهر نادية عندما تكلمه أنها تصدقه. وإن كانت تقول عنه بعد أن تضع السماعة لا يجيد أي أمر من أمور الحياة سوى الكذب. تنفخ الهواء. وتقول: يكذب كما يتنفس. يحدث معها هذا وهي الأجل والأكثر بهاء بين بنات العائلة.

لا وصف لجمالها. حتى النساء والأطفال والشيوخ في الشارع كانوا يقعون في غرام جمالها.

يوم سفرها لأول مرة. قال والدها. إنها ستحاول ملامسة تخوم المستحيل. ورغم أن محروسة لم تستوعب الجملة. إلا أنها اعتبرت نبوءة من الرجل القادر على قراءة الزمن الآتي. وكأنه مكشوف عنه الحجاب. كانت نادية توزع الهدايا على أسرتها. هدايا تسد عين الشمس. هدايا تقول الكثير عن اليسر والبجوحة التي تعيش وسطها. والنعمة التي تتقلب فيها.

لم تكن تشكو إلا من خداع زوجها. وقسوته في التعامل معها. وفي مواجهة هذه المعاملة. كان عندها ردها عليه. أن تنجب أكبر عدد ممكن من الأطفال. كان يبدو سعيدا بذلك. البيت الواسع. تعيش فيه قبيلة كبيرة. والأموال تعب من عدها. فترك هذه المهمة للبنوك. البنوك نعمة. ولكن نادية لا. لم تخلق هي من أجل هذه المهمة. هكذا كان يقول عن الحرمة المصرية.

أصبح أطفالها بعد أن كبروا عزوة لها. هم صحبتها وأهلها في بلاد الغربية. لا تعرف ماذا كانت ستفعل بدونهم.

كانت تشكو من فقدان الحياة الاجتماعية في البلد الذي تعيش فيه. أما الفلوس والأموال. ففي كل زيارة كانت تأتي ومعها من الذهب ما لا يمكن وزنه. ومن الأموال ما لا يمكن عده. تضعها في البنوك. حسابات جارية. ودائع. كانت تستفيد من سنوات دراستها في كلية التجارة التي لم تكملها. في استثمار أموالها. حاولت أن تكمل تعليمها خلال وجودها في مصر في الصيف. ولكن اتضح لها صعوبة ذلك. بل واستحالتة.

أصل المشكلة أنها عندما تركت الجامعة المصرية، لم تعمل إجراءات إجازة من الدراسة. كان من حقها إجازة لمدة أربع سنوات. فصلت؛ لأنها لم تقدم طلب هذه الإجازة. ولم تقم بإجراءات تجديدها كل سنة. وهكذا حاولت الدراسة من وراء ظهر واعر مغيب في مصر. تقول إنها تريد مفاجأته بالشهادة، مفاجأة غير سعيدة بالنسبة له.

ترتب أمور حياتها في مصر. كما لو كانت حياتها لن تستمر هناك. مع زوجها. ولا بد وأن تعود إلى الاستقرار في شقتها التي اشترتها في مدينة نصر. بوابة مصر الشرقية إلى الزمن الآتي. بعد أن خرجت مدينة المهندسين على المعاش.

محروسة أعطت ندا العنوان. كان قريبا من بيتها. ركبتا السيارة. كانت الحياة هادئة. امتص نور النهار كل توتر الليلة السابقة. ولكن بعد قليل جاء النور بتوتر جديد معه. ذلك أن الناس تمكنت تحت ضوء النهار – فظلام الليل يخفي حقائق الأشياء – من أن ترى ما فعل الزلزال بجدران بيوتهم والأعمدة الخرسانية التي تحمل العمارات العالية.

كان الناس يتكلمون وقد تحولوا إلى مهندسين وإلى عباقرة في الإنشاء وفنون البناء. كانوا يتعجبون من العيوب التي ظهرت في المباني بعد الزلزال. خرج دكتور في البناء والإنشاءات في التلفزيون. سألته المذيعة عن أن بعض العمارات في القاهرة قد مالت إما ناحية اليمين وإما ناحية الشمال. استدركت أن النواحي التي مالت إليها العمارات. لا علاقة لها بالسياسة.

رد عليها بهدوء. كان يمسك بيده مسبحة من النوع الغالي. وكان يمر بظهر يده على لغد ذقنه بطريقة منتظمة أثناء الكلام. قال لها إنه لا توجد عمارة واحدة لا تعاني من الميل. بنسبة أو بأخرى. وإن الميل عيوب بناء والزلزال

بريء منها. ربما زاد الميل. هذا وارد. ولكن أصل الميل موجود وقائم منذ البناء الأول.

كان الناس يبدون كما لو كانوا قضوا ليلتهم وهم نيام بين جثث ضحايا الزلزال. وإن الظهر – ظهر الأمس – بالتحديد الثالثة والرابع. قد أصبح لحظة ميتة. لم يأت العصر بعدها. وتأخر موعد مجيء الليل طويلاً. حتى عندما أتى الظلام. ولكن الليل لم يأت معه.

رغم جمال الصباح. كانت الشوارع مازالت محملة بالذعر والخوف. والشوارع قلقة تبحث عن الأمان. كان الأمس. الذي لم يعد أمس، في ذاكرة محروسة مثل شظايا الزجاج المكسور. عندما يتم نثره في أرجاء الذاكرة.

كانت المدينة تستيقظ بوجل كبير. تحاول أن تضم إلى صدرها أشياءها الجميلة والحميمة. والتي أوشكت أن ينفرط عقدها. منذ ظهر الأمس. وكان الناس يتزاحمون زمرا. زمرا. جماعات كبيرة وجماعات صغيرة. يعانون من الخوف الداخلي الذي ينخر في القلوب مثل السوس في الخشب القديم. أصبح الناس مثل الموجات الهاربة. موجة وراء أخرى.

كان هناك صوت يتكلم في راديو في مقهى قريب.  
كان الصوت عاليا. كان يتكلم عن الفوالق الأرضية. عن  
نقاط الضعف في الدرع الذي تتشكل منه الأرض. ويقول  
كلاما يربح أي إنسان. سألت محروسة نفسها: هل يقدر لها  
أن تعيش حتى تشاهد يوم القيامة. الذي هو آخر أيام الدنيا؟

ما تسمعه من الأمس جعل قلبها يطفف والدم يفور  
في عروقتها. هي امرأة مسنة. رجل في الدنيا والرجل  
الأخرى على باب القبر. ولكن ما ذنب الأبناء والأحفاد؟  
الذين لم يشبعوا من أيامهم بعد؟

اشترت نادية الشقة كنوع من الأمان. قالت لأمها إن  
الشقة كتبت باسمها. سجلت على أنها ملك لها. كانت معركة  
طويلة. خضع زوجها في آخرها. قالت: ظل قرش ولا ظل  
رجل.

كم مرة عرضت فيها على أمها أن تعيش في الشقة؟  
ولكنها كانت ترفض. كم من مرة قالت لها. إنها لو فكرت في  
ترك بيتها البعيد. وحضرت لكي تعيش هنا. فستكون على  
الرحب والسعة. إن لم تسعها الشقة. تفتح لها قلبها بيتًا

ومسكنًا ومأوى. تترك معها عندما تسافر مفتاح الشقة؛ حتى تذهب بين الحين والآخر من أجل الاطمئنان عليها.

الأهم من الاطمئنان هو دفع المطلوب لاتحاد الملاك. والماء والكهرباء والغاز وأجرة البواب. مع أن نادبة لا تعيش هنا. ولا أحد يستخدم هذه الأشياء. عندما تحضر محروسة تجد فواتير كثيرة في انتظارها. وكل فاتورة بالمبلغ الفلاني.

فكرت أن تقول لهم إن الساكن الغائب من المفروض ألا يدفع كما يدفع الساكن الحاضر فعلاً؟ في هذا أكبر قدر من الظلم، ابنتها منعها. قالت لها. ما دام الله قد وسع عليهم. لماذا يضيقون على أنفسهم؟ وعلى غيرهم؟ الآخرون لهم نصيب في كل ما حصلت عليه.

عندما تسافر نادبة. تترك معها مبلغًا من المال تسميه الرصيد. تسدد منه المطلوب للشقة وتحفظ لها بالإيصالات والفواتير. حتى تعود وتحاسبها على ما دفعته وما بقي معها. كانت نادبة ترفض الحساب ولا تطيق أن تقوم به مع أمها. ولكن محروسة كانت تصر عليه. تقول لها إن كنتم حبايب تحاسبوا.

أسعدها بالأمس عدم وجود الرصيد معها. تركته في لحظة اللهوجة والسرعة. عندما قررت الحضور إلى مصر. لو أحضرته لضاع في لحظة السرقة التي تعرضت لها. ولم تكن تعرف كيف ستتصرف في نفقات الشقة لسنة قادمة. عندما وقع الزلزال كان قد مر أقل من شهر على سفر نادية. سنة إلا شهرا مازالت في انتظارها. قدر ولطف. فعلاً لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع.

فكرت محروسة أن تؤجر الشقة مفروشة. مجهزة من مجاميعه. وسيكون العثور على مستأجر لها سهلاً. والعائد كبير. ولا بد أن تستأجرها عائلة مقيمة. الأخلاق قبل العائد. نادية رفضت. قالت إن ما ينفقانه على تجديد الأثاث. وإصلاح ما أفسده السكان يساوي ما ستحصل عليه. إن لم يكن أكثر. والذي لا يقدر بمال الدنيا. انتهاك حرمة المكان وفض بكاره خصوصيته. ثم إن من يؤجر شقة مفروشة إن كانت عائلة. قد لا تخرج منها. بعد فوضى القوانين في البلاد.

وصلا إلى الشقة. توقفت ندا بسيارتها تحت العمارة. ولكن شخصا لا تعرفه محروسة يأتي إليهما صائحا. يطلب

ركن السيارة في أبعد مكان عن العمارة. هكذا فهم من السكان. إنه مجرد فاعل خير. إنسان متطوع لعمل الخير للآخرين. لم تكن هناك أي سيارة مركونة بجوار الرصيف. قال لهما. الزلزال له توابع. وبعضها قد يكون أشد من الأول. وقد يقع من العمارة، طوب أو خشب أو حديد أو شيء، فوق السيارة فيحطمها. هذا لم يحدث في بيت ندا. وربما جرى ولم يقل لهما أحد. وهي غير متأكدة إن كانت قد لاحظت هذه الظاهرة عند حضورها أم لا.

تنزل محروسة من السيارة. تطلب من ندا ركن سيارتها في مكان آمن. بعيدا عن أي مبنى. وليس بعيدا عن العمارة فقط. وتنتظرها لحين عودتها إليها. ستصعد إلى الشقة؛ لكي تطمئن عليها. وتنزل. وندا قبلت هذا راضية. لم تعترض عليه. مع أن نصفها قبله ونصفها الآخر رفضه. كانت تريد أن تكون أول من يرضي وآخر من يقول لا. خاصة مع محروسة صاحبة الكلمة والمشورة في العائلة.

تقول ندا لمحروسة إنها ستنتظرها حتى تعود. تطلب منها ألا تستعجل. وأن تأخذ راحتها ووقتها بالكامل حتى تنزل مطمئنة على ما في الشقة. تمشي محروسة نحو باب

العمارة، يجري نحوها صبي تنظر له. قلبها يقول لها إنها رأتة. وإنها تعرفه، وإن كان عقلها لا يسعها، وتذكر من هو. يقول لها الصبي إنه ابن نادر. جاء يطمئن على شقة عمته. وأنه بعد أن صعد إلى الشقة اكتشف أنها سرقت ليلة أمس.

أول خاطر جاء على بالها. وهي تستوعب ما قاله الصبي. وهل يمكن أن يكون الكتاب في الشقة؟ وهل تمت سرقة؟ ربما كان الهدف من السرقة هو الكتاب، ليست روح زوجها فقط هي التي تعرف أهمية الكتاب. هناك آخرون يدركون خطورة المتاعب. الذي طلب منها زوجها البحث عنه. كل شيء ممكن. وكل شيء مستحيل.

تنادي على البواب. تسأله عما جرى للشقة. يقول لها ببساطة وهدوء. إن الأمر جرى فيه الزلزال. هل علمت بذلك؟ يتوقف عن الكلام من أجل أن يسألها. وتضطر للرد عليه بهزة من رأسها. رغم رفضها أن تكلمها ندا بالإشارة في ليلة أمس.

كلام البواب يصبح أقرب إلى التثرثرة. يروح ويجيء، يتكلم في كل الأمور. التي ربما لا ترغب محروسة

في الاستماع إليها. يذكرها أن الزلزال كان بالأمس وأن العمارة سليمة. وأساسها متين ولم يحدث لها أي شرخ بسيط. العمارة كالألماظ. صاغ سليم.

لكن الحلو لا يكتمل. لفت عصابة على البيوت كلها – هكذا قالوا له – وخيروا سكان الشقق بين أن يدفعوا أو يسرقوا. والشقق التي كان أصحابها غائبين كان على البواب، أو الجار أن يدفع نيابة عنهم. لم يكن معه ما يدفعه؛ لأنه لا يملك المطلوب الذي لا يعرف مقداره. لا لهذه الشقة أو غيرها، ولم يكن أمامه أي باب يمكنه الحصول على المال منه.

سهر أمام العمارة. لم يهوب النوم ناحية عينيه. عيناه مفتحتان. وهل نام أي بواب ليلة الأمس؟ ليلة ولا كل الليالي؟ كل ساعة زلزال صغير يهز الدنيا. ويذيع التليفزيون عنه بعد أن يقع.

بحث عن بعض السكان الموجودين؛ لكي يطلب منهم إبلاغ القسم بالتهديد. معظم السكان كانوا مثل ابنتها. اشتروا الشقق وأغلقوها. ويعملون في الخارج. وهل هناك من يعمل في الداخل قادر على شراء شقة في مثل هذه العمارة؟! لا

يحضرون سوى في الصيف. سافروا يدوبك آخر الشهر الماضي. وأمامهم سنة قبل الحضور.

لم يفارق مدخل العمارة لحظة واحدة. سوى عندما خطف رجله وصلى الفجر حاضرا في المسجد القريب وعاد. اكتشف أن كل الشقق التي لا يوجد فيها سكان، وهي معظم شقق العمارة، قد سرقت.

في العمارة أربع وعشرون شقة. فهي ٢١ دورا. وفي كل دور شقتان. الشقة الواحدة بلد. عشرون شقة أصحابها مسافرون. وأربع يسكنها أصحابها. وأصحاب هذه الأربع لم يقضوا الليل في الشقق. هل نسيت أن العمارة برج. والناس خافت من كل ما هو عالٍ بعد الزلزال.

لم تصدقه محروسة، ثارت في وجهه، لماذا لم يذهب إلى القسم ويبلغ الضابط النوبتجي؟ أقل القليل أن يعمل محضرا بما يقوله. قال إن القسم بعيد. هذا الحي في حجم مدينة، ويله ويلين، إن ترك العمارة وذهب لكي يبلغ القسم يكون قد أخطأ، ف إضالالبقاء أمام العمارة، ولم يفارقها سوى من أجل فرض الله، وهي تقول إنه أخطأ، وإن كانت العصابة

دخلت العمارة، فمن المؤكد أنهم لم يدخلوا من المدخل، ربما  
صعدوا فوق المواسير.

نظرت له لدقائق، وهي تتصور أنه متواطئ معهم،  
مشارك لهم، هل هناك من يهدد بالسرقة؟ ويبحث عن  
الأموال في الشقق؟ ويقول الدفع أو السرقة؟ ولا فتوات زمان  
فعلوا هذا. كان البواب يتكلم بهدوء غريب، سألت عن مكان  
القسم. وعادت إلى ندا، حتى تذهب وتحررا محضرا بالسرقة.

كيف فاتها أن تقضي الليل في الشقة التي بدون  
صاحب. كيف ذهبت إلى البيت الذي فيه أصحابه؟ ونسيت  
البيت الوحيد الذي كان يجب البدء به والبقاء فيه؟ صحيح أن  
البعيد عن العين بعيد عن القلب؟ كيف تسكنت وقضت الوقت  
عند هذا وذاك، ولم تحضر إلى الشقة الخالية؟

هل معقول أن تقضي الليل عند التي تحاول سرقة  
ابنها؟ ولا تذهب إلى شقة ابنتها المتغربة؟ كان يمكنها  
الحضور مع ندا إلى شقة ابنتها وتقضيان الليلة فيها. وتكون  
قد ضربت عصفورين بحجر واحد. هي المسئولة – الأولى  
والأخيرة – عن سرقة الشقة. ولا بد من الاعتراف بذلك

بنفسها. تعترف بجريمتها ثلاث مرات. مرة لنفسها. ومرة  
للآخرين. وثالثة وهذا هو الأهم لصاحبة الشأن.

توقفت وهي في الطريق إلى السيارة. هل تذهب إلى  
القسم لكي تبلغ ببناء □ على كلام البواب؟ من سمع ليس كمن  
رأى: إن سألتها الضابط ما دليلك على سرقة الشقة. ماذا  
ستقول له؟ هل تقول إن البواب حكى وقال؟ لا بد أن تكون قد  
صعدت إلى الشقة، وكان معها البواب. الذي كان يحاول  
إقناعها بالذهاب إلى القسم. وإن ذلك أفضل من معاينة الشقة.  
قالت له وهي تبعده عن طريقها. إنها تعرف ماذا تريد.  
وليست في حاجة إلى نصيحة من خائن مثله.

اتجهت إلى المصعد . كان بابه مفتوحا. والبواب قال  
لها. إن الأوامر التي عنده أنه لا يجب استخدام المصعد حتى  
تنتهي الزلازل الصغيرة؛ لأنه إن جاء زلزال – حتى وإن  
كان صغيرا – وهي في المصعد. فإن هذا خطر على حياتها.  
وعلى المصعد.

إن كانت مصممة على الصعود. فالوسيلة الوحيدة  
هي السلم. هل معقول أن تصعد ثمانية أدوار على السلم؟  
تموت قبل أن تصل. وقفت محتارة. اضطرت لسؤال شيخ

المنسر الذي يقولون عنه البواب خطأ عن حالة الشقة التي فوق.

الشقة مثل كل الشقق الأخرى. جدران وبلا وسقف. حتى لمبات الكهرباء وحنفيات المياه لا وجود لها. تساءلت: ومن أين وجدوا الوقت حتى يفكوا كل الحنفيات؟ واللمبات والتركيبيات؟! قال لها. الكثرة تغلب الشجاعة. سألته: في العشرين شقة؟! قال لها: في العشرين شقة. سألته: ألم يتركوا ورقة توحد ربها؟

بدأ البواب يتكلم بلغة الخبير عن محتويات الشقق، قال إن شقة ابنتها كانت متوسط الحال. فماذا عن الشقق "الهاي لايف" الأخرى؟ سألته عن باب الشقة؟ قال لها مفندق مثل باب القسم. أليس مفتوحا ٤٢ ساعة؟ هكذا باب الشقة.

عادت وهي تلوم نفسها أكثر من الأول. ليبتها جاءت إلى هنا أولاً وظلت في شقة نادية حتى صباح اليوم التالي. وصلت إلى سيارة ندا وهي تكلم نفسها. سألتها ندا عن الحكاية.

قالت محروسة لندا:

– مصيبة وأنا السبب.

حكّت لها ما جرى. طلبت منها أن تتجها إلى القسم لعمل محضر. قالت لها ندا: إنه من مصلحتها أنها لم تكن في الشقة عندما جاءت العصابة. وهل لو جاءوا ووجدوها كانوا سيتركونها في حالها؟ إنهم يخرجون للعمل وشعارهم يا قاتل يا مقتول؟ لصوص وقتلة. لقد نجاها الله بعدم المبيت في الشقة.

كانوا سيدخلونها باعتبارها شقة فاضية. ثم يفاجأون بوجودها. فيخلصون عليها. في أقل من لمح البصر. إما هذا. أو تتعرف عليهم. ثم تصبح شاهدة إثبات ضدّهم. إن كانت تقول إن المبيت في شقة نادية. سيمنع سرقته. فإنها تقول لها إن مبيتها بعيدا عن الشقة عمر جديد كتب لها. رب العرش نجاها. من هذا المصير.

قالت لها: فداك يا ماما. حياتك بالدنيا. ماذا يعني قليل من العفش؟ تنهدت محروسة. من قال إنه قليل من العفش؟ قولي كثير من أغلى الأثاث. أكثر مما ينبغي وأغلى مما يتصور. لم يكن ينقص الشقة إبرة خياطة ولا خيط. كان فيها

كل ما تحتاجه شقة واسعة. وكل ما فيها كان مستوردا. كانت ابنتها تدخر فيها. كانت بنكا آخر ودفتر توفير ثانيا ووديعة.

قالت لها ندا. احتمال إعادة المسروقات أكثر من ٩٠%، تمنى محروسة لو كان هذا الكلام صحيحا. مع أن الذي يضيع لا يعود. سألت محروسة نفسها: هل يعيد المحضر ما سرق؟ أخذت معها ابن نادر.

كان في القسم هرج ومرج. كأنه يوم الحشر العظيم، أناس كثيرون يصرخون ويتكلمون بصوت عالٍ. ويشكون. بيوت تصدعت ومنازل تشققت. وضابط يصرخ فيهم. يقول: هذه مسئولية الحي. الشرطة لا علاقة لها بالأمر. وإن كان الأمر خطيرا عليهم الاتصال بشرطة النجدة. ويمكن الاتصال بالإسعاف. إن كان هناك خطرا على الأرواح. أو المطافئ إن كانت ثمة حرائق. أو الدفاع المدني إن كانت بيوت تقع. أما هم. فدورهم يبدأ بعد أن تقع جريمة، جانٍ ومجني عليه. وضحايا. وشهود نفي وشهود إثبات.

كان الضابط لحظة دخول محروسة القسم يطلب من معاونه كتابة عنوان الحي وتليفونه على ورقة كبيرة. ويعلقها على باب القسم؛ حتى يقرأها من يعرف القراءة والكتابة. ولا

يدخل عليهم من يدوش دماغهم. بكلام لا دخل لهم فيه. كان الناس واقفين في حالة فضول. بعضهم صدق وانصرف. والبعد الآخر تلكا وفضل الانتظار لعل وعسى. ربما كان هذا الكلام يقال من أجل تطفيشهم.

وقفت محروسة طويلاً. قالت لها ندا. كان لا بد من الاتصال مع أحد من المهمين في البلد. حتى يوصي عليهم في القسم فيهتموا بهما. قالت لها محروسة. جننا نطلب أبسط حقوقنا. كنت تتكلمين مع إنسان مهم لو أننا حضرنا من أجل استثناء. نحن نطلب حقاً.

ردت عليها ندا: المشكلة يا أمي أنه لا أحد يحصل على حقه بدون الوساطة. كل الوسطاء وكروت التوصية من أجل حقوق. حتى صاحب الحق لا يطمئن إلى أنه سيحصل على حقه. ما لم يكن معه كارت توصية. أو اتصال تليفوني. وإن كان محظوظاً ورأى ليلة القدر يحضر المسئول المهم معه بنفسه.

وقفت محروسة في طابور طويل. ملّت من الوقفة ومن الانتظار. مع إن أهم ما في حياتها هو تلك القدرة على الصبر. سمعت من يقول: إنهم لا يحررون اليوم سوى

المحاضر المرتبطة بالزلازل. حاولت ربط السرقة بالزلازل. لولا الزلازل ما مرت العصاة. عندما أتى دورها في الوقوف أمام الضابط. كان الطابور وراءها طويلاً. رفض الضابط تصديق روايتها. لم يتكلم عن علاقتها بالزلازل.

سألها الضابط:

- هل مروا عليك أنت؟! لا.
- مروا على من كان موجوداً، وقالوا له هذا الكلام؟! على البواب.
- البواب يحضر ويثبت الكلام بنفسه. ويتم إثبات الحالة في محضر رسمي نيابة عن كل الشقق التي سرقت. إن كان الكلام صحيحاً.
- من حق البواب - قال الضابط - بحكم عمله أن يتكلم نيابة عن أصحاب الشقق التي سرقت. أما هي. فليس لها الحق في أن تتكلم سوى عن شقتها فقط.
- حاول الضابط أن يتأكد. سألها من جديد:

— هل تم هذا في شقة ابنتها فقط؟ أم امتد ليشمل شقق الآخرين؟

قالت له:

— الكذب خيبة. البواب هو الذي قال لها إن الشقق الأخرى التي بدون سكان سرقت. وإن كانت لا تعرف هل تصدقه أم تكذبه؟

توقفت عن الكلام. وقالت وهي مترددة إنها تشك. لقد شمت في كلامه رائحة مشاركة مع العصابة. أو غير العصابة. على الأقل تسهيل عملية السرقة.

عادت لكي تأخذ البواب لكي يعمل المحضر بما قاله لها. كان ذهابها إلى القسم بناءً على نصيحته. ودخلت الحكاية في الجد. شغل المصعد. وصعد معها إلى الشقة؛ حتى تشترك معه في المعاينة. ذكرته بما قاله من أن هناك تعليمات بعدم تشغيل المصعد. أدار وجهه إلى الناحية الأخرى ولم يرد عليها.

كان باب الشقة مكسورا. دخلوا من هنا. ولم يدخلوا من على المواسير. دخلوا من مدخل العمارة يا بطل. قال لها إنه لا يعرف هذه النقطة بالتحديد.

دخلت لتلقي نظرة على الشقة الفارغة. نهبوا الكثير. ما قاله لم يكن دقيقًا. كل ما خف حملة وغلا ثمنه أخذوه. معظم الأدوات الكهربائية. الساعات الثمينة المعلقة على الحوائط. التلفزيونات. الراديوهات. المسجلات الاستريو. الفيديو. ريسيفر الدش. نزعوه من أسلاكه واستولوا عليه وأخذوه.

الأثاث الثقيل كان كما هو. طلبت من البواب أن يذهب معها إلى القسم من أجل المحضر. حاول أن يتكلم عن يحرس العمارة في غيابه. وقد تحضر العصابة لحمل ما لم يحملوه في المرة السابقة.

شخّطت فيه. ثارت في وجهه. قالت له: سنوصلك إلى القسم وسنبحث عن نجار لكي يصلح الباب حتى يتم إغلاقه. فلا يجب ترك الشقة مفتوحة على البحري إلى ما شاء الله. لم تفكر في المرور على الشقق الأخرى التي سرقت، لسبب بسيط، أن أصحابها غير موجودين ولا تعرف

عناوينهم ولا المسؤولين عن الشقق في غيابهم، ولا أرقام تليفونات و إلا لكانت قد اتصلت بهم.

سألت محروسة البواب عن رئيس اتحاد ملاك العمارة. فقال لها البواب إنه غير موجود. مسافر. سألت عن أي وسيلة للاتصال به. فقال لها: إنني بواب ولا أحد من السكان يعطيني أرقام التليفونات. ولا وسيلة للاتصال به. يعتبرون ذلك من الأسرار التي لا تقال لمن كانوا مثلي. كل ما يعرفه هو اسمه المدون في لوحة الإعلانات في مدخل العمارة، أما ما هو أكثر من هذا فلا يعرفه.

كان البواب لا يريد الذهاب إلى القسم. بعد أن تعطل بعدم قدرته على الغياب عن العمارة. وعدم وجود من يحرسها بدلاً منه. عاد يقول إنه لا توجد معه بطاقة عائلية، وإن ذهب سيحجزونه. يأخذونه تحريات. ثم من قال إنه لا توجد شهادة لبواب؟ لا شهادة لبواب. من سيستمع إليه؟ من الممكن أن يستمعوا إليها. أما هو فلن يستمع إليه أحد.

ضمنت له العودة سليما. وضمنت له سماع شهادته. قالت له إن الضابط هو الذي طلبه. وقال إنه يريد سماع شهادته. بدأ البواب يتكلم عن الغياب عن العمارة. ترك

العمارة في هذا الوقت مسئولية. من يتحملها؟ لا يمكنه ترك العمارة وفيها عشرون شقة مفتوحة.

كانت محروسة قد وصلت إلى حافة التصميم الذي لا يناقش على ذهابه إلى القسم. وإلا اتهمته بالتواطؤ مع من سرقوا العمارة. حدثت مشكلة والتف حولها عدد من البوابين وعابري السبيل. وقال كل واحد رأيه وكانت معظم الآراء أن البواب لا بد من ذهابه إلى القسم وإلا سيلبس السرقة. ثم إن المحضر في صالحه، وجزء من عمله، وكان يجب أن يعمل من نفسه، وقبل دخول الحاجة.

استأذن من محروسة ومن الواقفين للصعود إلى العمارة، والمرور على الشقق التي سرقت؛ حتى يعرف أرقامها وعددها. صعد وغاب صعدت إليه وأنزلته. يتصنع أنه يفعل شيئاً ما. يحاول أن يتهرب من الذهاب إلى القسم. قال لها: هل دخول القسم في سهولة الخروج منه؟

بعد أن أدخلته في السيارة بالقوة أو هكذا تخيلت وأغلقت الباب عليه. حاول أن يعود حتى يوصي زوجته على العمارة. أبقته محروسة في السيارة. وذهبت إلى حجرته

وأوصت زوجته على العمارة حتى يعود زوجها من مشوار معها. لن يستغرق أكثر من ساعة.

في القسم سلمته للضابط النوبتجي، قالت إنها تتهمه بالتواطؤ مع الذين سرقوا شقق العمارة، سرقة جماعية، عشرون شقة سرقت. كم من الوقت استغرقه ذلك؟ كيف نزلت كل المنقولات من الشقق وحملت على السيارات؟ ثم إن الشقق كلها مفتوحة من أبوابها. وهذا يعني أن المسروقات خرجت من باب العمارة. الذي يسكن بجواره. استمع الضابط لكلامها. دون أن يدونه، وكان ينظر إلى البواب كلما قالت جديداً.

استأذنت وتركته. قالت للضابط إن البواب الذي أحضرته له بنفسها، لا يجب عليه أن يتركه قبل أن يحضر الذي سرقوا الشقق. قال البواب إنه لا يعرفهم، والضابط قال إنه يعرف شغله بعيداً عن التعليمات والتوجيهات.

مشت، تركت القسم، بحثت عن نجار يعيد باب الشقة إلى ما كان عليه. يتربس الباب. يغلقه. قالت لها ندا إنها لا بد وأن تحصلا على اسم وعنوان وتليفون النجار؛ لأنه أول من يعرف سر الباب الجديد.

والنجار من جانبه أخرج دفترًا ودون بيانات الشقة. وطلب منها بطاقتها ونقل بياناتها وجعلها توقع على إقرار أنها صاحبة الشقة التي سيذهب لإصلاح بابها. أما عن الأتعاب فقال إنه لن يتكلم عنها إلا بعد أن يعرف المطلوب عمله.

اشتراط عليها أن توصله وأن تعيده لمحله بالسيارة، وقال لها إن انتقاله من محله له حساب خاص. خاصة وأن كل الصنایعية الذين عنده في الخارج. يعملون عند زبائن مثلها، وانتقال الأسطى له حساب؛ هذا لأنه سیتترك عمله فترة من الوقت، قد تطول. وتعطل كل الأعمال التي يشتغل فيها، وهو لن يذكرها أن هذا اليوم موسم عمل. لم يحدث من قبل. ثم إنه يقوم بعملين في وقت واحد. نجارة وفني كالونات وأخصائي مفاتيح. وكان يمكنه أن يجعلها تعتمد على كل هؤلاء الصنایعية.

عندما اعترضت على كلامه عن زيادة الفلوس التي قال إنه سيضيفها مقابل ذهابه معها. سألها وهل كشف الدكتور في العيادة مثل أجرة ذهابه معك إلى البيت؟ ردت على سؤاله بسؤال: وهل أنت دكتور يا حسرة؟ قال لها

دكتور ولكن في نجارة الخشب أعرف في شغلي ما لا يعرفه الدكتور.

قال لها إنه يمكن أن يخفض من السعر إن كانت هناك أبوابا أخرى تحتاج إلى نفس الشغلانة. قالت له في العمارة عشرون شقة تحتاج إلى شغل في الأبواب ولكنها لا تعرف سوى شقتها هي.

في المرة الثانية سعدت معها ندا والولد. خافت عليها من الصعود بمفردها مع النجار في عمارة لا يسكنها سوى الأشباح. يسكنها الغائبون بغياهم. أحضرت لها كرسيًا من داخل الشقة؛ حتى تجلس عليه لحين الانتهاء من الشغلانة.

ندا والولد تابعا كل ما قام به النجار. والنجار عرض على محروسة شراء كالون جديد. وأن يصلح الباب ويريحه فيه. قالت: لا المقصود هو مسمرة الباب الذي لن يفتح إلا عند حضور أصحاب الشقة في الصيف القادم. ندا تدخلت، قالت: إن أصحاب الشقة على سفر عابر. سيعودن منه الأسبوع القادم. كذبة بيضاء؛ ربما كان النجار جزءًا من العصابة التي سرقت البيوت والشقق.

قبل أن يغلق الباب نهائيا أخذتها ندا. مرتا على كل  
مداخل الشقة ومنافذها من الداخل. الشرف والنوافذ وشباك  
الحمام وشباك المطبخ، وهما الملاصقان لمواسير المياه،  
ومواسير الصرف الصحي. كانت كل المخارج سليمة لم  
تمس.

كان أكثر ما أحزن محروسة أنهم سرقوا اللوحات  
والصور المعلقة على الحيطان. كانت هنا صورة لمحروسة  
مع نجم الدين. وكان هنا صورة ثانية لكل الأشقاء الذين لم  
يعد يجمعهم سوى هذه الصورة. صورة نادرة. كانوا يفكرون  
في أخذها؛ لكي يطبعوا عليها نسخًا أخرى كثيرة.

نجم وهي والأولاد السبعة في وضع أصبح من رابع  
المستحيلات إعادته. مات من مات. ورحل من رحل.  
وحدثت مشاكل بين البعض. كان جمع شملهم حتى من أجل  
النقاط صورة غير ممكن، ولا في الأحلام.

سألتها ندا: هل كان الإطار لونه أصفر؟ أو مات لها  
نعم. عادت وسألتها محروسة:

— لم؟

قالت:

– ربما تصوروا أن الإطار من الذهب ؛ولهذا  
سرقوا الصورة. هل هناك من يسرق صوراً؟  
الورق لا يجد من يسرقه. هل هناك من يسرق  
كتائباً؟

سقط قلبها بين ضلوعها، وفقدت حتى القدرة على  
التنفس، قالت ندا كتاب؟! لا يأخذه سوى تاجر الروبائيكيا مع  
الجرائد القديمة، وبعد اختراع أكياس الورق يرفضون أخذ  
كل ما هو ورق. اطمأنت محروسة. ندا تتكلم عن الورق  
وليس عن الكتاب الذي سيبقى سرها الخاص.

\*\*\*

قررنا العودة إلى القسم للإدلاء بالأقوال الجديدة أمام  
الضابط، ولتعرفا تصرفه إزاء البواب. وهل هناك أمل في  
الوصول إلى المسروقات. سألتها ندا، هل معها توكيل رسمي  
من نادبة بإدارة الشقة ورعايتها في غيابها؟ قالت لا، هل كان  
أحد يتوقع ما جرى؟ قالت ندا: بعد أن تمر المحنة لا بد من  
الاتفاق. مع باقي السكان على تكليف شركة من شركات

الأمن الخاصة بحراسة العمارة. البواب موضة قديمة.  
وشركات الأمن الخاصة هي الضمان للشقق التي توجد فيها  
أدوات تقدر بمبالغ ضخمة وخيالية.

ذهبنا إلى القسم. اتجهت محروسة إلى الضابط. الذي  
سلمته البواب يدا بيد قالت للضابط:

– البواب مشترك وموالس مع العصاة التي سرقت  
الشقة.

– أي بواب؟ أي شقة؟

– شقة ابنتي التي سرقت. هل أذكرك؟

ردت عليه وهي تشير إلى نفسها:

– أنا التي أحضرت لك البواب.

سألها:

– أي بواب؟

بدا كأنهما يلفان في دائرة مفرغة.

قالت له:

– سلمته لك يدا بيد.

أشارت إلى المقعد الخالي أمام المكتب الذي يجلس عليه. قالت: كان يجلس هنا، رجل صعيدي يلف رأسه بلاسة. اكتشفت في هذه اللحظة فقط غياب البواب. شهقت. هل هرب البواب حتى من البوليس الذي أحضرته إليه بنفسها؟ صاحت في الضابط. طلب منها التزام الهدوء، وأن تكون مهذبة في كلامها وألا تنسى - ولو للحظة واحدة - أنها في قسم شرطة، وأن الضابط يقوم بعمله. وأي تعدٍ عليه يجعله يلقي القبض عليها ويعرضها على النيابة.

ذهبت إلى رئيسه، نائب الأمور. فأنكر الضابط النوبتجي أنه تسلم منها البواب. سألتها: هل البواب كيلو جوافة حتى أتسلمه منك؟ قالوا لها إن كل المطلوب منها أن تقدم شكواها وهم سيتصرفون في الأمر. سألتها نائب الأمور عن اسم البواب، قالت أيضا لا تعرف اسمه. والبلد الذي جاء منه؟ قالت إنها لا تعرف. سألت: متى سيرسلون من يقبض على البواب؟ لكي يحضره لهم؛ لأنها لا تستطيع إحضاره مرة أخرى؟

قالوا لها مشكلتها واحدة من آلاف المشاكل في البلد، زلزال ومصائب وتوابع فماذا يفعلون لها؟ قالت لهم إنها أم

قاضي معار يعمل في الدول العربية. أرسل الضابط معها أمين شرطة؛ ليحضر البواب بمعرفته.

في العمارة تكتشف عدم وجود البواب وأسرته. وكل البوابين الذين في العمارات المجاورة، أنكروا معرفتهم سوى باسمه الأول: سعيد. ولكن ماذا بعد؟ لا يعرفون. ومن أي البلاد جاء؟! ضربوا كفاً بكف. ومن الذي جاء به؟ لا يعرفون، وأين هو رئيس اتحاد الملاك الذي من المفروض أن معه صورة البطاقة الخاصة به؟ علم مكانه عند الله.

اقترحت عليها ندا أن تذهب إلى حيث شقة ناجح، وبعد الاطمئنان عليه تعودان إلى العمارة، ولا بد أن البواب سيظهر عندما يعرف أنها مشيت ولن تعود. كانت محروسة قد وصلت إلى حالة من الزهد. كل الأمور أصبح تتساوى عندها. لم تعد راغبة في العودة إلى القسم أو البقاء في العمارة. حتى إكمال مشوارها لم تعد راغبة فيه. قالت لندا كل الأمور سيان.

كانت تخشى مما يمكن أن تفاجأ به عند ناجح. وكانت تخاف مما يمكن أن تجده عند نادي. كان الألم قد

وصل إلى حبة قلبها. نخاع عظامها، وكانت قد بدأت تشعر  
بألم جديد وطارئ في عينيها.

.. ندا هي التي اقترحت عليّ أن نكمل مشوارنا، ما ذنب الذين لم أذهب إليهم حتى أظلمهم. ما دمت قد ذهبت إلى الجميع فلا أقل أن أذهب إليهما، قد يكونا في شدة أكثر من الذين ذهبت إليهم. تساءلت في مرارة: وهل هناك ما هو أكثر؟!

قالت لي ندا، فات الكثير ولم يبق سوى القليل، وأين هذان المشواران من المشاوير التي قمت بها؟ قلت لنفسي إنهما ليسا مشوارين. ثلاثة مشاوير، ولكن المشوار الثالث لا علاقة لك به. إنه المشوار الوحيد الذي لا يمكن أن تكون لك علاقة به، بعينك، لن آتي على ذكره، وعندما أقوم به سأستأذن منك، أشكرك على ما قدمته لي وأودعك، على أن يكون الوداع الأخير لا أراك بعده.

عرضت عليّ أن تتركني، أو أن تبقى معي، عرضت عليّ الذهاب إلى البلد وتقوم هي بالمشوارين بدلاً مني، قلت يا عيب الشوم. قالت إنها لن تقوم بهما بمفردها، سيكون معها نجم الدين الصغير، ابن نادر، قالت هذا وملست

على شعره المسبب الجميل، ذكرني منظر شعره بأمه، قلت لها إنني هنا وسأقوم بالمشوارين، والتعب يمكن أن يؤجل لحين العودة إلى البلد.

لعب الفأر في عبي. ندا تريد أن تصبح واحدة من العائلة، تدوس بقدميها في حبات القلوب وتكسر أعينهم بهذا الجميل. وتفرض نفسها كواحدة من العائلة. وهل هناك أكثر مما تقوم به يعطيها هذا الحق؟.

وناجح الذي يعيش في العباسية لم يكمل تعليمه. تعلم تعليماً متوسطاً. كان والده يريد منه أن يدرس التاريخ. وأن يدون تاريخ مصر. منذ بدء الخليفة. وحتى الآن. لكن ناجح رفض ما يريده والده تسيطر عليه فكرة أن يصبح رجل أعمال. كان يقول لنفسه إنه رائد. الريادة تأتي من أنه فُكّر في هذه الشغلانة قبل أن تصبح حكاية رجال الأعمال أهم ما في البلد. وشغلانة من ليست له شغلانة.

كان يقول إن كل المطلوب حتى يصبح رجل أعمال، القيام بعملية واحدة تضرب معه وترفعه ل فوق ويصبح رجل أعمال. ويتحول إلى شخص ملء السمع والبصر. كان رجال الأعمال قد هُلّوا على البر، وكان ناجح يشاهدهم في

التليفزيون في الإعلانات بالتحديد. ويقرأ عنهم في الصحف والمجلات، كانت تلهب خياله وتبهر فؤاده قصص النجاح الغامضة التي كان يسمع عنها. كان والده يحذره ويقول له إن كل ما يسمعه كذب في كذب، وإن الوجه الآخر للصورة لهؤلاء. والشوارع الخلفية لكل واحد منهم. يختلف عما يقولونه للناس. إن ما يعلنونه عن أنفسهم يعتبر نوعاً من الزواق. الطلاب الخارجي، المصدر إلى من هم أمثاله. من المبهورين.

كان مصمماً. كان يقول إنه جاء إلى العالم لكي يصبح رجل أعمال. وأنه لا يصلح لأي عمل سوى أن يكون رجل أعمال. كان يقول عن نفسه رجل الأعمال الصغير المعجزة. الصبي المعجزة. الطفل المعجزة. كان يصف نفسه بأوصاف غريبة.

لم يكن يعنيه الطعام والشراب، كان همه الأول هو مظهره. من يومه وهو حريص على ربطة العنق، حتى في عز شهري يوليو وأغسطس. في عز الحر. كان يبدو مثل السياسيين والقضاة ووكلاء النيابة. البدلة الكاملة والقميص وربطة العنق، والنظارة السوداء. يمشي على سنجة عشرة.

حتى لو كانت فانتته الداخلية مثل شبكة الصياد من كثرة الثقوب التي فيها.

يقول إن مظهره هو نصف رأسماله. وهو أيضا نصف الطريق إلى نجاحه. لكن والده - يرحمه الله - قال له: وماذا عن نصف الطريق الآخر إلى هذا النجاح؟

كان قبل أن ينام يلمع حذائه بنفسه. ويضعه فوق المكتب. الذي كان يذاكر عليه. هو وأخته. وكل ليلة كانت تنتهي بخناقة بينه وبين أشقاءه. عندما يضع حذائه على المكتب، الذي من المفروض أن يذاكر عليه أشقاءه. كان يفرش جريدة. يضع الحذاء عليها. كان إخوته يسألونه: هل يتساوى العقل مع الحذاء؟ لم يكن يعرف الإجابة. وتبدأ المشاكل التي لا تنتهي سوى بتدخل والده.

كان يغسل شرابه بنفسه. وكان يكوي ملابسه بنفسه. وكان أكثر ما يهتم به ياقة قميصه وأساوره. كان يرفض إرسال الملابس إلى المكوجي. كان يقول إنه لو أرسلها لا يضمن أن تشييط منه. نتيجة خطأ ما. وفي الملابس الخارجية غير مسموح بالخطأ حتى ولا بنسبة واحد في المليون. ذلك

أن الملابس هي جواز مروره - ربما الوحيد - إلى دنيا رجال الأعمال.

المظهر وحل مشكلته. ولكن ماذا عن الباقي؟ عن رأس المال؟ قال له والده. إن الملابس هي الجهاد الأصغر. ولكن الجهاد الأكبر هو رأس المال. لف ودار. داخ من الدوران. ولم يتمكن من البدء. والده قال له: كله إلا حكاية رأس المال. لسبب بسيط. أنه لا يملكه. لكن ناجح لم ييأس. كان نبع الأمل في داخله بلا حدود. كل يوم كان يقول: إن الغد سيكون أحسن. وإن أتى هذا الغد. ولم يأت الأحسن. كان يعدل الشعار. كان يقول إن بعد الغد. أو بعد بعد الغد. ربما كان أفضل.

انتظر أخته نادية، إلى أن حضرت في الصيف. ذهب إليها. وبعد المرحاب والسلامات والذي منه، دخل في الموضوع. طلب منها أن تقرضه مبلغًا من المال يبدأ به حياته، سألته عن المبلغ المطلوب. كان في ذهنها مبلغ أقل كثيرا من الذي طلبه.

فوجئت بضخامة المبلغ. مائتي ألف جنيها. ولكي يقصر المسافة عليها. نطقها بالدولار؛ لأن الرقم سيكون أقل.

قال لها. خمسة وسبعون ألف دولار أمريكيًا. قالت له والدهشة تسبق كلماتها. لا يمكنها أن تعطيه هذا المبلغ. سألتها: كم يدفع لها البنك فائدة على أموالها؟ قالت: ليس معها هذا المبلغ الكبير. كان كبيره مفاجأة لها؟ سألتها: ما سعر الفائدة؟! الفائدة؟!!

قبل أن ترد. قال لها. أليس ٧% وقبل أن ترد عليه. قال لها. من الممكن أن يصل معها إلى ٢٠% فائدة. أي حوالي ثلاثة أضعاف المبلغ الذي تحصل عليه من البنك. علاوة على صلة الرحم التي تعطيه أحقية وأولوية على البنك.

قالت له إن كل ما تملكه. لا يكمل جزءا من المبلغ الذي طلبه. حلفت على المصحف الشريف. رفعته على عينيها وأقسمت حتى يصدق. طلب منها أن تطلب من زوجها هذا المبلغ. وسيصبح فرصة لتؤمن نفسها ضد غدر الرجال. قالت إنها لا تستطيع ذلك. البساط مع زوجها ليس أحمديا إلى هذا الحد.

كان عندها حل آخر. أن تبحث له عن عمل وترسل له العقد. ومعه تذكرة الطائرة، ويجرب حظه، ويدخر المبلغ

الذي يبدأ به. سنة أو سنتين. بالكثير ثلاث سنوات، ويعود برأس المال المطلوب وربما أكثر. من يدرية. قد يقرر البقاء هناك ويصبح رجل أعمال في بلاد الغربية.

رفض مناقشة الفكرة. سنة؟ سنتان؟ ثلاث سنوات؟! لو ترك البلد أسبوعًا. سيعود ليجد أنها بلد آخر. الفرص لا تنتظر الناس. سيعود ليجد أنه لم يعد له مكان. والمبلغ الذي حدده للبدء سيتغير. سيكبر. المائتا ألف جنيها قد تصبح مليونًا بعد سنة. ومليونين بعد سنتين. كل سنة تأتي معها بمليون زيادة. قطار رجال الأعمال انطلق، ولن يتوقف في انتظار أحد. أي مجنون يقبل الرحيل؟

قال لها إنه لا يطيق أن يصبر، وحتى إن سافر معها وعاد. فإنه لا يضمن أن تكون الأمور مازالت سهلة وميسرة. كما هي الآن. الجميع في حالة سباق مع الزمن. إما أن ينجز ما يريده.. وإن تأخر ربما تكون الفرصة قد ضاعت للأبد. علينا أن نجري وراءها.

كان يرى أن باب الفرصة يدقه الإنسان مرة واحدة في حياته. وإن لم يفتح له الباب ضاعت منه. وذهبت إلى آخر. ربما كان أكثر استحقاقًا لها. وإن ضاعت منه. ضاع

منه العمر كله، ولكن إن فتح الباب. ربما كانت ضربة الحظ. التي يمكن أن ترفعه أعلى مما كان يتصور. الخيال البشري يعجز عن تصور الأمور لو كانت الرياح مواتية.

ترك أخته ولم يعد لها، لم تكن تمثل له سوى مشروعه المجنون. ولم يكن يسمح لأحد أن يتكلم عن المشروع بطريقة لا ترضيه، مر على إخوته. تحدث عن مشروعه. اقترح تكوين شركة مساهمة. وكل واحد يشتري أسهما. شركة عائلية. والربح يوزع حسب عدد الأسهم. ولم يكن مع أي منهم ما يعطيه له.

جاءني وتكلم عن الميراث بعد وفاة والده. أي ميراث تركه المرحوم؟ جاء إليّ بعد أن فشل مع الجميع. كان الميراث هو آخر سهم في جراب الحاوي الذي يحمله في عقله.

قلت له قبل أن ينطق. شقة المنيل؟! أختك تعيش فيها. لعلها تحل مشكلة زواجها. وتخرجها من نفق العنوسة المظلم الذي تعيش فيه. وهي شقة إيجار لا تساوي شيئاً. الدار التي اشتراها أبوه في البلد التي أعيش فيها؟ كان يزورني في هذه الدار. وقد دهشت من هذه الزيارة كثيراً.

ولم أتعب نفسي في معرفة سبب الزيارة. دار في قرية صغيرة. كم تساوي يا ناجح؟ فضلاً عن أنه بيت العائلة.

عرض علي □ الحياة معه في بيته الذي في العباسية. رفضت. أي عباسية؟! قلت له لم يبق سوى التربة وإن بعناها. أين ننقل عظام والده؟ وأين سندفن بعد الموت؟

ومعاش حضرتك يا نينة؟! نطق هذه الجملة بحنان لا أعرف من أين أتى به؟ لم يحدد ماذا يريد من معاشي؟ قلت له إن المعاش لا يكفيني حتى نصف الشهر. ولولا ما يعطيني إختك لمددت يدي. النصف الثاني من الشهر تزق الأيام بعضها حتى لا أضطر إلى السلف. وأمد يدي للآخرين. وإن مددت يدي. من أين سأسّد ما علي؟

قال إنه كان يفكر في رهن شقة المنيل. وبيت البلد والتربة ومعاشها لبنك من البنوك. مقابل مبلغ يحصل عليه. يبدأ به. قال لي. لا تنسي يا نينة أنني لم أتعلم تعليماً جامعياً مثل إختوتي. ولو تعلم لكان قد حصل على حقه. قلت له: أنت الذي اخترت هذا. وصممت عليه. كان هو الذي أثار حكاية التعليم قبل نادر ربما كان نادر هو الذي سبقه. لا أذكر بدقة.

سألته لِمَ اختار السكنى في العباسية؟ هل يسكن أحد بجوار المجانين؟! ألا يخشى على نفسه من عدوى الجنون؟ قال إنها منطقة تجارية. وصناعية وقرية من المناطق التجارية الأخرى. تقع في قلب المدينة. سهلة الاتصال والانتقال مع البلد كلها.

لم أفكر في زيارته من قبل. قال إنه كثيرا ما يكون خارج البيت الذي لا يستخدم سوى في النوم فقط. وإنني لو زرتة لا بد وأن تكون معي ورقة وقلم لكي أكتب له بالقلم على الورقة: حضرت ولم أجدك. والدتك. ثم أضع الورقة تحت الباب.

أكثر ما كان يحز في نفسي ويحزنني ويسبب لي الألم. أن إخوته كانوا يقولون لي إنهم يقابلونه صدفة في الشارع. أي صدف في مدينة يسكن فيها الملايين؟ لا يزورون بعضهم. البيوت وجدت من أجل التزاور. الأخ للأخ عزوة. والشقيق للشقيق سند.

بعد أن تمر هذه المحنة. سأطلب منهم أن يزور بعضهم البعض وأن يرتبطوا بصلات إنسانية. لو أن ظروفهم كانت تسمح لجئت وعشت هنا. المعاش لا يكفي. في القرية

الصغيرة لا يكمل الشهر. في أكثر الأشهر أمد يدي على  
فلوس نادية. وعندما تحضر في الصيف. وتعطيني مما  
أعطاها الله. أكمل مما أخذته منها.

الأسعار في مصر أصبحت نارا ولا أستطيع الحياة  
فيها. وإن كنت لا أقول هذا في حضور أحد من الأولاد. وإن  
قلته أكون مضطرة. كانت المسافة من مدينة نصر إلى  
العباسية قصيرة. وصلنا بسرعة من الحي الجديد إلى الحي  
الوسط لا أقول عنه القديم؛ حتى لا يغضب مني ناجح.

ركنت ندا السيارة. وصعدنا نحن الثلاثة إلى الشقة.  
أنا وندا ونجم الدين الصغير. من يدري؟ قد يجد في ندا  
هدفه. امرأة ومتريشة ومعها فلوس كثيرة. عائدة من الدول  
العربية. حيث عملت هناك. إن لم يكن قد بدأ مشروعه، ها  
هو مشروعه. البننت لزقت لي. والحل الوحيد أن أجد لها  
بديلاً لنجيب.

خبطت الباب مرة مرتين. ثلاثاً. لم يرد عليّ أحد.  
أوشكنا أن ننصرف، في الوقت الذي أتانا فيه السؤال مفزوعاً  
ملتاعاً من الداخل: مين؟ مين؟ قلت له: أنا. سأل: إنت مين؟!  
قل له والحزن يسيل من بين كلماتي. كيف لم تعرف صوتي

يا ابني؟! قال لي: من أنت؟ لست قاضيا لسماع مثل هذا الكلام. من أنت؟!

أخذ الحوار شكل السؤال والجواب من وراء الباب. بطريقة أفرغتني. إن قلب الابن الذي لا يعرف صوت الأم لا يكون قلبا، وأنف الابن لا بد وأن يشم رائحة أمه. ويعرفها حتى دون أن تتطرق. يحرمه من كلمة ابن.

كان ابني يصرخ من وراء الباب. كالأسير. كصوت

الإنسان المحاصر. كان صوته يصل إلى آخر الشارع. سألتني: إن كنت أمه. من الذي معي؟ الأقدام التي دبت على بلاط الفسحة أكثر من قدمين. كان يقف وراء الباب لحظة صعودهم. والأصوات هي دليله لرصد ما يجري خارج الشقة.

الوقت ليس وقت العتاب. أقسمت له إنني أمه. أوشكت أن أذكره بعلامات في جسمه. لا تعرفها سوى الأم. أن أكلمه عن الوحمة التي في فخذة الأيمن، وعن الحسنه التي في صدره. ولكنني تراجعت. إن تكلمت بصوت عالٍ عن هذه الأمور. أكون قد أخطأت. عدوى علو الصوت

انتقلت لي منه وإن همست قد لا يسمعي وقد يزداد خوفه مني.

عاد يسأل من الذي معي؟ قلت له معي ابن أخيه نادر نجم الدين. الذي يحمل اسم المرحوم. سألتها: هناك ثالث معها. من هو؟! قلت له: إنها صديقة لي. صاحبة سيارة خاصة. تبرعت أن تكون معي في هذه المشاوير الصعبة. سألتني: هل عندك ضمان أنها ليست لها صلة بالبوليس أو بالمباحث؟ سألته: وماذا فعلت أنت حتى تخاف من البوليس؟ وحتى تعمل للمباحث كل هذا الحساب؟

قال لي: ليس من حقي سؤاله. هو فقط الذي يسأل. وأنا أجيب فقط. عاد يسأل: ما الضمان أن المباحث لم تدس هذه المرأة علي؟ أو أن البوليس نجح في تجنيد الولد. على الرغم من أنه عمه. أقسمت له إنني أضمن الولد والست. مثلما أضمن نفسي.

طلب مني أن ينزل الولد. وأن تنزل المرأة التي معي وألا أحاول خداعه؛ لأنه يدرك كل شيء بالسمع. بعد أن ينزلا إلى الشارع. سيفكر في فتح الباب لي. سألتني سؤالا لا

قطع قلبي: هل جئت لتسلميني يا أمي؟ لم أكن أعرف عن أي الأمور يتكلم. وتسليم من؟ ولمن؟

أقسمت له برحمة والده، وهذا أعز ما أحلف به، لا أعرف عن أي الأمور يتكلم. طلبت من نجم الدين بصوت عالٍ أن ينزل. كان هدفي أن يسمع ابني الذي بالداخل هذا الكلام. وطلبت من ندا أن تنزل وأن ينتظراني في السيارة تحت.

سمع ناجح ابن بطني كلمة السيارة، وسمعت صوت حركة غريبة بالداخل. قال إنهم قبل القبض على أي إنسان يحضرون سيارة حتى يأخذه فيها. سألته: أي قبض عليك يا ابني؟! ابني في شدة. سكت حتى يسمع بأذنيه صوت الأقدام النازلة. ويتأكد أن الولد الذي معي وأن المرأة التي معي، قد نزلا وأنني أقف بمفردي أمام باب الشقة.

وندا بعد أن أصبحت في الدور الذي أسفل الدور الذي أقف فيه. صاحت بأعلى صوتها. إنها ستنتظرنني تحت. وهو سألني بعد أن سمع معي صوته من هي ندا؟ كان من الصعب الإجابة عليه.

هل أقول له: إن ندا هي حبيبة شقيقك القاضي؟ هل  
أقول له. إنها تصلح لأن تكون عروسة له؟ أكدت له ما سبق  
أن قلته له. ندا هي صديقتي. جاءت معي لأن معها سيارة؛  
لتسهل لي الاطمئنان عليه.

.. قلعة أم حصن من حصون العصور الوسطى؟ أم بيت يسكنه بشر؟ ترابيس كثيرة. كان ينطق: الترباس الأول ثم يفتحه، يبدو أنه يريد أن يؤكد لنفسه عدد الترابيس؛ حتى يشعر بالأمان. وأنا كنت أميز الترابيس من أمرين: أرقامها التي ينطق بها، وصوت كل ترباس، الذي كان يختلف عن الآخر.

عندما بدأ يفتح الكالون الأول، كانت له ست سكات، وكانت هناك ثلاثة كوالين، كالون في أعلى الباب، بدأ به، وكالون أسفل الباب ثنى به. وكالون ثالث في المنتصف ختم به.

خمسة وعشرون سدا منيعا تحول بينه وبين العالم. هل هو في حالة حرب الدنيا؟ هل ينتظر جيشًا لغزو شقته سيصل بعد قليل؟ ما الحكاية بالضبط؟ جعلني المنظر الذي أشاهده أمامي أتساءم، وأنا مؤمنة بحكاية التفاؤل والتشاؤم. ربما بسبب نشأتي الريفية، ومن طول العشرة مع نجم الدين النجومي.

استخرت في نفسي، قلت لأول مرة منذ رحلتي، اللهم اجعله خيرا. تمنيت أن يكون الأمر أقل مما توقعت، ربما كان ناجح ببالغ في الحكاية ليحصل على شفقتي، وراء هذا مصيبة كبرى، حدثت لناجح الذي كنا نتوق نجاحه، كان نجم الدين يقول لكل منا من اسمه نصيب. كنا نشعر بالذنب تجاهه لعجزنا عن أن نوفر له ما يبدأ به حياته. كنا نعتمد على ذكائه ونجاحه في بعض الأمور العملية.

بعد أن انتهى من فتح الترايبس والمباريس والسكات، شد الباب إلى الداخل، ولكنه لم يفتح، كانت ثمة سلسلة من الجنزير وراءه، تشد الباب إلى الحائط، أبقاها كما هي، ونظر. كل هذا ولا يثق أن التي بالباب هي أمه، ولا يصدق أن اللذين مع أمه قد نزلا.

نظروا إليها أكثر من مرة. دارت عيناه في محجريهما. كما أعين اللصوص، وقطاع الطرق والقتلة. كانت عيناه تدوران بوجل واضطراب، نظراته مذعورة؛ لدرجة أنني خفت منه وكررتني بنظرات المجانين.

كان ينظر إليّ بطريقة غريبة. وأنا واقفة صامتة، الستر أهم ما عندي. أراعيه. في كل تصرفاتي. ربما ينظر

جيرانه من العين السحرية، يرون المشهد، ولو تكلمت سيسمعونني؛ ربما لا يعرف أحد من جيرانه الأزمة التي يمر بها.

نظرت إليه في صمت. سألني: احلفي بالمصحف الشريف هل معك أحد؟ حلفت له به بالمصحف الشريف إني بمفردي. هل مازلت تذكر يا ناجح المصحف الشريف؟ الذي كان أبوك يحلفك عليه كلما شك في كلامك. وتصور أنك تكذب عليه. الحمد لله، إن لسانك القديم مازال في فمك. وأنت مازلت تذكر القسم والحلفان. والذي كان أبوك يحلفك به في سالف العصر والأوان. استعاد وجهه إنسانيته القديمة لأول مرة.

حلفت له بالمصحف الشريف ثلاثًا. وحلفت له برحمة الغالي إني بمفردي. قبل أن يفتح الباب والسلسلة، رفع أشياء كثيرة من وراء الباب. كانت ثقيلة؛ لأنني سمعت صوته يئن وهو يرفعها.

رفع السلسلة ووارب الباب. أصبح بين الباب والجدار شق صغير، مثل شق الثعبان. كانت فتحة الباب أضيق من فتحة القبر. وهل هناك أضيق من القبر؟!

مررت بجانبها، تمكنت من الدخول بصعوبة، بعد أن دخلت، نظر على بسطة السلم، نظر يمينًا وشمالًا، نظر على السلم الصاعد إلى أعلى، والسلم النازل إلى أسفل، نظر على باب شقة الجيران الذي كان مغلقًا. بعد أن انتهى دور عينيه، جاء دور أذنيه، تصنت، حاول أن يتصيد أي أصوات يمكن أن يتتبعها، وأن يحاول اقتفاء أثرها.

ربما كنت أول من يدخل هذا البيت منذ أيام وربما أسابيع أو شهور مضت؛ كل المنافذ مغلقة بإحكام، رأيت كومة من الحديد والأثاث مركونة وراء الباب.

سألني: هل كان أحد يعرف أنني سأحضر إليه؟ قلت لا. عاد يسأل: هل لاحظت وأنت في الطريق أن هناك من يتبعك؟ سألته: لماذا يمشي ورائي الناس؟ قال: من أجل أن يعرفوا مكاني، ويقبضوا عليّ. سألته وأنا مازلت واقفة: و...  
م  
بمسكون بك؟

هذا جلس لأنه كان متعبا، كان يرتدي شورتًا وفانلة على يكون اللحم، بدا لي نحيلًا نحيفًا، لدرجة التلاشي والذوبان، أنحف جسم أراه بعد راقصة الباليه، من الصعب أن الذي أمامي هو ناجح، من قبل كان ممتلئًا، كان أحلى أبنائي،

وكنت أتفاخر بجماله، كنت أقول إنه لو جاء إلى الدنيا بنتًا  
لقتل الرجال أنفسهم من أجلها، لتقاتل الخطاب وقتلوا أنفسهم  
من أجل سواد عيونها. لكنه جاء رجلاً، إنه لا يقل جمالاً عن  
سيدنا يوسف، الذي جعل جماله النسوان يقطعن أياديهن بدلاً  
من التفاح، وجعل زليخة، زوجة عزيز مصر يطير برج من  
عقلها بسبب جماله. ناجح كان في نفس جماله.

سألني أبوه: وهل الجمال في الرجل عيب؟! كان  
سيدنا يوسف رجلاً وكان أجمل من الجمال نفسه. أقول له:  
إن الجمال مطلوب في البنت أكثر منه في الرجل.

تبخر جماله، تبدد، وجهه غابة من الحفر وأطلق  
لحيته، بدا مثل الأولاد السنوية الذي نشاهددهم في كل مكان  
حول الجوامع وعلى النواصي. شعره منكوش. أين أناقة  
رجل الأعمال؟ نصف رأسه ونصف الطريق إلى نجاحه؟  
أين جمال الصبي الذي فعل ما لم يقم به الكبار؟ هكذا كان  
يقول عن نفسه.

لم يطلب مني الجلوس؛ لأنه لم يكن فيه مكان يمكنني  
الجلوس فيه، الكنبية والمقاعد كانت مشغولة، فوضي تسود

البيت. جلس ووضع ساقًا ترتعش على ساق ترتعش. كدت أضحك للمرة الأولى في هذه اللحظة الكئيبة.

هو فعلاً ابني ناجح، لا يمكن أن يجلس سوى بهذه العنطزة والفشخرة الكذابة؛ ليعطي من أمامه الانطباع بأنه رجل أعمال بحق وحقيق، حريص على المظهر رغم ظروفه. شبك يديه المرتعشتين على رجليه، حاول أن ينظم تنفسه؛ لأن نفسه كان مكروثداً.

قلت له خذ نفسك أولاً. هل أحضر لك بق ماء تشربه؟

قال لي إن فمه جاف، لكنه يحاول الاستغناء عن الماء والكهرباء قبل أن يقطعونها عنه؛ لأنه متأكد أنهم في الغد، أو بعد الغد سيقطعون عنه حتى الهواء إن استطاعوا ذلك.

يحاول أن يسبقهم ويستغني؛ حتى لا يكون محتاجاً لهم، في أيام الحصار الطويلة القادمة، سألته:

- من هم؟!!
- الذين يطاردونني.

- ومن الذين يطاردونك؟! -
- خصومي والشرطة.
- وهل اجتمعوا عليك؟! -
- قال وقد استراح للسؤال:
- يريدون هزيمتي.
- ولكن البلد فيه حكومة.

شعرت برنين السخرية، وأنا أنطق بكلمة الحكومة،  
 ما رأيته في القسم، صباح اليوم، أكبر دليل على أنني لا أقول  
 له الصدق. أكملت:

- البلد فيها قانون، ونحن نعيش في مجتمع ولسنا  
 في غابة، قل لي ما المشكلة وأنا آخذ لك حقك.
- قال لي:
- كان غيرك أشطر، لن يأخذ أحد لي حقي؛ لأنه لا  
 بد من معجزة.
- سألته:
- أي معجزة قال:
- أي معجزة والسلام.

لا أذكر أنه حكى حكايته مرة واحدة، أو قالها بطريقة مرتبة، كان يهذي، يهلوس، يتفتف أثناء الكلام.

عيناه زائغتان، ذكرتني طريقة كلامه بالمجانين، كان يتكلم بسرعة.

قال لي: إننا بعد أن خذلناه، ولم نعطه ما يبدأ به حياته. اضطر أن يؤسس شركة والسلام، وأن يأخذ بضاعة لكي يوزعها. كان يأخذها بسعر الجملة. لو كان معي رأسمال لحصلت عليها بسعر نصف الجملة.

سألته:

- وما الفرق؟

قال لي:

- كثير.

الربح في نصف الجملة ضعف الربح في الجملة، جهد عامين، يمكن القيام به في عام واحد، لو كان معي رأس المال لاقتصرت المدة إلى النصف، تصوري الجريمة التي كنتم السبب فيها.

المواد أخذ مواد غذائية لكي يوزعها بضممان الشقة، ومحلّه، وسيارته، تأخرت أسبوعا في التوزيع، وحصلت على الغذائية، دون أن يكون عندي أسطول توزيع. كنت أخرج صباحا أبحث عن يشاركني في التوزيع، وكان صاحب مخزن الجملة الذي توجد فيه البضاعة، قد أفهمني بضرورة السرعة في توزيعها على محلات القطاعي. حتى لو بالخسارة؛ لأن بقاءها عنده يشكل ضررا عليه وعلى البضاعة.

لم يجد من يشاركه. كانوا يسألونني عن الضمانات ومن أين هذه البضاعة؟ ونسبة الربح. وأجر السيارات التي ستنقلها، على من؟ وتأمينها؟ وحلاوة السائقين والتابعين والشياطين؟ دخل الموضوع في متاهة. ولأنني لم أكن أريد أن أبدو مستعجلاً، وأني أريد الخروج من ورطة. كنت أتعهد التآني حتى لا ينكشف أمري في السوق؛ فيأكلونني.

ليته بدأ بعملية صغيرة. يستطيع بإمكانياته البسيطة القيام بها. لكنه قرر البدء بعملية كبيرة. مع أن والده قال له: إن الذي يبدأ صغيرا يكبر. أما الذي يبدأ كبيرا، فكيف يتطور بعد ذلك؟

ناجح كان يريد أن ينام ويصحو فيجد نفسه أكبر رجل أعمال في البر كله، كانت الخيالات قد أوصلته إلى حافة الجنون. كان إحساسه بالعظمة يجعله ينفصل عن الواقع ويتصور وجود أشياء لا وجود لها سوى في خياله المحموم.

كان يتكلم. كما لو كان يتكلم في التلفزيون. يجيب عن أسئلة لم توجه له. يشرح. يرد على اتهامات لم يتهمه أحد بها. كان يريد الكلام والسلام. حالة فضفضة تريح المأزوم. وتفراج عن المكروب.

سأل نفسه ذات صباح: ماذا يريد بالضبط؟ هل يرغب أن يكون رجل سياسة؟ أم رجل أعمال؟! كان يرد على سؤاله بسؤال: وهل هناك فارق بين الاثنين؟ رجل الأعمال مشروع صغير لرجل سياسة. ورجل السياسة جنين لرجل الأعمال. والاثنان يتلقيان معا. يمكن لهذا أن يخدم ذلك. ولذلك أن يسهل لهذا. والفصل بينهما خطأ. من الصعب معرفة أيهما يمهد للأخر. الفلوس توصل للسلطة؟ أم أن السلطة هي التي تحضر الأموال؟

اكتشف بعد أسبوع - يحكي ناجح - أن المواد الغذائية فاسدة. أصبح من المستحيل عليه توزيعها، والأكثر

استحالة أن يعيدها لصاحبها. ثم إنني لا أملك ثمنها. اشتريتها ووقعت باستلامها ولم آخذها، نقلت إلى مخزن تابع للرجل الكبير. وإن كان له صاحب سواه. واضح أنه من رجاله. وهكذا ظلت البضاعة عنده وهو مطالب برد ثمنها.

والرجل الكبير يا أمي. دقنه تغطي صدره. وجلبابه أسود. والسبحة تنزل من يده لتصل إلى الأرض. وفي قدمه بلغة سوداء. وعلى رأسه طاقية شبكية سوداء. يلبسها في نصف رأسه الأعلى.

لكن الدنيا انقلبت على الرجل الكبير. الذي كان يقضي نصف وقته يتمتم بآيات، دون أن يسمع أحد صوته وهو مغمض العينين. ولا يدري ماذا يجري حوله. أو هكذا يخيل لمن حوله.

اختفى الرجل الكبير. لا أحد يعرف مكانه. فماذا عن ناجح، وهو لم ينجح في أن يصبح من رجال الرجل الكبير؟ كانت الصفقة الأولى لاختباره. قال له الرجل الكبير: نريد أن يكون النجاح اسما على مسمى ولكنه لم ينجح. يعني ناجح نفسه من المسؤولية. البضاعة كانت فاسدة فات وقت

الصلاحية. ولا يقول إنه دخل على صفقة أكبر من إمكانياته.  
وأوسع من قدراته.

قيل عن الرجل الكبير إنه مسافر. مرة إلى أمريكا اللاتينية. وأخرى في أستراليا. وناجح مطلوب لرجال الرجل الكبير. لم يأخذ البضاعة. ولكنه وقع على الورق باستلامها. حاول أن يبيعها على الورق. ويخصم ربحه ويدفع الثمن الأصلي لرجال الرجل الكبير. الذين هددوه، وقالوا له سنحضرك ولو من بطن أمك. لا تخفى عنا خافية. نعرف عنك ما تفكر فيه.

مطلوب منه ثمن البضاعة التي باظت؛ لأنه تباطأ في توزيعها. وبعضها تسرب إلى الأسواق. لا يعرف كيف. ولكنه المسئول. المهم هو المستندات والأوراق. قال لأمه: لأنه لم يكن يملك سيولة. وقع على أوراق كثيرة على بياض. وسط الكثيرين من رجال الرجل الكبير حتى يقابله. ولو لمرة وحيدة. غير قابلة للتكرار. قدم له رجال الرجل الكبير أوراقاً كثيرة. طلبوا منه التوقيع عليها. أشار ناجح أن الأوراق خالية من أي كتابة.

سَخروا منه. وقالوا: إن عظامه طرية. إنه لا يزال صغيراً. لا يعرف أن قوانين التجارة غير المكتوبة على الورق أهم من كل المستندات. طلبوا منه الاتصال بأخيه القاضي المسافر إلى الخارج. يطلب منه العودة لمصر لنجده. وأن تساعد أخته المسافرة. يدفعان له مبلغ المال المطلوب منه. حتى يبصر ساحتَه أمام الرجل الكبير. فيبحث له عن يشيل قضية ما تسرب من الأغذية الفاسدة.

الرجل الكبير عنده قوانينه الخاصة، وأي كلام مع رجاله لن يبدأ قبل دفع الفلوس أولاً. قضية معقدة الأعداء أمامه ومن خلفه. سمع حكايات. يشيب لها شعر الجنين في بطن أمه.

سألني: هل سمعت عن تقلع أظافر بشر أحياء؟ قلت

لا.

قال: رجال الرجل الكبير يفعلون هذا. عاد يسألني:

هل سمعت عن وضع قدم في مواد كاوية؛ فيذوب ولا يصبح له وجود؟ قلت لا. قال لي: رجال الرجل الكبير يفعلون هذا. سألني: هل سمعت عن فتح الصدر وإخراج القلب منه.

وإعطائه لولد صايع يمضغه أمامك؟ قلت لا. قال: رجال  
الرجل الكبير يفعلون هذا.

صرخت فيه: ولِمَ لا تشكوه؟ ولِمَ لا تلجأ للدولة؟  
وتذهب للحكومة؟ قال لي: لقد فكرت في هذا، درست الأمر،  
ولكني اكتشفت أن الذي سيشكو سيثيل القضية ويحمل الجمل  
بما حمل. يصبح مسئولاً أمام الحكومة عن كل المواد الغذائية  
الفاسدة التي تملأ الأسواق.

سألني: هل سمعت عن كل الذين ماتوا من الأغذية  
الفاسدة؟ سأشيل دمهم؛ لأن الرجل الكبير لن يصل إليه أحد.  
لن يعرف أحد مكانه. إن ذهبت للشكوى فسيتم القبض عليّ.  
وسأعتبر نليلاً يوصلهم إليه. وأنا لا أعرف المكان الذي  
قابلته فيه.

ولو رأيتَه أمامي لما تعرفت عليه.

قال لي، إنه عندما يقابل الزبائن الجدد. والأولاد  
الطراي، والأشخاص الذين لا يثق فيهم. يضع ماسكاً على  
وجهه. يقابله الناس بشكل غير شكله. ويرونه بصورة غير  
صورته.

سألته عن المبلغ المطلوب كم؟ قال ٠٥٢ ألف جنيه.  
ولكي يقصر عليّ المسافة قال: ربع مليون جنيه. خبطت  
صدري بيدي. قلت له: وهل تتصور أن كل ما جمعه أخوك.  
وجميع ما ادخرته أختك – لم أخبره عن سرقة شقتها بالأمس  
حتى لا يتشفى فيها – يمكن أن يصل إلى هذا المبلغ؟

قال لي إنه لا يطلب المبلغ كله. ولكن مجرد جزء  
منه. دفعة أولى. يدفعها لرجال الرجل الكبير تحت الحساب؛  
حتى يضمن حياته ويؤمن نفسه. ويخرج من الورطة.

ربما يكون الرجل الكبير قد ضعف موقفه، ولم يعد  
قادرا على الانتقام، المهم هو الدفع، سألته: والدفعة المطلوبة  
كم قال: لا تقل عن خمسين ألف جنيه. دخت. تهت من  
الأرقام.

كنا نعد أيا منا. وهم يعدون الأموال. كانت الأرقام  
التي نعدّها لا تتعدى المئات وهم يعدون بالملايين. كنا نعد  
ساعات الجوع والأزمة التي لا نجد فيها ما نفعله. وابني  
دخل دنيا من الأرقام لا أعرف كيف سيخرج منها.

كنت واقفة لا أزال. وكنت قد تعبت من الوقوف. ولم يكن أمامي مخرج يمكن أن أقدمه له. كنت متمسكة بضرورة أن يسلم نفسه. سيكون في أمان عند رجال الشرطة. سيحمله من غدر الرجل الكبير.

سيوفرون له الحماية من المجرم الكبير. وما قام به معروف. من الصعب الادعاء عليه. ربما يصبح شاهد ملك. يحصل على البراءة من أي تهمة.

رفض التسليم. قال إن من يده في الماء. وأشار إلي. ليس كمن يده في النار. وأشار إلى نفسه. صحت فيه. أي ماء؟ وأي نار؟ ألا تعرف النار التي تشتعل في حشاشة قلبي عندما أجدك في هذا الموقف. ألا تدرك الجحيم الذي أعيشه عندما أراك تتعذب أمامي ولا أستطيع أن أفعل أي شيء أكثر من نصيحة ترفضها. مع أنني أراها الصواب الوحيد وسط أخطائك. أي نار؟ وأي ماء؟.

احترت. اندرت. لم أعرف كيف أتصرف. لم أهدت إلى أي مخرج. كنت واقفة. وهو جالس يبكي ويتكلم ويضحك. يلطم خديه. يشد شعره. يقرص خده يحاول أن يؤلم نفسه. وأنا عاجزة، لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل له؟

ونحن نتكلم سمعنا صوت أقدام. وقفت أمام باب الشقة. صمت، أشار لي بعدم الكلام. طالت الوقفة، أصابته حالة من الهستيريا. قال لي: عملتها؟ لم أر إيد عليه. ماذا سأقول لهذا المجنون؟ تساءل: ماذا كان الثمن الذي قبضته؟ أعطيه لي؛ حتى أدفعه. سيكون الإفراج عني بكفالة كبيرة. سأحتاج لأموال في السجن حتى أمشي أموري. ادفعي لي ما حصلت عليه منهم.

قلبت جيوبي وأنا أنتفض من الحزن. كانت فاضية، فتحت بك الفلوس. وكان خاليا من الأمس. فوجئت بمبلغ من المال. من أين جاء؟ هل الذين سرقوني بالأمس تركوه لي؟ انشغلت في عده. كان أكبر من المبلغ الذي حضرت به من البلد.

كان معي ٥٧٢ جنيها وبعض الفكة. صرفت منها ونشل الباقي. وفي المحفظة أمامي ٠٠٥ جنيه. فوجئت بمنظر الفلوس. قال لي ناجح: ستحصلين على أوسكار تمثيل. لا تعرفين أن معك فلوسا. كنت أفكر، بعيدا عن هذيانه: من أين جاءت الفلوس؟! لا بد أن ندا وضعتها في البك ليلاً. هي الوحيدة التي عرفت أنني ليست معي فلوس.

هجم عليّ وأخذ الفلوس مني. قلت له: أريد فقط  
أجرة سكتي حتى البلاد. قال: بطّلي تمثيل. الكاميرا أغلقت  
والستار نزل. ولا أحد يصور. قمت. لا أمل. تتأثر فؤادي.  
كنت مستعدة أن أفعل ما أقدر عليه من أجله. لم يكن لدي  
مانع أن أسجن بدلاً منه. لكن ماذا أفعل والحكاية أمر من  
المرار. كانت دموعي تسح. وكان هو يضحك ساخرا مني.

منعني من الخروج. الأقدام التي توقفت أمام الشقة لم  
تتحرك. ينتظرون فتح الباب ويهجمون عليه. ويأخذونه.  
سواء كانوا من طرف الرجل الكبير أو من البوليس. الكل  
يطالب برأسه. وإن وصلت أيديهم إليه فلن يتمكن من  
الإفلات.

عرضت عليه الخروج معي. للذهاب إلى بيتنا في  
البلد بعيدا عن الكل. قال لي: الاتفاق إذن أن تسلميني بيدك  
لهم. يذهبون إلى البلد. ويحصلون عليّ. يقطعونني حتت.  
أكبر جزء سيكون في حجم رأس العصفور. سأبقى هنا. ولن  
أترك هذه القلعة. ولن يفتح الباب إلا على جثتي.

هددته أنني سأصرخ. سألم عليه سكان الحتة. إن لم  
يتركني أمشي. قال لي. ليس بعد أن تنصرف هذه الأقدام.

اتضح لنا أنه كشاف النور. دق الباب الذي أمامنا. عندما يأس من أن نفتح له. وأخذ رقم استهلاك النور من الشقة التي أمامنا، وعاد وخبط على باب ناجح وضغط على الجرس. الذي لم يكن له صوت؛ لأن التيار مفصول. ومشى.

وجدتها فرصة قد لا تتكرر للخروج، خفت من البقاء معه، لم أخف من الخطر الذي يتهدهد. كنت مستعدة لمواجهة الخطر بنفسي معه. لكنني خفت منه هو. من حالته المتدهورة. قلت له إن اللذين بانتظاري تحت إن لم أنزل إليهما سيصعدان إلى. وإن اكتشفا عدم فتح الباب سيحدث ما يخافه وأخشاه أنا أكثر منه. وتقع الفضيحة التي لا يعلم إلا الله المدى الذي يمكن أن تصل إليه.

تحول إلى إنسان آخر. توسل هو إلي. كاد يقبل يدي. عاد إلى ابني القديم. قال لي إن آخر طلب له مني. مبلغ من المال. يؤجر به عصابة. تحميه من الرجل الكبير ومن البوليس. ترسل له ناضورجيا. وحارسا. لمدخل العمارة. وحارسا لباب الشقة. إن ما تطلبه هذه الجماعة. مبلغ صغير. عشرة آلاف جنيه. تدفع على دفعات. ويمكنهم حمايته من أي خطر. سألته: ألا يعد ذلك خروجا على القانون؟ قال لي إن

العرف في هذه الأيام أقوى من القانون. وهذه العصابات جزء من النسيج العام. قلت: إن المبلغ كبير ولا وجود له. فضلاً عن أن العصابة لن تشكل حلاً جذرياً للمشكلة. إنه مجرد تأجيل لها. قال لي إنه يعرف هذا. قبل أن يطلب. يعرف أنني مستعدة أن أقدم له نور عني. إلا الفلوس. سعار الفلوس وصل إلينا.

فتح الباب، نظر في كل الاتجاهات، رفع السلسلة وفتح الباب. فتحة ضيقة تخرجني بجانبني. لحظة مروري من الفتحة الضيقة. تذكرت الكتاب. كيف أنساني الكتاب؟ وهل يعقل أن يكون الكتاب هنا؟ لا أعتقد. فكرت في العودة لسؤاله، ولكنني كنت في حالة يأس بلا حدود.

وقفت على البسطة أنظر إلى باب بيته، كانت هناك لافتة. ناجح نجم الدين النجومي. رجل أعمال. رقم صندوق البريد. رقم التليفون، رقم الفاكس.. رقم التلكس. استيراد وتصدير. الرمز البريدي. كل الأعمال التجارية الأخرى. غابة من البيانات. كيف لم أرها عند حضوري؟ جزء من عدة الشغل، وهذا الكلام مكتوب باللغة العربية ولغة أخرى أجنبية.

نظرت وكدت أن أضحك. وأنا أقرأ اللافتة. كنت  
أنزل على السلم ببطء. وأنا أفكر بهدوء. كيف يمكننا إنقاذه؟  
من نحن الذين يمكننا إنقاذه؟ أنا ومن من العائلة؟ أنا ونجية  
الباحثة عن عريس لا يشغل بالها سوى البحث عنه؟ أنا  
ونادر المغلوب على أمره؟ أنا وزوجة القاضي الحائرة بين  
طفل في الطريق وزوج أو شك أن يضيع؟ أنا ومن؟ أنا وشقة  
نادية التي أتى البواب باللصوص لكي يسرقوها وحمى  
سرقتهم وحرس لصوصيتهم؟ أنا ونادرة التي يؤجر زوجها  
شقتها بالساعة؟ أنا ومن يمكن أن ننفذك يا ناجح مما أنت  
فيه؟ لا أنا ولا الآخرون قادرون على أن ينفذوا أنفسهم.  
صدق من قال: فاقد الشيء لا يعطيه.

.. مهدودة الحيل، وصلت إلى السيارة، وضائعة، وضعت يدي على بابها. نزلت ندا، وفتحت لي الباب، ركبت بجوارها. وأعدت نجم الدين الصغير إلى الكنبه الخلفية. لم أتكلم. حدقت أمامي، كانت عيناى فى لون كاسات الدم. وجلد خدودى كرمش من كثرة الدموع.

احترمت ندا حالتى. ولم تسألنى. ولم تتكلم معى. مدت يدها تطلب النوتة التى معى؛ حتى تعرف العنوان الذى سذهب إليه: عنوان نادى. أعطيتها النوتة فى صمت. لن أقاوم رغبتها فى الذهاب معى إلى نادى. فكرت فى عدم الذهاب. ولكنى كنت متعبة، والرفض والكلام سىتعبنى أكثر. مشوار صغير وتنتهى الحدوتة.

جلست ساهمة. وضعت رأسى بين يدى. نظرت فى أرضية السيارة. لم أنطق بحرف واحد. وكان الطفل قد أصابه خرس. مع أنه الوحيد الذى يمكنه أن يسألنى. وأن يترازل على. وأن يتكلم بحريته معى؛ لأنه لا يدري ماذا جرى. لكن حتى الصبى كان صامتًا.

قرأت ندا العنوان بعناية. وأدارت السيارة. وقادتها  
بهدهوء في البداية. ثم أسرعت. رفعت رأسي. أسندتها لزجاج  
نافذة السيارة. وندا مدت يدها. أمنت الباب؛ خافت أن يفتح  
فأقع في الطريق. ليثها تركنتني أقع. ليتني ألحق بنجم الدين،  
لا أستطيع الاستمرار هكذا طويلاً.

كان نادي يسكن في شقة بعمارة قديمة. بحي  
الظاهر. لو كانت الظروف غير الظروف والحالة غير  
الحالة. لقلت لها. نحن في الطريق إلى ابني الذي خلق من  
أجل ندا. وهي أيضا جاءت للعالم من أجله. لتترك القاضي  
لزوجته وابنه. ما دام الله قد كتب لها نادي.

رياضي مثلها. مرح مثلها. بسيط مثلها. جاء على  
مقاسها. لماذا أستيق الأمور؟ لأنتظر حتى أرى المشهد على  
الطبيعة. يا سلام لو أن ندا اشتبكت مع نادي. نون ونون.  
نون الذكر ونون النسوة. ولو أنني وجدت الكتاب عنده وأعود  
إلى البيت من رحلتي، وأكون قد حققت بعض ما جئت من  
أجله. كتاب وعند نادي. من يصدق هذا؟!!

لماذا أبدو طماعة في أحلامي؟ يكفي أن يشبك نادي  
مع ندا. وينجو نجيب بحياته وزوجته وابنه. طفل الأيام

الآتية. هذا يكفي وزيادة، سأتركه يتعامل معها مباشرة. وجها لوجه. قد يوفقهما الله. قلبي الحزين يستحق لحظة من الفرح. مر علي □ يوم كامل. وأنا أخرج من نقرة. لكي أقع في دحدديدة. أخرج من مأساة لأصب في مصيبة. ولا أعرف متى ولا أين. يمكن أن تكون ثمة نهاية لكل هذا؟

أحلم بزواج نادي من ندا. كيف؟! الولد ضد فكرة الزواج. يعمل مدرسا للألعاب الرياضية. ومدربا في أكثر من نادٍ. ويبدو أن والده كان يتنبأ له بهذا العمل. عندما سماه نادي. نادي يعمل في النوادي. اسم علي مسمى. قال لأخيه ولأخته في الصيف الماضي إنهما هاجرا إلى الخليج. ولكنه تمكّن من إحضار الخليج إلى بيته.

يمر بعد الظهر على أكثر من نادٍ. يدرّب هنا. يتنطط هناك، ويعود إلى بيته مهدود الحيل آخر النهار. متعبا غير قادر حتى على النطق باسمه.

قال له شقيقه. من الصعب أن تفتح بيتًا. مطّ شفتيه وهز كتفيه. وقال له:

– ومن قال إنني أريد أن أفتح بيتًا؟ الزواج أسوأ  
نظام اجتماعي عرفته البشرية، لا أريد أن أصبح  
زوجا ولا أبا. سأعيش كما أنا.

قال له نجيب:

– تنتظر ك شيخوخة قاسية.

رد عليه نادي:

– عندما أصل إلى الشيخوخة. سأبحث عن ممرضة  
ترعاني. ويمكن أن أكتب كتابي عليها.

قال له أخوه:

– وتخونك مع أول عابر سبيل.

رد عليه:

– ومن قال إنني سأختارها تصغرنني في العمر؟  
ستكون من نفس عمري، إن لم تكن أكبر. نتعكز  
على بعضنا. ولأنها امرأة عليها أن تخدمني.  
ولأنني رجل واجب عليّ الإنفاق عليها. وستكون  
معي تحويشة العمر. المهم أن يكون الجيب

عمران. طالما أن المحفظة مليئة بالورق  
الأخضر. وحساب البنك أرقامه وصلت إلى  
الرقم السادس. كل الباقي تفاصيل.

يعيش ليومه فقط. قال له والده:

– المؤمن من عمل لدنياه كأنه يعيش أبدا. ومن  
عمل لآخريته كأنه يموت غدا. لم تكن نعرف عنه  
أي شيء.

قال لأبيه:

- والشاعر قال: اليوم لعب وغدا أمر.  
عندما نصل إلى الأمر يفرجها من لا يغفل ولا ينام.  
لم تكن تصلنا منه أي مشاكل. كانت أموره ماشية  
وفق منطقة الخاص.

مدرس بالنهار ومدرّب بالليل. وهو سعيد بهذا.  
إخوته الذين كانوا يترددون على النوادي. كانوا يعودون  
ليقولوا إنهم شاهدوه في النادي الفلاني. وقابلوه في النادي  
العلاني. وإن أسرة ما تكلمت عنه وعن أخلاقه. وأثنوا عليه

وعما يقوم به. كانت سيرته لا يوجد فيها ما نخافه. وأيضا ما يمكن أن نفرح له.

ولكنه بالنسبة لأولاد العائلة. عندما كنا نلتقي في القليل النادر. كان يصبح مثلاً أعلى للأولاد. كنت أغضب منه وأخاصمه أحياناً. عندما أقابله؛ لأنه لم يشأ أن يورث هذه الصفات لطفل وطفلة يحملان اسمه، ظروف جيدة، وظيفة وعمل بعد الظهر وشقة وشباب. ماذا ينقصه؟ نصف بنات البلد يجرين وراءه. لكنه كان عنيدا. قال أبوه قبل أن يموت بفترة. سيظل عنيدا إلى أن تقع الفأس في الرأس. ويتزوج غصبا عنه، قلت له:

– الشر بره وبعيد، تف من بلك. ليس لدي مانع من أن يظل عزبا إلى الأبد. على أن يقع.

قلت لوالده:

– من يقع لا يقوم من كبوته. ولا يفرد طوله. ولا يقف على قدميه. فالأيام الحنونة لم يعد لها وجود.

كان يهف على خاطري. كلما شاهدت مباريات رياضية في التلفزيون. كرة القدم بالذات. كنت أتذكره كلما سمعت أسماء النوادي بالصدفة. كنت أفتخر به، وأقول لجاراتي إن نادي هو الذي يدرّب هذا الفريق. وإن نادي ابني هو الذي يعلم هؤلاء الأولاد أصول اللعب. كنت أتكلم عنه كلما هلت عليّ في الكرة في التلفزيون. وكانت جاراتي يسمعنني ولا يعلقن. كن بيتسمن. ربما لا يصدقنني.

لم أكن راغبة في الكلام. كان ما بي يكفيني وزيادة. لكنني أحببت أن أمهد ندا. لمن نحن ذاهبون إليه. قلت لها. ونفسي ليست راغبة في الكلام. ولساني مصدود عنه. ولكنني غصبت نفسي؛ لأنني تصورت أن كلامي ربما يحل جزءا من المشكلة.

قلت لندا إن الذي نحن في الطريق إليه. يبدو أقرب أبنائي إليك. يحب الرياضة مثلك. لم أكمل الجملة. وهي أيضا لم تكن راغبة في الاستماع. يبدو أنها اختارت وصممت على الاختيار، مهما حاولت لن أصل لنتيجة معها. دخلنا أول الشارع الذي يوجد فيه البيت. اقتربنا من البيت الذي يعيش فيه نادي. وجدنا جمعا من الناس. ما أسهل أن

تجتمع الناس. يكفي أن يقف اثنان ليصبحا ثلاثة. ويتجمع حولهم خلق الله. خاصة بعد الزلزال.

عندما وصلنا إلى البيت. كان حوله خلق كثيرين.

سألتها:

– هل هذا هو بيت نادي؟!

قالت:

– الورق المكتوب يقول هذا.

كان الحي قديما ومعمرًا. ولذلك كانت هناك لافتة تحمل اسم الشارع. زرقاء اللون. وكانت أرقام البيوت شديدة الوضوح.

والبيت لم يكن بيتًا. كان جزءًا من بيت. والجزء الآخر وقع، نصف بيت سقط. والنصف الآخر واقف في الهواء، وهذا النصف الواقف. فيه شقة نادي. كان الناس يقفون في الشارع يشيرون إلى أعلى. حيث يقف في شرفة شاب وفتاة. الشاب يتكلم معها. كان بعض الواقفين يصنع من يديه ميكروفونًا. وينادي بأعلى صوته؛ لكي يتكلم معهما.

ظللت على عيني بيدي. ونظرت إلى أعلى. كان الذي في الشرفة المعلقة في الفضاء. ابني نادي. وكانت بجواره فتاة. سمعت الذين يتكلمون. قالوا إن الشروخ والتصدعات أصابت البيت لحظة الزلزال، وإنهم أدخلوا البيت من كل مكانه. إلا صاحب هذه الشقة. يبدو أنه انكسف، عزب وعنده بنت وفي حي شعبي. ماذا كان سيفعل؟ ماذا كان سيقول للناس؟ خاصة أن البنت يبدو من لبسها أنها بنت ناس.

الحكاية متناثرة على السنة الواقفين. كل واحد يقول جملة. والآخر يكمل كلمة وهكذا. قضايا الليل في الشقة. وفي فجر اليوم الثاني سقط نصفه. وسقط معه السلم. ومنذ لحظة وقوع الزلزال وحتى سقوط النصف. كان ممنوعا استخدام السلم. الذين نجوا هم الذين نزلوا في حموتها. قبل اكتشاف حالة البيت.

النصف الثاني من المتوقع أن يسقط في أي لحظة إنه واقف في انتظار لحظة الوقوع. أنت فرق الإنقاذ. ورجال الحي والبوليس. جاءت الدنيا كلها. كانوا يخلون البيوت المحيطة بنصف البيت الآخر. وينقلون السيارات التي تقف

في الشوارع المحيطة به، ويغلقون المحلات، ويفكرون في منع المرور في الشارع، وكانوا يفكرون وهم يقومون بكل هذه الإجراءات في إنقاذ الساكن والبنيت التي معه. الباقيين في النصف الثاني من العمارة.

أرسلوا في طلب سيارات النجدة والمطافئ والإسعاف. لكن سلالم المطافئ لم تصل إلى الدور الذي كان فيه نادي، كان يقف في الشرفة مصابا بحالة من الرعب. والبنيت على مشارف هستيريا. تصرخ: يا فضيحتي. موت وفضيحة. وهو يحاول أن يسكتها. الواقفون حولي يحذرون نادي - لم يكن أحد يعرف اسمه ويخوفون البنيت من الحركة - أي حركة ستوقع نصف البيت. الذي كان يبدو كفرع شجرة. والشجرة نفسها وقعت، والفرع مازال معلقًا في الهواء، والبيوت التي كانت حول البيت لم تكن تزيد على دور أو دورين أو ثلاثة. وكان بيت نادي محاطًا بشوارع من نواحيه الأربعة. كان يفخر بذلك. لو كان البيت ملاصقًا لأي بيت لسهل القفز إلى البيت المجاور. ولما حدثت مشكلة. كنت أقول له: البيت الوحيد عمر قصير. البيوت تسند بعضها.

كان يقول إن نوافذ البيت الوحيد وشرفاته تجعله جنة على الأرض.

جرت باتجاهي فتاة. كانت تقف في وسط الناس.

قالت لي:

- يا جدتي.

- من أنت؟!!

- أنا بنت بنتك نادرة. محروسة الصغيرة. جئت

أطمئنتك على خالي نادي. ماما أعطتني الفلوس

وطلبت مني الحضور للاطمئنان عليه.

أمسكت البنت بيدي. أشارت إلى أعلى، وقالت:

كل سلالم سيارات المطافئ في البلد. لم تصل

إليه، يحاولون أن يربطوا سلالم سيارة مع سلالم سيارة

أخرى. ويرفعونها إليه. لعله ينزل. مع أن البيت الذي يعيش

فيه نادي ليس عاليا. سبعة أدوار. وهو يسكن في الدور

السابع. كانت الشقة رخيصة الإيجار؛ لأن العمارة قديمة

وبدون مصعد. وهو قال يومها إنه حتى لو كان فيها مصعد.

فلن يستخدم سوى السلم. رياضي ويستخدم مصعدا هل هذا معقول؟ كانت ميزة الشقة قربها من المدرسة التي يدرس بها. كانوا يصعدون فوق البيت المواجه له. يقيسون المسافات. كانت هناك حالة من الدوشة واللخبطة والفوضى. الكل يعمل، والجميع يصرخ ويتكلم. ولا أعرف من الذي يعمل. ومن صاحب الكلمة.

البنبت التي فوق. كانت تشد شعرها وتصرخ. كانت تقف بملابس النوم. وابني بالفانلة الداخلية. والذين حولي يقولون. الجزء الذي وقع من البيت. فيه الملابس التي خلعوها. البيت مبني على شقة واحدة. ضحك أحد الواقفين وقال:

- لماذا لم تكن ملابسهم معهم؟

علق آخر:

- هل حبكت حتى يفعلوا ما كانوا يفعلونه في هذا

الوقت؟

قال ثالث:

– لقد أرسل الله الزلزال ليكشفهم. جاء الزلزال قبل صلاة العصر بقليل. ولولاه لاستمروا في فعل الحرام حتى وقت صلاة العصر.

قال آخر:

– ربما توقفوا لحظة الصلاة.

سأل واحد:

– هل كان الأمر يفرق لو أنهم فعلوا ذلك بالليل؟

كان هناك واحد فقط منصف. قال:

– الجميع يرغبون في فعل هذا. سوء حظهما. وأشار إلى أعلى. هو ما جعل الزلزال يقع في الوقت غير المناسب ولم يلهمه الله الصواب حتى يتصرف وينزل مع الهزة الأولى.

كان الكلام موجعا. ربكم والحق. خجلت من أن أنادي عليه. أن أعلن أنني أمه. خفت من نظرات الناس. تهيبت من الواقفين. لا أعرف ماذا يمكن أن يفعلوا معي. قد يشتمونني. قد يقولون لي لو أنك رببته ما فعل الحرام.

خفت. سكت. وقفت كواحدة غريبة. تهت في وسط الناس. حذرت البنت الصغيرة أن تعلن للناس أننا أهل المعدول. في يدي نجم الدين ابن نادر، وفي الثانية محروسة ابنة نادرة. وبعجائي ندا ونحن لا نعرف ماذا يمكن أن نفعل.

لم يكن لدي □ أمل في إنقاذه. حالة الفوضى كانت كفيلة بوقوع نصف البيت. مسكين نادي. من التي كتبت عليها الفضيحة. قلبي معها. سمعتني ندا أكلم نفسي بصوت منخفض. قالت لي: لا تقلقي يا ماما. المهم أن ينزلا سالمين. ويذهبا إلى قسم الظاهر ويكتب عليها هناك، وينتهي الأمر.

قلت لها:

- وهل يرضى أبوها. ألا يعتبر تزوجها غصبا عنها؟

قالت:

- لماذا الكلام عن البلاء قبل وقوعه؟ فرصة وجاءت لندا. لكي تتخلص من نادي. جاءت لها على الطبطاب. هل كانت تعلم بحلمي؟!

جاءت سيارة مطافئ. رفعوا السلالم التي كانت معها. كانوا يرفعون السلالم في الهواء ويصعد عليها شخص ملبسه سوداء. وعلى رأسه خوذة سوداء. وفي قدميه حذاء طويل أسود. صعد العسكري إلى آخر سلمة. كانت بينه وبين الدور الذي يقف فيه نادي مسافة.

تناقش الواقفون. قالوا لو أن البنت قفزت وقفز هو. ونزلا عند آخر السلم، حيث يقف عسكري الإنقاذ. قالوا: ذلك مستحيل. لا يمكن لإنسان خائف أن يضبط إيقاعه على الشعرة، لو أن الولد لاعب سيرك. ولو أن البنت لاعبة عقلة لكان ذلك ممكناً

قال أحد الواقفين. لو أن الولد عنده حبل وربطه في الشرفة، ورماه إلى عسكري الإنقاذ. طلب الضابط من الواقفين الصمت. قال لهم: نقطونا بسكاتكم. نحن نعرف شغلنا، ولن يمسه سوء وستنزلهما.

أنزل السلم. وقال إنه سيحاول إحضار سلم آخر. أو وصل سلمين ببعضهما. الأمر يحتاج إلى لحام. تساءل الناس عن سلم طويل. قال إنه موجود ولكنه يستخدم في عمليات إنقاذ أخرى، ولا بد من الانتظار.

سمعت من يقول. إن الإسكندرية فيها سلالم أفضل.  
وسمعت من يتكلم عن سلم بورسعيد. وسمعت من يقسم أن  
السد العالي به سلم. وهكذا تاهت المسألة. يبدو أن الأمر  
سيحتاج إلى وقت طويل حتى يحضروا السلم وينقذوا نادي.

كنت في أصعب موقف مررت به في حياتي. ماذا  
يمكنني أن أفعل؟ كانت الاقتراحات كثيرة وبعضها مضحك.  
كان هناك من يتكلم عن ربط حبل بين البيت والبيت المواجه  
له. ويمسك المعدول في الحبل بيد. ويحمل المعدولة بيده  
الأخرى. مثلما فعل طرزان في آخر فيلم. الحبل في يد  
والسنيورة تركب على ظهره، ويحيي الناس باليد الأخرى.  
شخط فيه شخص. وقال له إن الوقت لا يحتمل المزاح. نحن  
أمام حياة اثنين مطلوب إنقاذهما. ولا نتركهما لموت مريع.  
قال آخر، الموت هو الموت.

سألت نفسي: وهل يقف أهل البنت صامتين بيننا دون  
إعلان عن أنفسهم؟ تفرست في الوجوه. كان من الصعب  
الاهتداء إليهم. والناس من حولي منهم من يضحك. ومن  
يشمت. ومن يشير ويقول: لعلنا نتعظ من منظر العصاة

الخطاة. وكان ثمة صوت يأتي من المسجد. يكلم المصلين عن المشهد الذي نراه. وأنا لا أجرؤ على النطق.

عندما قالت البنت خالو، قرصتها في يدها. وضغطت على الولد. رغم انه لم ينطق بشيء. لم أكن قادرة على مواجهة الناس. بأنني أم هذا الولد الذي فوق المعلق بين السماء والأرض. رغم أنني كنت مستعدة للوقوف مكانه، وأن أفديه بعمرى. ولكن كيف أفعل هذا؟

المجانين من حولي يمكن أن يفتكوا بنا. لو قلت أنا أمك يا نادي بصوت عالٍ ربما قفز من مكانه مع أن الكل يطلب منه عدم الحركة، أن يكون ثابتًا في مكانه بقدر الإمكان. أقل حركة يمكن أن تسقط المبنى كله.

وقفت واحترت. ماذا يمكنني أن أفعل؟ أنا مختلفة عن الواقفين. هم يشاهدون منظرا لا يعينهم. لكني أشاهد ابني. وأعرف أنه من الممكن أن تنهار بقايا البيت في أي لحظة.

عندما اقترحت ندا أن نمشي. استبشعت اقتراحها. نظرت إليها وكدت أن أشتمها. لكني اكتشفت - بعد قليل - أن بقائي ليس له معنى. ما دمت غير قادرة على الإعلان

عن نفسي. فالأمر إذن سيان. سواء مشينا أم بقينا. تحركنا أم بقينا هنا حتى الصباح.

قال أحد الواقفين برزانة. إنه لو جاء أي تابع للزلزال. سينهار نصف العمارة. وإن بقاءه معجزة. وإن نصف العمارة بقي؛ حتى نشاهدهما لأننا لو حكينا المشهد لأنفسنا وأولادنا لن يصدقنا أحد.

كان السباق بين الحياة والموت مريعاً.

هل أقول كان السباق بين الموت والموت مأساوياً؟!!

.. عندما سحبتني ندا من يدي نحو السيارة. كنت  
كالمنومة. تحركت بالسيارة. تعرف أن مشوار نادي بالظاهر  
كان فصل الختام بالنسبة لنا؛ لذلك لم تسألني إلى أين؟! أنا  
التي سألتها. والكلام يخرج من فمي بصعوبة:

– على فين؟!!

تذكرت أن الولد والبنت ليسا معنا. تاها مني في  
الزحام. فلتا من يدي. مع أنني كنت أمسك بيديهما بكل قوة.  
قلت لها لن أتحرك قبل إحضار الولد والبنت معي. لا يمكن  
أن أتركهما هنا.

سأبتني في السيارة. ذهبت. تبحث عنهما. عادت أولاً  
بالبنت. أجلستها على الكنب الخلفية. قلت لها: والولد؟!  
تركتني وذهبت تبحث عنه. سألت نفسي: إلبدي ندا هذه  
الطاعة؟ هل هي جزء من تصرفاتنا ونحن على البر؟ حيث  
يقدم كل منا أفضل ما عنده؟ داخلة على جوازه. تخطط  
لخطف رجل منا. وأي رجل؟! زينة الرجال، قد تفعل أكثر  
مما فعلته. حتى تحقق ما تريد.

مكثت وقتًا أطول. وعادت ومعها الولد. طلبت منه الجلوس على الكنب الخلفية بجوار البنت. فكرت أن أستأذن منها وأن أشكرها على ما قامت به. وأن أنصرف لوحدي. تذكرت أن المبلغ الذي كان معي، أخذه المعدول ناجح. لها دين في عنقي. لا أعرف كيف سأرده ولا متى. مهما كان الأمر فهي غريبة عنا. إن لم تتم الزيجة – وهذا ما أرجوه وأخطط له – ستعايرني بهذا المبلغ. في جميع الأحوال لا بد وأن يعاد لها. حتى لو كان الاتصال الأخير بها من أجل إعادته.

إلى أين تذهب؟! كانت الأفكار تدور في عقلي. كنت أعرف المكان الذي أريد الذهاب إليه. ولكن مشكلتي هي هذه المرأة التي بجواري. تحركت ندا بالسيارة. سألتها:

– على فين؟

قالت:

– على البيت.

– أي بيت؟

نظرت إليّ مستغربة:

– بيتي.

سألته بحدة:

– بيتك أنت؟

قالت:

– نعم.

قلت:

– لا.

كان في كلمتي من العداء ما يتنافى مع ما قدمته لي،  
بدلاً من أن أشكرها صحت فيها.

– سأذهب لبيت ابني.

قالت لي:

– ابنك من؟

قلت:

– الذي كان يكلمك في التليفون في انصاص  
الليالي. سأذهب إلى زوجته الحامل في شهرها

التاسع. بطنها أمامها عشرة أمتار. لا بد وأن  
الذي في بطنها توأم.

سألنتي:

– متأكدة إنه الشهر التاسع يا طنط؟

انتهينا من التمثيل وبدأ الجد صحت فيها:

– طنطك متأكدة. كنت عندها قبل حضوري إليك.

تملكتني رغبة في إيذائها، مع أنني كنت ممتنة لما  
قدمته لي. قلت لها. إنها تعرف حتى عدد الأنفاس التي تتردد  
في صدرك. وأنا أخاف على ما في بطنها. فهو ألمي الوحيد  
الذي أعيش في الدنيا في انتظار مجيئه.

أخرجت همها في السيارة. قفزت السيارة في الهواء،  
لدرجة أنه خيل إليّ أن سيارة خبطتنا من الخلف. طارت بنا  
السيارة. سألتني:

– أوصلك فين؟!!

قلت لها:

– بالقرب من بيته.

سألتنني:

– بيت من؟

قلت لها: نجيب لا بد وأنتك تعرفينه.

قالت:

– وسأعرفه من أين؟

قلت:

– تعرفين يا شاطرة. وأنا أعرف أنك تعرفين.

غصب عني كنت أعاملها بجفاء وقسوة. كانت لطيفة  
معي. وحاولت أن تخدمني. ولكني يا روجي ما بعدك روح.  
ران علينا صمت متوتر. ما كنت أحب أن تنتهي الحكاية بهذه  
البشاعة. لكن هذا ما كان.

قلت لها، المبلغ الذي وضعته في حقيبتني، سأرده لك.

قالت:

– الجيب واحد يا طنط.

قلت لها:

- جيبى ليس جيبك.

حتى تغىظنى قالت: كله من خير نجيب.

قلت لها:

- لا تتمسحى فىه. خيره من أجل أسرته.

خفت أن تلمنى فى المسافة الباقية من الطريق بحقيقة موجعة. تقول لى أنا زوجته. والورق معى. يبدو أن هذا لم يحدث. لأننى قطعت عرقاً وأسلت دماً. وإن حل المشكلة قد اقترب من نهايته.

سارت مسافة طويلة. من الظاهر إلى السيدة زىنب. لو كان فى جيبى مال لأخذت تاكسيا. وتركتها فى الظاهر. كان أقرب إلى بيتها. وإن لمحت أننى ليس معى مال. ستدفع لى من جديد. وهذا ما لا أريده.

فى بيت نجيب سأجد كل ما أحتاجه. الراحة والمال. كنت أشتاغل بالنظر إلى ما يحدث فى الشارع. وهى كانت تركز فى النظر أمامها. والولد الذى ورائى. نجم الدين الصغير. والبنات التى بجواره. محروسة الصغيرة. بدأ فى الكلام. علقا على منظر نصف البيت الباقي. ونصف البيت

الذي وقع. وخالها وعمه المعلق في الجو. لم يتكلما عن  
حكاية البنت التي كانت معه.

كانا يتكلمان عن رغبتهما في أن يشهدا نهاية  
الموقف. ومتى تحدث؟ وكيف؟ قال الولد للبنت إنه صاحب  
ولداً من الحنة. أخذ رقم تليفونه. ومن المكان الذي سيستقران  
فيه، سيضرب له تليفوناً. يعرف منه ماذا جرى. مادمنا قد  
مشينا ونصف البيت الباقي معلق في الهواء.

أعجبت البنت بذكاء الولد. وطلبت منه أن يبلغها بما  
سينتهي إليه الأمر عندما يعرفه. وعدها أن يبلغها. نظرت ندا  
إليّ في صمت. لا بد وأن هذه الحية تفكر في الانتقام مني  
ومن زوجة نجيب.

كانت تعرف الطريق. لم تسألني لا عن الحي ولا  
الشارع ولا رقم البيت ولا طريقة الوصول. كما فعلت في  
المشوارين اللذين قمنا بهما صباح اليوم. لا بد وأن المعدول  
كان يسهر عندها. وكانت تنزل توصله. لم يكن يمتلك سيارة.  
كان يقول إنه من الصعب عليه تعلم السواقة. لا بد وأنها  
كانت تأخذه من عند البيت وتعيده إليه.

تحفظ الطريق. حتى المطبات الصناعية. تعرف أماكنها. تهدي قبل الوصول إليها. والانحناءات والشوارع الجانبية والدورات كانت تحفظها.

كم مرة مشيت في هذا الطريق؟! كم مرة استغل ثقة زوجته به؟! كم مرة حمى نفسه بسياج الفضائل. التي اعتقد أنها نزلت إلى الدنيا لتكون من صفاته؟ كم مرة فعلتها يا نجيب مع هذه الملعونة؟ حتى ابني الذي كنت أرجو أن يتزوجها تركناه في ورطة.

فكرت أن اعتذر لها عن قسوتي. ولكن الصمت بدا لي أكثر أمانًا. من يدريني؟ قد أضعف أمامها وينتهي تصميمي على تخليص ابني منها. سألت ندا الولد عن الألعاب التي يلعبها. فقال: كرة القدم. استدرك: يلعبها بالكرة الشراب أمام البيت. سألت البننت عن النادي الذي تتردد عليه. فلم تجبها؛ فالسؤال كان غريبًا. فعدنا إلى الصمت المشحون المتوتر.

كنت أريد الهروب. لو كان في جيبي مليم واحد لصممت على النزول. فكرت أن أوقفها ونزل وأن نستقل تاكسيا. وتدفع عايذة له. لم أكن أضمن أنني سأجدها. ربما

ذهبت إلى أهلها. تركتها في حالة سيئة. وأنا أعود مستبشرة  
أن نصف المشكلة عرف طريقه إلى الحل. هذه المرأة ستبعد  
عن ابني نصف بعاد. بعد أن عرفت مني ما عرفته.

عندما لطمتها أن عايده حامل. قالت لي. حمل كاذب.  
إنها تتصنع الحمل يا طنط. صحت فيها: بعد عشرة أيام  
سيأتيها الطلق. طلق الولادة. أنا امرأة وأعرف ما لا يعرفه  
الرجال. وأنا أم وحماة وجدة. وما في بطنها حفيدي. بيني  
وبينه خيط غير مرئي. سمعت بالأمس صوت تنفسه. تناهى  
إلي □ تألمه مما يفعله أبوه. وأنا متأكدة مما أقوله.

يبدو أنها راهنت على عدم حمل عايده. عقمها كان  
أمل ندا الأخير. في أن تستولي على نجيب وتتزوجها، قالت  
لي إن علاقتها بابني شريفة. هكذا تعلمت الأصول. فهي من  
بيت حسب ونسب. قلت لها: عشم إبليس في الجنة. كانت ندا  
تخرج من ضباب الذهول.

بالقرب من البيت. وقفت من نفسها. لم أطلب منها  
الوقوف. وتقولني بنت أصول. أي أصول يا بنت الحسب  
والنسب؟

نزلت. أخذت الولد في يميني. والبنت في يساري.  
واتجهت إلى البيت. لم أنظر إليها لأشكرها. كنت أقفل الباب  
أمام الضعف الذي كان يعاودني مثل الوجع الذي يروح  
ويجيء. قلت لها في سري:

- يا ابنتي للضرورة أحكام. وأنا لا يمكنني أن  
أفعل غير هذا. التي أعرفها خير من التي لا  
أعرفها. وأنا أعرف عابدة لكن ندا نادت عليّ.  
كانت جالسة وراء مقود السيارة. أنزلت الزجاج.  
أخرجت رأسها، وصاحت بصوت عالٍ:  
- عندما يتصل نجيب. هل تريدين منه أي شيء؟

لم أرد عليها. كدت أن أستمها. أن أفراج عليها خلق  
الله. أن أجعلها مسخرة للعابرين.

هي التي نادت عليّ مرة ثانية. بنت فاجرة. تقتل  
القتيل وتمشي في جنازته. تخرب البيت وتقف حارسة على  
بابه. سألتني:

- عندما يتكلم نجيب - ولا بد وأنه يتكلم كثيراً -  
والجملة الاعترافية مطت حروفها طويلاً وهي

تنطق بها. هل تحكي له ما رأيناه أم لا؟ أليس  
من الأفضل أن نخفي عنه كل هذه البلاوي؛ حتى  
لا يحدث له مكروه في الغربية، وهو بعيد عن  
إخوته.

قلت لها بعلو الصوت:

- اخرجي منها وهي تعمر!

لوحث بيدها. ابتسمت الابتسامة القديمة. الابتسامة  
الطفولية التي أحببتها عندما رأيتها لأول مرة في بيتها. قالت  
لي:

- محال.

سألتها:

- وما المحال؟

قالت:

- خروجي من الموضوع.

تركتها ومشيت مع الولد والبنث. كان آخر ما سمعته  
منها: لقد أصبحت في قلب الحكاية يا طنط.

مشيت مقهورة مكسورة الجناح. مهزومة في معركة  
لم أخضها.

خيل إليّ أنني قد لا أصل إلى البيت. الحقيبة معلقة  
في كتفي. والبنت لا تزال واقفة بسيارتها. لم تتحرك.  
أوشكت أن أعود إليها وأطلب منها الانصراف ما الذي  
يمنعها أن تخط علينا الباب وتدخل الشقة؟ حتى تقتل عايده  
بالحيا، تغتالها، وتقتل ما في بطنها.

كنت أريد أن أنهي المشهد بأسرع ما يمكن. ربما  
كانت عايده تشاهدنا. وإن رأته ما يجري قد تموت. أسرعت  
في سيرى. اشتكي الولد، وشكت البنت من عدم قدرتهما على  
متابعتي في السير. أبطأت ثم أسرعت. ثم أبطأت حتى وجد  
نفسى أمام باب الشقة. ضغطت الجرس. عندما انفتح الباب  
شعرت أنني قد كتب لي عمر جديد.

كنت قد طلبت من الولد. ومن البنت ألا يتكلما عن  
المرأة التي كانت معنا. ألا ينطقا باسمها. لم تكن لديّ أي ثقة  
في التزام الأطفال بما يطلب منهم لكن طلبت منهم ذلك  
والسلام. لأنهما لو تكلمتا لتحولت حياة عايده إلى جحيم. ولما

رأيت وجهيهما مثقلين بالأسئلة. قلت لهما، إنهما بعد أن يكبرا  
ويتقدم بهما العمر سأحكي لهما الحكاية كلها.

\*\*\*

دخلت. أول ما نظرت له كان طب الفاكهة. كان  
مكانه خاليا؛ تشاءمت، أشرت إلى الولد. وقلت اسمه.  
وأشرت إلى البنت وقلت لها اسمها. رحبت بهما. وعائدة  
كانت غاضبة. كيف أبيت في مكان غير بيت العائلة؟ كيف  
هان عليّ قضاء الليل بعيدا عن أحب الأماكن إلى نفسي؟ قلت  
لها: الدوخة والمشى والجري هي السبب.

جلست في بيت ابني. وجلس الولد والبنت. حكيت

لعائدة

- دون الدخول في التفاصيل - ما جرى لي منذ أن  
تركتها. حتى عدت إليها. وذلك بعد أن حذف  
موضوع ندا كله.

قالت عائدة إن نجيب لم يتصل بها. التليفونات معطلة  
بسبب الزلزال، لا بد وأنه حاول الاتصال ولم يتمكن. كانت

عايدة تتصرف بسكينة وهدوء ما كانا يشعان منها بالأمس؟  
ماذا جرى منذ أن تركتها؟ هل أحست بما فعلته من أجلها؟

طلبت من عايدة أن تستعد للسفر معي إلى البلد الآن  
وفورا. خفت عليها أن أتركها بمفردها. خفت عليها من البنت  
النورية. قد تضربها. بالسيارة وهي تسير في الشارع. قد  
تؤجر بعض البلطجية ليقروا بطنها ويغتالوا الطفل الآتي  
وهو مجرد جنين.

هل توافق عايدة على السفر إلى البلد؟ قد تعارض  
الفكرة. ربما تريد البقاء في بيته. قالت إنها في شهورها  
الأخيرة. وتحتاج أن تكون تحت إشراف طبيب. قلت لها:

– وهل سنأخذك إلى بلاد واق الواق؟ عندنا أطباء  
ودكاترة ومستشفى وحكيما. وفي أقل من  
نصف ساعة نكون في مصر. كيف تخافين وأنت  
معي؟

طلبت أن يكون السفر غدا وليس اليوم. قالت إن  
نجيب لا بد وأن يتصل بها. قلت لها: سنتصل به بمجرد  
وصولنا إلى البلد. سنسجل مكالمة ونحولها على البلد. وافقت

أن تسافر معي. استأذنت ودخلت لكي تلبس ملابسها. لبست  
وخرجت سألتني عن الولد والبنت. قلت:

– سنأخذهما معنا وسنقول لأبي الولد والبنت إنهما  
معنا.

قالت لي: أبو الولد ليس عنده تليفون قلت: سأبلغه  
حتى بإرسال تلغراف، لكني أريد المشي من هنا قبل الدقيقة  
القادمة. قالت لي: تحت أمرك يا نينة لا أستطيع أن أقول لك  
لا.

اتجهنا نحن الأربعة إلى الشارع. بحثنا عن تاكسي.  
أفهمتها أنني ليس معي ولا مليم. ضاع ما كان معي خلال  
الرحلة، قالت معها من الفلوس ما يكفي. كنت أتصور أننا  
سنركب التاكسي حتى أحمد حلمي ومن هناك نركب تاكسيا  
بالنفر إلى البلد.

فوجئت بعابدة تقول للسائق. الروضة. توقف وقال  
لها إنه يريد أن يقاومها على الأجرة فهو لن يشغل العداد؛ لأنه  
سيعود فاضيا من البلد البعيد، قالت له إنها على الرغم  
من معرفتها أنه لن يعود فارغاً. فإنها ستعطيه ثلاثين جنيهاً.

تحرك التاكسي. وقف السائق، يبدو أنه كان مترددا في القيام بالمشوار، توقف أكثر من مرة. ليضع بنزينًا في السيارة. ووقف في محطة ليكشف على الكاوتش. وثالثة لضبط الموتور. رابعة ليتأكد من أنوار السيارة. ورغم أنه لم يكن بطبيئًا فيما يقوم به. إلا أنه 'يُلي إلي' أنه استغرق وقتًا طويلاً قبل الخروج من مصر.

عندما لاحظت لي الحقول التي على مشارف المدينة. وشممت رائحة الأرض المروية حديثًا. ووصلت إلى خياشيمي رائحة الزهور والحقول والخضرة حتى تشهدت وبدأت أعيش تفاصيل القصة المحزنة كلها من جديد.

\*\*\*

كنت وحيدة عندما سافرت.

وها نذا أعود برفقة أربعة.

الولد والبنت وعائدة والذي في بطنها.

هل أريد أكثر من هذا؟

ما زال السؤال يدق عظام رأسي:

هل فات الأوان يا أبنائي؟

كنت قادرةً فقط على طرح السؤال.

أما الإجابة عليه.

فقد كانت حكاية أخرى.

عند مشارف الروضة. نظرت في ساعتني. كانت

الثالثة والرابع بعد الظهر بالدقيقة والثانية..

كانت دهشتني كبيرة

لكن خوفي الآن أصبح أكبر.

تمت

أغسطس ١٩٩١